

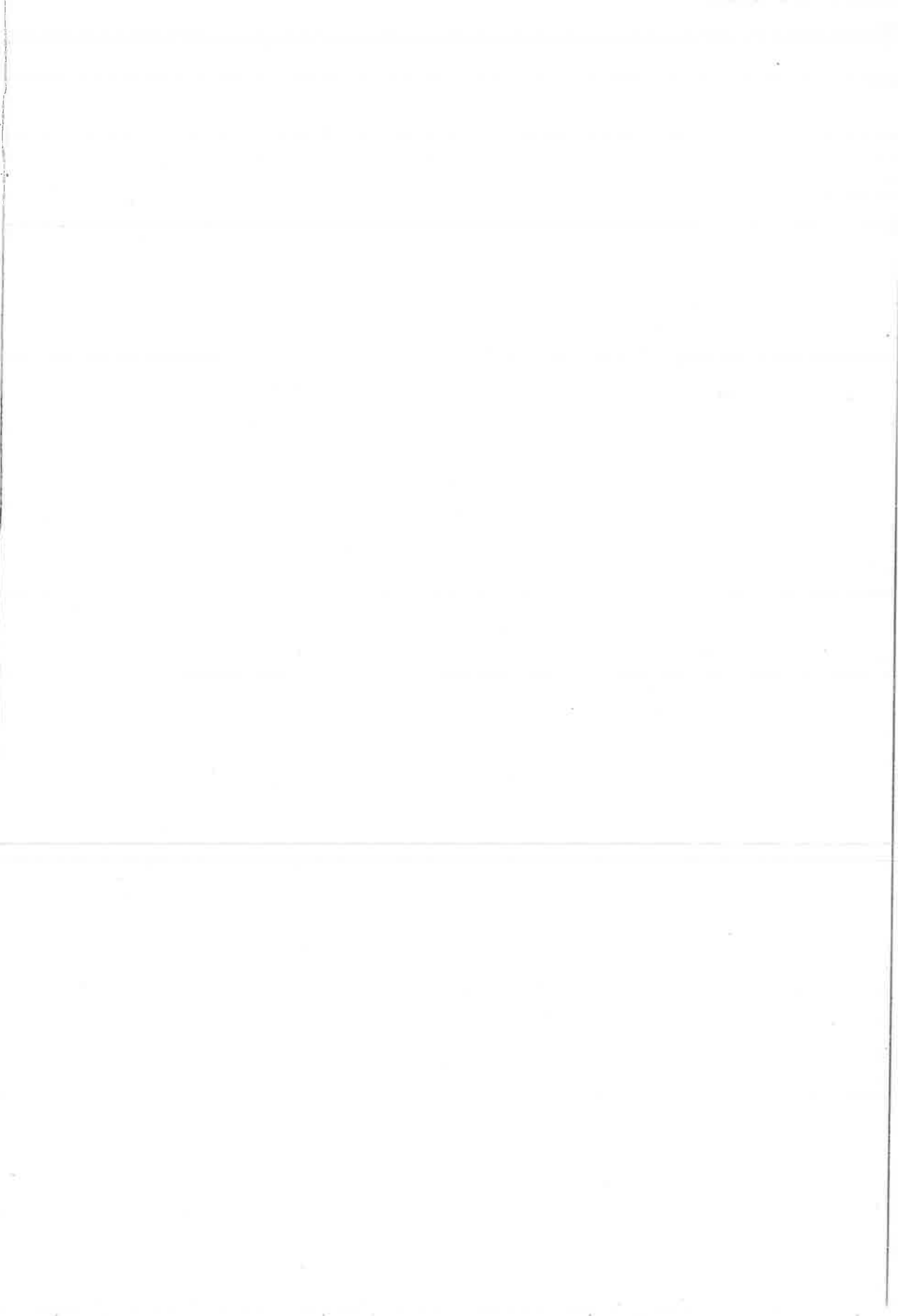
الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

هوان المسلمين أمام الواقع

وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار النحوي
للنشر والتوزيع



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

هوان المسلمين أمام الواقع
وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات

الدكتور
عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

ح دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

هوان المسلمين أمام الواقع وتعدد المواقف ... / عدنان علي رضا محمد النحوي ، ١٤٢٧هـ

٢٦٩ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٠-٠-٩٧٧٩-٩٩٦٠

١- المسلمون - تاريخ - العصر الحديث ٢ - الإسلام - مقالات ومحاضرات أ- العنوان :

ديوي : ٢١٠,٨ ١٤٢٧/٢٩٤٣

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٢٩٤٣

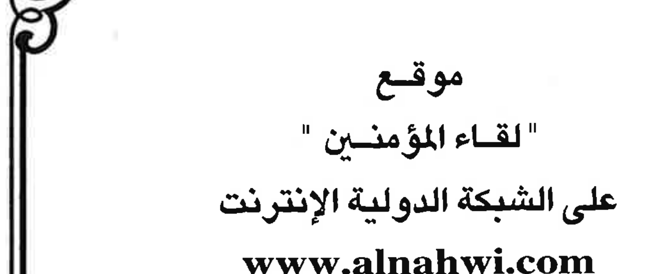
ردمك : ٠-٠-٩٧٧٩-٩٩٦٠



الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
موقع الانترنت : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية



موقـع

" لقـاء المؤمنـين "

على الشبكة الدولية الإنترنت

www.alnahwi.com

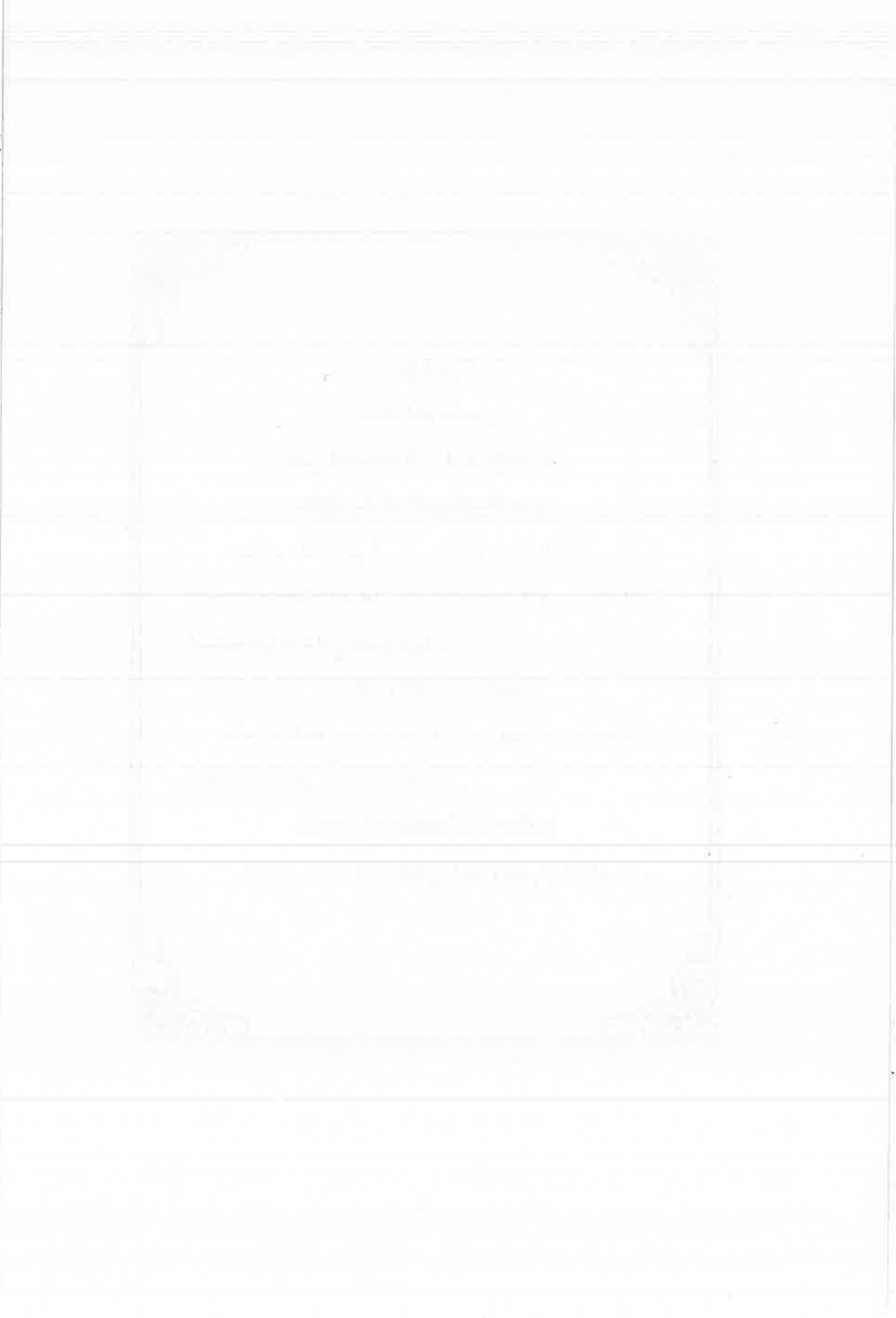
يهـدف هذا الموقع إلى المساهمـة مع المواقع الإسـلاميـة الأخرى وجهـود العـاملين إلى بناء الجيل المؤمن وبناء الأمة المسلمة الواحدة التي تكون فيها :

كلمـة الله هـي العليـا

نـأمل التلطف بزيارة هـذا الموقع وإبداء مـــلاحظاتكم ونصائحكم على البريد الإلكتروني :

info@alnahwi.com

كما يسرنا دعوة إخوانكم وأصدقائكم لزيارة الموقع .





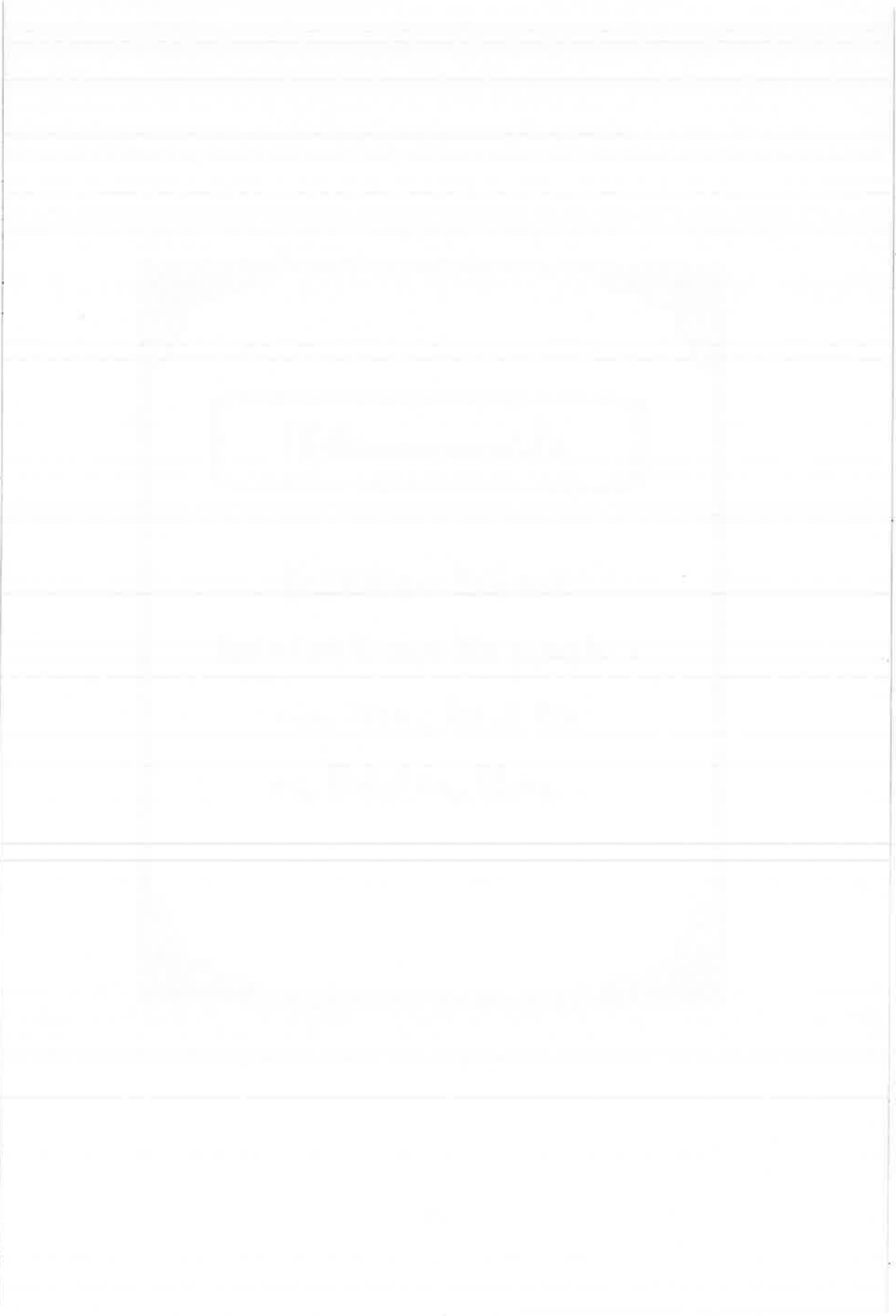
الإهــــــــــداء

إلى القلوب المؤمنة

المتفتحة لنُصْرة الله ورسوله ،

حتى تكون كلمة الله

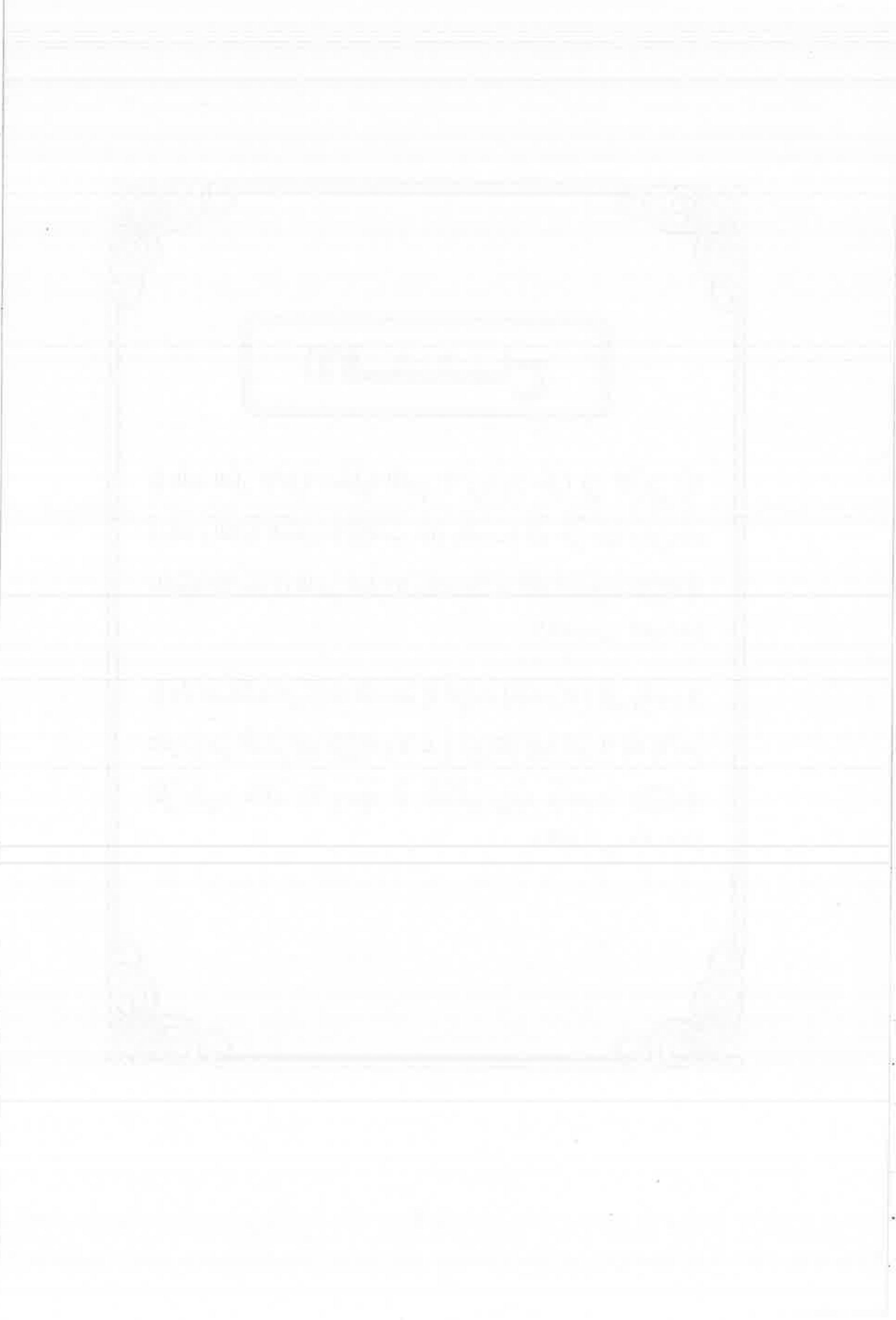
هي العليا في الأرض .



الافتتاح

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾
[القصص: ٨٣، ٨٤]

﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾
[القصص: ٨٧، ٨٨]



كلمـات مضـيئـة

للدكتور عدنان علي رضا النحوي

بنــاء الإنســان

إن بناء عـمارة مـهـما عظمت يسهل إذا قيس ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الرباني . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيون ، أما بنـاء الإنسـان وإعداده وتدريبه فـهي مـهـمة بعث الله من أجلهـا الرسل والأنبيـاء الذين خُتموا بمحمد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن ، على أَسَاس من المنهاج الربّاني - قرآنا وسنة ولغة عربيّة -.

* * *

حقٌّ التعـاون بين المؤمنين ووجوبه

يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله أن نختلف فيه .

* * *

خافوا على أنفسكم

أيهـا النـاس ! أيهـا المسلـمـون ! أيهـا الدعـاة ! كـمـا تظـهـرون الخـوف على الإسـلام ، مع أنَّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معـه ، فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نـصرتم الله كـمـا أمركم وتجنبْتُم الفتن التي نهـاكم عنهـا ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا ؟ ! خافوا على أنفسكم كما تخافون على الإسلام .

* * *

إذا غاب النهج والتخطيط

إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني في واقع أيّ أمّة ، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضج بها ولا تجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخطا ، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثم الخدر يسري في العروق ، ثم الشلل ، ثم الاستسلام !

* * *

فريقان

فريق له نهجه وخطته وفريق لانهج له ولا خطة

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لا نهج له ولا خطة إلا الشعارات يُدَوِّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوِّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .

* * *

الأهداف الربانية وتحقيقها

إن الأهداف الربانية لا يمكن تحقيقها إلا بجنود ربانيين ووسائل وأساليب ربانية . وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد رباني .

* * *

العاجز

من عَجَزَ عن إصلاح نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره أو إصلاح المجتمع .
كم من الذين ينادون بالإصلاح والتغيير هم أحوج الناس إلى الإصلاح .

* * *

تَقبُّل النصيحة

من سدَّ أذنيه عن النصيحة فَقَدَ فرصة عظيمة لمعرفة أخطائه ، وفرصة أعظم لمعرفة سبيل الإصلاح والعلاج ، وتعرَّض أكثر للمتاهة والضلال .

* * *

إتباع الحقِّ لا الهوى

إن الهوى لا يُصْلِحُ بل يفسد ويدمِّر ، وإن اتّباع الحق هو سبيل الإصلاح للفرد والأسرة والجماعة والأمة ، وكذلك للبشرية كلها .

* * *

من صدق الله نجا

بين الحق والهوى باب ابتلاء وتمحيص . من صدق الله نجا ودخل إلى الحق ، ومن ضل هلك ودخل إلى الهوى .

* * *

تكامل الإسلام
وتكامل الدعوة إليه

ليس من الحكمة أن نكتفي بإعلان مبادئ الرحمة والعفو والتسامح والسلام في الإسلام ، حين يكون مثل هذا الإعلان مظهراً من مظاهر الضعف والهوان والاستسلام أو يوحي به . ولكن الحكمة والواجب أن نُظْهِرَ تكامل الإسلام من عفو وتسامح ، ومن عقوبة وحزم ، ومن سلام وحرب ، ومن حكمة وتشريع ، ومن إيمان وتوحيد .

* * *

أيـن تبتـدىء المعركـة

إن المعركـة مع أعداء الله تبتدئ أولاً في نفسك أيها الداعيـة المسلِم ، فإن انتصرت بها ، فيمكن الانتقال إلى جولة بعد جولة ! وإن هزمت بها فستُهزَم في سائر المعارك ! وتظل هذه المعركة ممتدَّة مع المسلم حياته كلها حتى يلقى الله .

* * *

الحَيْدُ عن الصراط المستقيم

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل صراطه الحقَّ مستقيماً، حتى لا يَضلَّ عنه أحد. وجعله سبيلاً واحداً حتى لا يُخْتَلَفَ عليه، وجعله صراطاً مستقيماً ليَجمع المؤمنين أُمَّةً واحدة وصفّاً كالبنيان المرصوص.فلماذا تاه المسلمون عنه فتَفَرَّقوا، واختلفوا عليه فتَمزَّقوا، ثمَّ ضَعُفُوا وهانوا ؟!

* * *

حتى يفيقوا أو يهلكوا

وكلَّما تواني المؤمنون عن الوفاء بالعهد والتزام الحقِّ والدعوة الصافية في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص ، أنزل الله بهم البلاء والعقاب والعذاب ، حتى يستيقظوا أو يهلكوا .

* * *

أخـوة الإيمـان
عاطفة ومسؤوليات

إن أُخوّة الإيمان ليست عاطفة فحسب ، ولكنَّها مسؤوليات وواجبات ، وحقوق والتزام ، لاتسقط حتى لو تغيَّرت العاطفة . إنَّها رابطة المؤمنين في الأرض جميعاً ، رابطة يجب الوفاء بها . إنها رابطة ربَّانيّة أمر الله بها المؤمنين جميعاً ، حتى يكون الولاء الأوَّل لله ، والعهد الأوَّل مع الله ، والحب الأكبر لله ورسوله . وبغير ذلك لاتتحقق أُخوة الإيمان .

* * *

لو حقق المسلمون
أخوّة الإيمان في واقعهم

لو أنَّ المسلمين حققوا في واقعهم " **أُخوة الإيمان** " كما أمر بها الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ لأنزل الله نصره عليهم ولسادوا العالم ! ولأعزّ الله الجميع !

* * *

أخوة الإيمان
والولاء الأول لله
والعهد الأول مع الله وحده
والحبّ الأكبر لله ولرسوله.

لاتصدق أخوّة الإيمان في ميدان الممارسة والتطبيق إلاّ إذا كان الولاء الأول لله وحده دون شرك ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر لله ولرسوله ، ثمَّ يَنبع كلُّ ولاء وعهد وحبٍّ في الحياة الدنيا من الولاء الأوّل والعهد الأول والحبّ الأكبر .

* * *

كلمة المؤمن
صادقة طيبة

كلمة المؤمن طيّبة ، قويّة ، واعية ، لاتنحرف عن الصراط المستقيم . إنها بركةٌ للناس ، ونورٌ في الحياة ، وسلاح في الميدان . وهي أساس حرّيّة الرأي ، وأساس النصيحة ، وقاعدة الشورى .

* * *

الخلل فينا والأخطاء منّا

لايختلف مؤمنان في أنّ كلّ مايجري في الكون والحياة ، من أمر صغير أو كبير ، هو بقضاء الله وقدره : قضاء نافذ ، وقدر غالب ، وحكمة بالغة ، وحقّ لا ظلم معه أبداً . ومن هنا وجب علينا شرعاً أن ننظر في أنفسنا ، في واقعنا ، فالخلل فينا ، والأخطاء منا ، والتقصير جلي كبير ! .

* * *

أيها المسلم !
إنّك مسؤول ومحاسَب

إنك مسؤول أيها المسلم ، وإنك محاسَب ، ولايغرنّك أن تقول لنفسك إنّ المسؤولين هم العلماء والدعاة وحدهم . نعم إنهم مسؤولون ومحاسَبون وإنك مسؤول ومحاسَب . ولاتنفع الندامة والحسرة يوم القيامة ! فانهض إلى مسؤوليّتك أيها المسلم .

* * *

منهاج الله ودراسته
وتدبّره وممارسته في واقع الحياة

أيها المسلم ! لاتكن كالميت بهجرك دراسة منهاج الله وتدبّره وممارسته في واقع الحياة ، فاطلب الحياة والنور ، والهداية والفلاح بذلك ، والقاعدة لذلك :

* أن تكون دراسة منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - منهجيّة يوميّاً.

* وأن تكون صحبة عمر وحياة لاتتوقف أبداً ، حتى يلقى المسلم ربّه !

* أن يتدرَّب المسلم على رد الواقع بأحداثه وأفكاره إلى منهاج الله ردّاً أميناً ، ليصاحب ذلك دراسة منهاج الله .

* * *

التَزِمْ النَّهج الإيماني للتفكير

أخي الكريم ! أيها المسلم ! إن الله سبحانه وتعالى خلقنا على فطرة سليمة ، ووهبنا القدرة على التفكير ، فأول مانطلبه ونوصي به هو أن نُفكّر ، أن نفكر التفكير الإيماني ، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتفكير على نهجٍ إيمانيٍّ ونور وهداية بآيات كثيرة .

* * *

الفقه في الإسلام

الفقه في الإسلام يقوم على ركنين : المنهاج الرباني - قرآنا وسنة ولغة عربيّة - ، والواقع . فلا يوجد فقه خاص يسمى " **فقه الواقع** " ، فالفقه كله قائم على الواقع والمنهاج الرباني .

* * *

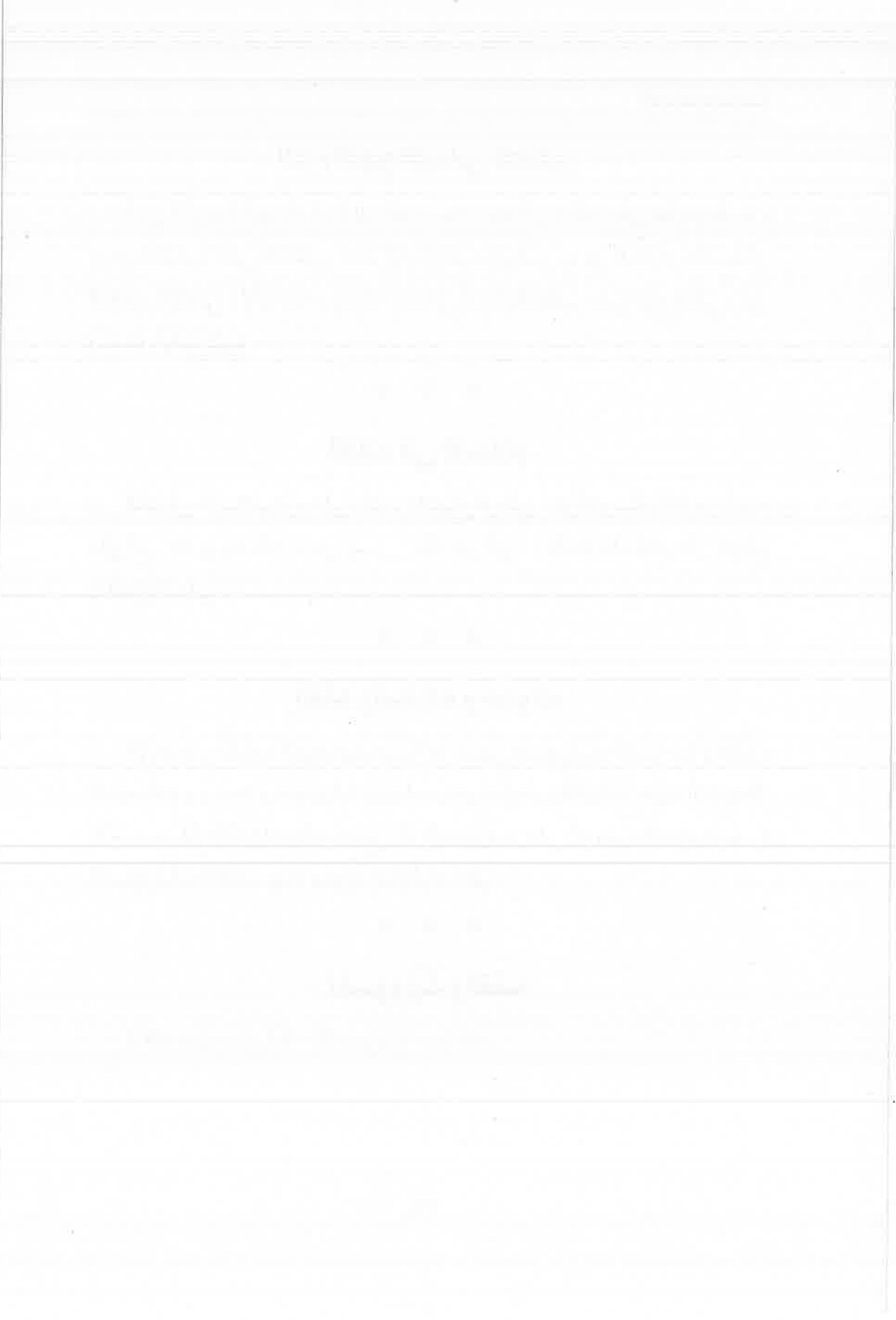
الفقه وامتداده وحدوده

كل مسلم مكلّف أن يجتهد فيما هو ضمن مسؤوليته الشرعية وحدود اختصاصه ووسعه وعلمه ، مما سيحاسَب هو عليه يوم القيامة ، دون أن تتعطل الاستعانة بإمكانات المجتمع ، أو الشورى ، على أن يهيّء المسلم نفسه للمسؤوليات المكلَّف بها ، ويتزوّد لها بالزاد الحق .

* * *

المسؤوليّة والفقه

لافقه دون مسؤوليّة ، ولا مسؤوليّة دون فقه .



المقدِّمة

شهد واقع المسلمين اليوم تناقضات كثيرة ، تناقضات في المواقف والفكر في مختلف الميادين ، ويبدو أن التناقضات تزداد بدلاً من أن تخف ، وتتسع بدلاً من أن تضيق .

لقد كان من أخطر ما شهده الواقع الجرأةُ في تحريف أحاديث الرسول ﷺ لتسويغ أفكار مُخالفَة للإسلام مُخالَفَةَ صريحة لنصوص محكمة في الكتاب والسنة ، ولقد رأينا هذا التحريف في بيانات وفي كتبٍ مؤلفة .

وكذلك شهد واقعنا اليوم تحوّلاً بارزاً في السياسة الأمريكية نحو الإسلام ، إذ أخذت **تشجع الإسلام الذي تسميه معتدلاً ، والذي يتبنّى الأفكار الأمريكية بالنسبة للمرأة والديمقراطية وغير ذلك .**

نشاهد على أجهزة الإعلام ، ونسمع ونقرأ ، لدعاة مسلمين ، يُفترض أنهم يحملون رسالة الإسلام ودين الله كما أُنزل على محمد ﷺ ، ليبلِّغوه للناس كافّةً وليتعهّدوهم عليه ، من أجل بناء الأمةَ المسلمة الواحدة صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض ، أقول نشاهد ونسمع ونقرأ لدعاة مسلمين يحملون الديمقراطية الأمريكية وانتخاباتها وسياستها وأساليبها وأفكارها بدلاً من الإسلام أو يحاولون أن يزاوجوا بين هذا وذاك بأساليب تؤدي إلى انحراف واضح عن الإسلام فكراً وأساليب ووسائل .

إن الظاهرة الواضحة اليوم أن هنالك اتجاهاً إلى تقبّل الفكر الغربي العلماني ومحاولة ربطه بالإسلام ، محاولة تكشف عن شعورنا بالنقص والضعف . كلما جاء فكر جديد من الغرب هرعنا لنلبسه ثوباً فضفاضاً من الإسلام ، أو نصبغه بصبغة من الإسلام أو طلاء منه . ألم نفعل ذلك مع الاشتراكية والحداثة والديمقراطية ، ثمّ العلمانية التي تبنّاها مؤتمر إسلامي كبير في باريس ، وجعلها مساوية للإسلام في مقصودها ؟! إنها فتنة كبيرة حين نجعل العلمانية مساوية

للإسلام في مقصودها . الإسلام مقصوده الأول هو أن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها ، وأن يكون شرعه هو الذي يطبق ، وأن تكون الدار الآخرة هي الهدف الأكبر والأسمى للفرد والجماعة والأمة كلها . أما العلمانية فإنها تقرّ أن لا علاقة " للدّين " بتنظيم الحياة ، وأنه قضية شخصية لا علاقة للدولة بها ، إلا حين تحتاج الدولة إلى استغلال الدين لمصلحة دنيوية !

وخلاصة الفرق بين الإسلام والعلمانيّة هي في النظرة للحياة والكون ، نظرتان مختلفتان كل الاختلاف حتى لا لقاء بينهما ، إلا أن تكذب وتفتري على الله ورسوله ﷺ .

ولقد شهدت مجلة المجتمع حواراً طويلاً بيني وبين أولئك الذين ينادون بتساوي الإسلام والعلمانيّة ، كما نال هذا الموضوع حواراً مباشراً بيني وبين بعضهم شهده عدد من الدعاة ، حتى عرف أولئك أنهم خالفوا الإسلام ، وأنهم أخطؤوا ، ولكن تبيّن بعد ذلك أن القضيّة مرتبطة بمصالح ومواقف !

إننا نهدف من كتابنا هذا أن نبيّن قدر ما نستطيع أن المسلمين لن يجنوا خيراً أبداً بالتنازل عن أي شيء من الإسلام ، أو بتحريف أي نصّ منه ، أو بتأويل فاسد لنصوص أُخرى . وإن باب النصر باب واحد ، وطريقه طريق واحد ، ألا وهو الاستقامة على أمر الله والاستجابة لأمره وإخلاص النية وحمل الدعوة الإسلامية بوضوح وجرأة ، نبلغها كما أُنزلت على محمد ﷺ ، حتى لا نقع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من تحريف للتوراة والإنجيل .

وإني لأعجب كلّ العجب كيف نرى أهل الديمقراطية الباطلة جريئين في دعوتهم إليها ، يريدون أن يفرضوها على البشرية كلها ، وفي الوقت نفسه نرى المسلمين يسرعون بالتنازل عن بعض مبادئ الإسلام ، ولا يجهرون به كما أمرهم الله ، حتى أصبح المسلم اليوم يخشى أو يستحي أن يظهر بعض قواعد الإسلام المحكمة . نعجب كيف ملك أولئك الجرأة ليعلنوا ضلالهم ، ونحن لم نملك الجرأة

نفسها لنعلن الحق الذي هو حاجة البشرية كلها لتنجوَ من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة .

إن هذا التراجع والتردد والتنازل هو أهم سبب في هوان المسلمين اليوم ، وأهم سبب في التمزق والاختلاف ، وأهم سبب في الهزائم التي ابتلينا بها .

إن من واجبنا اليوم أن نجهر بالإسلام ، وبالإسلام وحده ، كما أنزل على محمد ﷺ ، لا نساوم عليه ولا نتنازل عن شيء منه أبداً .

لا شكّ أنَّ أمريكا حقَّقت الكثير من أهدافها في العالم الإسلامي ، ومعها أوروبا وروسيا لا يختلفون على ضرب العالم الإسلامي والإسلام ، على ضوء نهج وخطة يجتمعون عليها ، ومن أهم ما حققته هذه الخطة وذاك النهج نوجزه بما يلي :

أولاً : مزّقوا العالم الإسلامي .

ثانياً : أوهنوا قواه وجرّدوه من كثير من الإمكانات .

ثالثاً : دمّروا ما يستطيعون تدميره تدميراً يحتاج إلى زمن طويل جداً لإعادة إعماره .

رابعاً : أدخلوا الفتنة الفكرية والخلقية في جميع أقطار العالم الإسلامي .

خامساً : نشروا الجهل ، وخاصة بالكتاب والسنة واللغة العربية .

سادساً : اشتروا ذمم عشرات الألوف من المسلمين ليكونوا لهم عيوناً وعوناً .

ولكن المسؤول الأول في ميزان الإسلام عن هواننا هو نحن المسلمين حين استجبنا لدعوات الضلال والفتنة وانغمسنا فيها .

إن هذا كله يتمّ بقضاء الله وقدره على سنن ماضية وحكمة بالغة وقضاء نافذ وقدر غالب ، ابتلاء منه سبحانه وتعالى ، وتمحيصاً لنفوسنا ونيّاتنا . فالله لا يظلم أبداً ، ولا يظلم أحداً .

إننا حين نعرض هذا الواقع بإيجاز ، فإننا في الوقت نفسه نعرض نهج مدرسة لقاء المؤمنين ونظريته العامة ومناهجه ونماذجه ونظامه الإداري لينطلق منه درب النجاة حين يلتقي المؤمنون عليه بإذن الله .

وحين يرى الله أننا غيّرنا ما بأنفسنا إلى ما يحبه ويرضاه ، فسيُغيّرُ الله واقعنا إلى نصر وعزة وتمكين .

الريــاض
١ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ
٢٨ / ٥ / ٢٠٠٦م

عدنان علي رضا محمد النحوي

من كلمات
ريتشارد نيكسون
الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية

لرئيس الولايات المتحدة الأسبق ريتشارد نيكسون جمل تعطي دلالات واضحة عن اتجاه الولايات المتحدة نحو العالم والعالم الإسلامي . كثيرة في كتبه الثلاثة التي نشرها ، ولكننا نأخذ بعض النماذج منها للدلالة فقط ، مع أن سياسة الولايات المتحدة تحتاج إلى دراسة عميقة ، فهو يقول :

* ليس السلام الحقيقي (الواقعي) هو انتهاء المنازعات ، بل هو وسيلة للعيش معها . (كتاب نصر بلا حرب ـ ص ٣٩)

* * * * *

* إن الثوريين الشيوعيين والإسلاميين أعداء إيديولوجيون يتبنون هدفاً مشتركا: الرغبة في الحصول على السلطة بأي وسيلة ضرورية ، بغية فرض سيطرة دكتاتورية تقوم على مُثُلهم التي لا تحتمل . ولن تحقق أي من الثورتين حياة أفضل للشعوب في العالم الثالث . بل سيجعلون الأمور أسوأ . لكن إحداهما أو الأخرى ستسود ما لم يضع الغرب سياسة موحدة لمواجهة الأبعاد الاقتصادية والروحية على حد سواء ، للصراع الدائر الآن في العالم الثالث .

(كتاب : نصر بلا حرب ـ ص ٣٠٧ـ٣٠٨)

* * * * *

* إن رياح التّغيير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة . ونحن لا نستطيع إيقافها ، لكننا نستطيع أن نساعد في تغيير اتجاهها . (كتاب : نصر بلا حرب ـ ص ٣٠٨)

* * * * *

* **الأصوليون الإسلاميون** : الذين يحركهم حقدهم الشديد للغرب ، وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي ، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينادون بأن الإسلام دين ودولة .
(كتاب : الفرصة الأخيرة - ص ١٤٠)

* * * * *

* **الرجعيون** : هم الدكتاتوريون الذين يؤمنون بالحزب الواحد ، ويسبغون الشرعية على تصرفاتهم من خلال الأيديولوجية القومية المتعصبة .
(كتاب : الفرصة الأخيرة - ص ١٤٠)

* * * * *

* **التقدميون** : هذه المجموعة نشاطها محسوس ، ولكن قَلَّ أن تشعر بوجودها ، وهي تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضّر من الناحية السياسية والاقتصادية . (كتاب : الفرصة الأخيرة - ص ١٤٠)

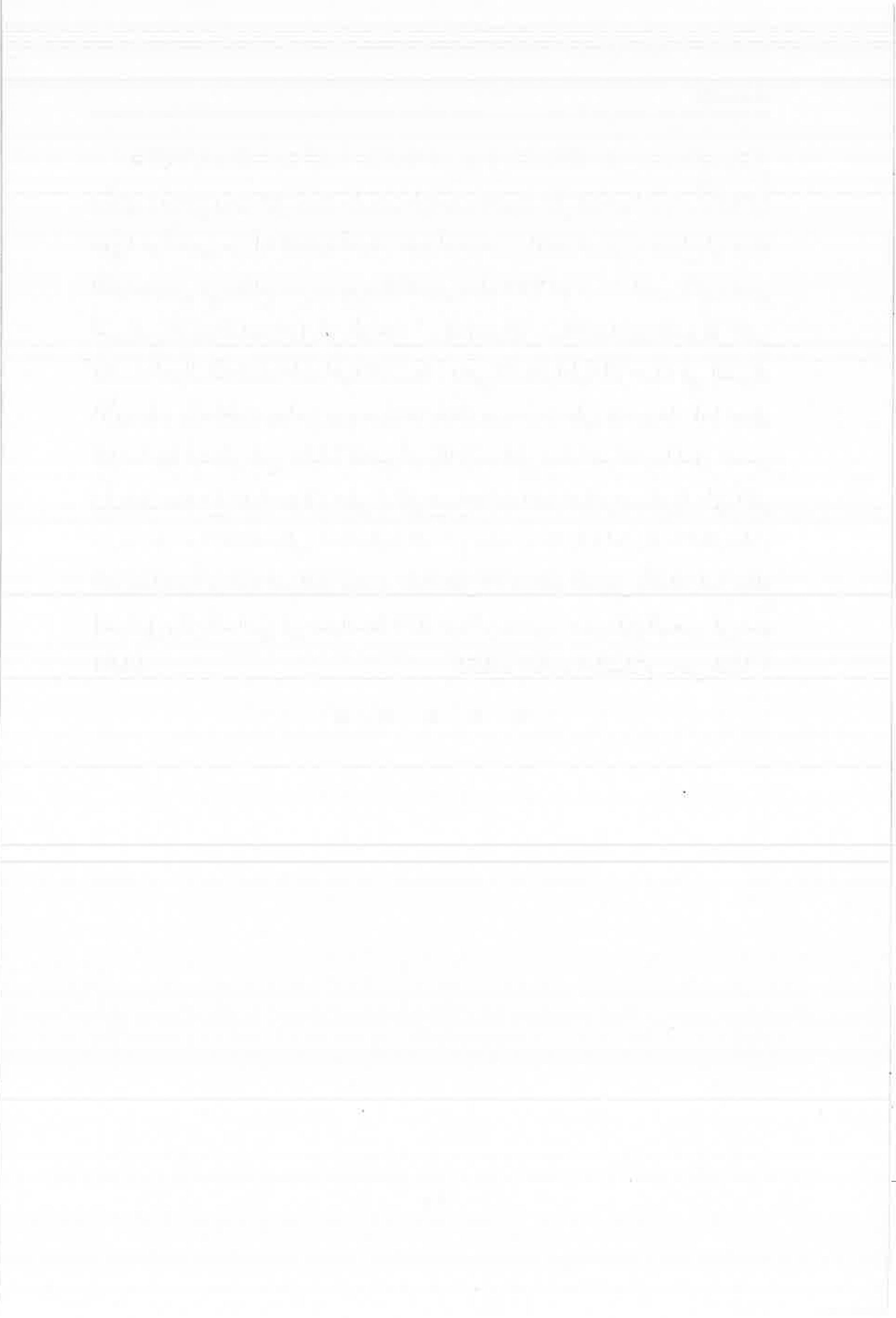
* * * * *

* يجب علينا أن نعاون التقدميين في العالم العربي ، ففي ذلك مصلحتهم ومصلحتنا ، فهم محتاجون لأن يعطوا أنصارهم بديلا لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين ، وانغلاق الرجعيين . (كتاب :الفرصة الأخيرة - ص ١٤١)

* * * * *

* للولايات المتحدة أيضاً مصلحة كبرى في المحافظة على وجود إسرائيل وأمنها ، فنحن وإسرائيل لسنا حليفين طبيعيين عاديين ، بل إن لدينا التزاماً أخلاقياً معها هو أسمى من أية اتفاقية أمنية . فقد أوضحت باقتضاب في اجتماع لزعماء الكونغرس في مطلع حرب يوم التكفير عام ١٩٧٣م : " ليس لأي رئيس أمريكي أن يترك إسرائيل في الوحل " . إن إسرائيل ملاذ ملايين العوائل التي قاست أهوال المحارق الجماعية الشنيعة . وهي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ، وأحاطت بها من يوم مولدها بلدان صممت على تدميرها . أما عمق التزامنا بها فيتجلى في حقيقة تقديم أمريكا لإسرائيل منذ اعترافنا بها قبل خمس وأربعين سنة ٤٠ مليار دولار على شكل مساعدات اقتصادية وعسكرية ، أي أكثر من ضعف ما انفقناه على خطة مارشال . ثم جاءت حقيقة اعتراف الحكومات العربية أخيراً بوجود إسرائيل يجسد دليلا على الاعتراف العربي بأن التزامنا ببقاء إسرائيل ركن أساسي في سياستنا الخارجية لن يتغير حتى يلج البعير في سَمِّ الخياط . (كتاب : ما وراء السلام ـ ص ١٤٨)

* * * * *



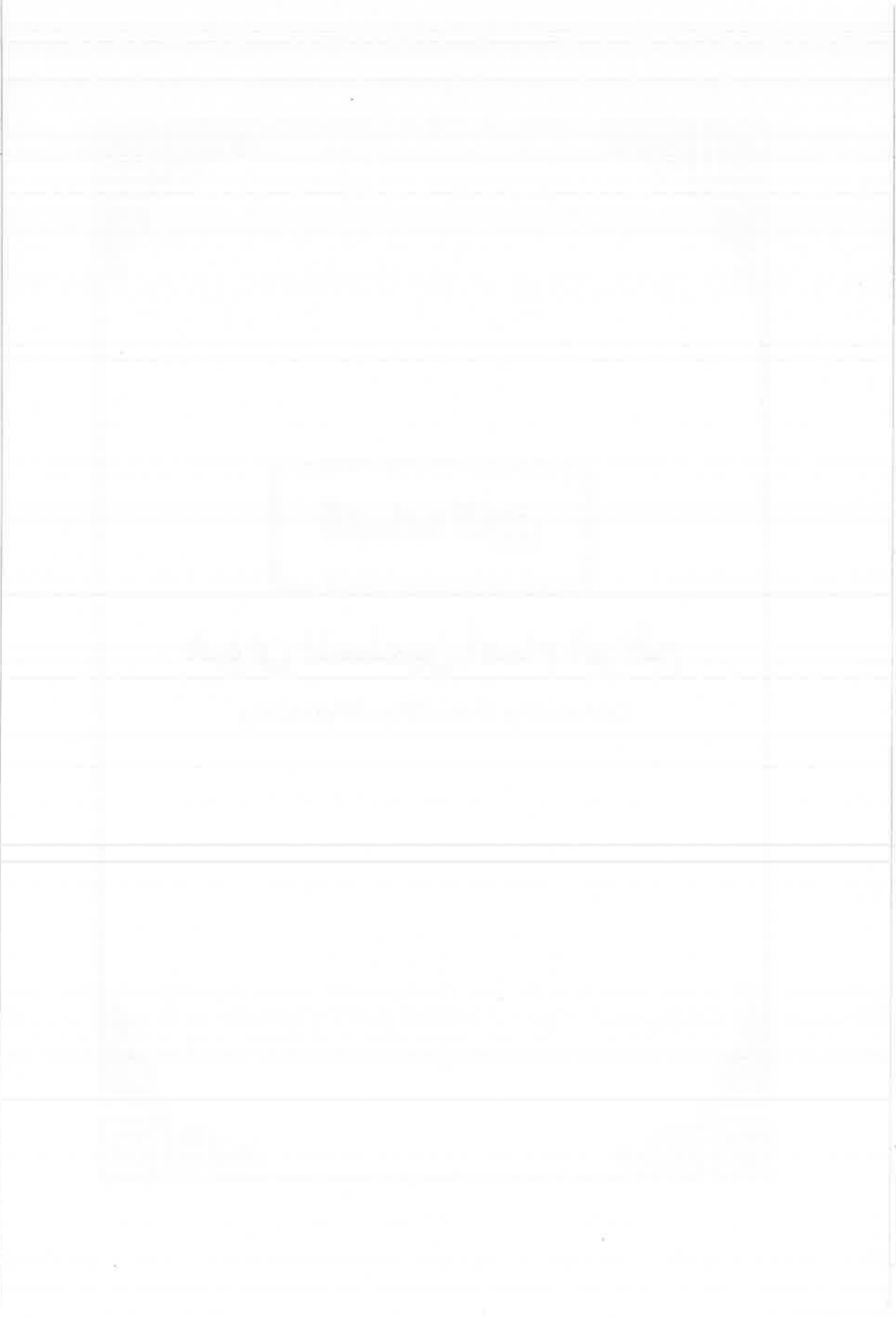





الباب الأول

هوان المسلمين أمام الواقع

وتعدّد المواقف والاتجاهات والاجتهادات



هـوان المسلمين أمام الواقـع
وتعدّد المواقف والاتجاهات والاجتهادات

تمرّ بين يديَّ ، بين حين وآخر ، آراء واجتهادات وفتاوى كثيرة لفقهاء وعلماء ودعاة جزاهم الله خيراً . ومن أهم أسباب هذه الاجتهادات وكثرتها هو أنَّ كثيراً من المسلمين اليوم أعْفَوا أنفسهم من مسؤولية طلب العلم الذي فرضه الله ورسوله على كلِّ مسلم ، ومن مسؤوليَّة التفكير التي كلّفهم الله بها ورسوله كذلك ، فلم يعرفوا حقيقة مسؤولياتهم ولا حدودها ، وألقوا الأمر كله على عاتق العلماء أو الدعاة يحيلون عليهم كلَّ ما يصادفونه من مشكلات ولو كانت بسيطة ، ولو كانت إجابتها متوافرة في صفحة أو صفحات من كتب الحديث ، أو في آية أو آيات في كتاب الله تعالى . ومنهم من أقنع نفسه أو أُقْنِع أن تلاوته لكتاب الله هي للأجر والثواب فقط ، وليست للتدبّر والفهم والممارسة في واقع الحياة ، ليست للتأمّل والتفكير في خشوع وإنابة . وعجبتُ عندما سمعتُ أحدهم يقول في أحد المؤتمرات إن دراسة القرآن الكريم ليست له ، هي فقط للعلماء !

هذا عامل نعتقد أنه ساهم في زيادة حجم الفتاوى وتناقضها . وهناك عامل آخر ، هو أننا أمام مشكلات جديدة في واقع جديد ، وقضايا كثيرة سريعة التبدّل والتغيّر .

وعامل آخر هو امتداد الجهل في قطاع واسع من المسلمين في الأرض ، جهلٌ وتخلّفٌ في عالم متسارع التطور ! والقضايا كثيرة : منها ما يمسُّ الفرد نفسه وفي حدود مسؤولياته ، ومنها ما يمسُّ الأسرة والبيت والمجتمع ، أو يمسُّ الأمة كلها أو الواقع الدولي في ميادينه المختلفة : الاقتصادية ، والاجتماعية، والسياسيّة ، والإداريَّة ، والصناعيّة ، والعلمية ، والعسكرية .

وزاد الأمور تعقيداً ذلك الغزو المدمر للعالم الإسلامي ، الغزو الذي يقوده الغرب المتقدِّم علميّاً ماديّاً ، المتخلّف إيماناً وفكراً وفهماً لحقيقة الكون والحياة ،

الغزو الذي مزّق العالم الإسلامي أقطاراً وأهواءً ومصالح ، وأفكاراً ومبادئ ، وأحزاباً شتَّى لم تعد تقع تحت حصر ، وألقى فيه الفواجع والمجازر وعمليات الإبادة !

القضايا كثيرة ! ولقد تناولنا أهم هذه القضايا في دراسات مفصّلة في نهج " مدرسة لقاء المؤمنين " وكتبها التي زادت على ثمانية وتسعين كتاباً ، وفي المقالات ، وفي الموقع على الشبكة الإلكترونية "www.alnahwi.com" . وما زال هناك قضايا أخرى ، وستبقى هناك قضايا متجددة مع الأيَّام . وأهمُّ القضايا التي تمَّت دراستها بردِّها إلى منهاج الله ، ودعم كلِّ رأي نقدّمه بآية أو حديث ، ما يلي : الشورى ، الديمقراطية ، العلمانية ، قضايا العالم الإسلامي مثل قضية فلسطين ، والبوسنة والهرسك ، والشيشان ، وغير ذلك ، الحوار الذي امتدَّ شأنه وكثر الحديث حوله ، الصحوة الإسلامية ، التعامل مع مجتمع غير مسلم ، المرأة بين نهجين ، حريّة الرأي في الميدان ، تمزّق العالم الإسلامي ، الربا وخطره في حياة الإنسان ، المسؤولية الفردية ، النهج الإيماني للتفكير ، الاختلاف ، الموازنة، عهد الله والعهد مع الله ، قضايا الأدب الملتزم بالإسلام ، والنصح الأدبي (النقد)، والردّ على أهم المذاهب الأدبية الغربية : الحداثة ، البنيوية ، التفكيكية ، الأسلوب والأسلوبية ، أدب الأطفال ، التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف ، قانون الفطرة وتولّد النص الأدبي ، نظريّة المعرفة في الإسلام ، وغير ذلك من قضايا الواقع لتكوّن كلها مع الدراسات الفكرية والدعوية نهجاً متماسكاً يحمل : **النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، والمناهج التطبيقية ، والنماذج ، والنظام الإداري ، والأهداف المحددة على صراط مستقيم يمتدُّ إلى الهدف الأكبر والأسمى** ـ الدار الآخرة والجنَّة ورضوان الله ـ ، وغير ذلك من الموضوعات الرئيسة ، حتى بلغ مجموع الدراسات حتى الآن ما يزيد عن ثمانية وتسعين كتاباً بخلاف المقالات .

إننا ندعو إلى هذا النهج وأسسه ونظريته ومناهجه ونماذجه وأهدافه ، لنجد فيه

الوسيلة والدرب والأسلوب لمعالجة قضايا واقعنا المعاصر، معالجة تقوم على قواعد الإيمان والتوحيد، والكتاب والسنَّة، ومدرسة النبوَّة الخاتمة، مدرسة محمد ﷺ.

إننا نحاول أن نعالج المشكلة الكبيرة في حياة المسلمين اليوم، على كثرة المؤتمرات والندوات والمؤلفات، وكثرة الضجيج والشعارات، وبذل الدماء والأموال! فما هي هذه المشكلة ؟!!

المشكلة هي أنَّ المسلمين فشلوا في أن يقدّموا الإسلامَ للعالم وهو يحمل النظام الاقتصادي الإيماني الرباني، والنظام السياسي الإيماني، والإداري، والاجتماعي، بما يلبِّي حاجة واقع الإنسان اليوم، بعد أن شغلوا أنفسهم وأُشْغِلوا بأمور كثيرة.

وقف المسلمون أمام واقع هذا العصر والأحداث تتسارع، فما استطاعوا أن يتفاعلوا إيمانيّاً مع متطلبات الواقع، ولا أن يخاطبوا العالم بهذا الدين العظيم الذي منَّ الله به على البشريَّة كلها، ليُلبِّي حاجة العصور كلها والأماكن كلها والواقع الممتدّ كله.

وفي الوقت نفسه كان الغرب قد بلغ درجة عالية من التطور الصناعي والعسكري، فوضعوا لأنفسهم نظاماً علمانيّاً مفْصُولاً عن الدين أسموه الديمقراطية، أخذوه من منبته السيّء، من الوثنية اليونانية، وصاغوه في زخرف شعارات محبَّبة للنفوس، شعارات الحريّة المتفلّتة، والعدل المضطرب، والمساواة الكاذبة، فظنَّ الناس به خيراً. ولكن مع التطبيق في الواقع لم تكن الحريّة إلا حريّة الجنس والفساد، وحريّة الرأي الذي لا علاقة له بصياغة القرار، والعدالة والمساواة كانت طبقيّة لا تساوي العامل الفقير والرأسمالي الكبير. وأُلْقيَ للشعب بعضُ الحقوق التي خَدَّرته وأسكتته، ومضى المجرمون يجمعون من عرق الشعب ثروات يملؤون بها جيوبهم وبنوكهم! وأصبحت ديارهم من أكثر بقاع الأرض انتشاراً لجرائم القتل والسرقة والاغتصاب والفساد!

ومع امتداد أطماع المجرمين في الأرض ، وامتداد عدوانهم وظلمهم للشعوب الإسلامية التي يحتلونها ، وجمع خيرات بلاد تلك الشعوب ونهبها ، ليتمتَّع بها هؤلاء المجرمون ، وتبقى الشعوب فقيرة مستعبدة تحت ضغط القتل والتدمير ، وعمليات الإبادة ، في صورة كانت تشتدُّ أسىً وإجراماً ، وظلماً في الأرض وفساداً مع امتداد العصور ، حتى أخذت أقبح صورها في واقعنا اليوم .

من خلال واقع المسلمين كما عرضناه ، وواقع المجرمين من رأسماليين وغيرهم ، أخذ هؤلاء يسعون لطرح اشتراكيتهم ، وشيوعيتهم ، وديمقراطيتهم ، وعلمانيتهم ، وحداثتهم ، وما يتبع ذلك من مذاهب وأحزاب وفرق ، وما زعموا فيها من حريّة كاذبة وعدالة لا تتجاوز الشعار ، ومساواة لا تتجاوز الوهم والتخدير ، ووجد المسلمون أنفسهم مفلسين ، لا هم دعاة يدعون إلى الله ورسوله ، دعوة شاملة من أمة مسلمة واحدة ، ولا هم قدَّموا نظريات لكافة الميادين تلبّي حاجتها ، فأقبل الكثيرون من المسلمين على انحراف الغرب وفساده يَعُبُّونه عَبّاً !

فترى شعار الديمقراطية يحمله الدعاة المسلمون يدعون إليه بدأْب ونشاط في المؤتمرات الإسلامية بدلاً من أن يدعوا إلى الإسلام ، وفي الميادين السياسية وقضاياها الاقتصادية والحياة الاجتماعية ، والاحتفالات والمهرجانات ، حتى يخيَّل إليك أنَّ الدعوة الإسلامية قد توقَّفتْ !

وأخذت أمريكا وحلفاؤها يجعلون من الدعوة لهذا الشعار ستاراً ليستر أعمال العدوان والظلم والإفساد في الأرض . وجعلوا هذا الشعار مرتبطاً بما يدَّعونه من حريّة كاذبة ، ومساواة مزعومة ، وعدالة غائبة تحت عجلات الدبابات أو بين دويّ الصواريخ وأمواج الإبادة الجماعية ، في تاريخ طويل امتدَّ على مساحة معظم الكرة الأرضية .

ومع ذلك كله ، استطاعت الديمقراطية الكاذبة أن تفتن قلوب الكثيرين بزخرفها من حريّة الجنس المتفلّتة ، وسائر مغرياتها الهائجة المائجة ، والصناعة

المتقدمة ، والسلاح المدمّر ، والتطور العلمي المادي الواسع . استطاعت الديمقراطية أن تكتسح الميادين لأنها لم تجد أمامها من يقدِّم حلولاً بديلة لواقع سريع التطور ! استطاعت أن تُخدِّر الناس وتربطهم بالفكر المادي وتعزلهم عن الدار الآخرة وجوهر الإيمان !

هنا يثور السؤال المهم ! لماذا هذا التخلّف والوهن في المسلمين وبين أيديهم الكتاب والسنَّة ، منهاج الله يحمل أعظم رسالة عرفتها البشريّة ، وأعظم تشريع ، وأعظم بيان بأعظم لغة ، وأعظم رسالة تحملها خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، ما استمسكت بكتاب الله !

كلُّ أسباب الرقي والتقدّم متوافرة لهذه الأمة التي أخرجها الله للناس :تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ! والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدعوة إلى الله ورسوله ، وتبليغ هذا الدين الحق ، وتعهّد الناس عليه ، في عمل منظّم ، منهجي ، مستوفٍ أسباب النجاح ورضا الله سبحانه وتعالى .

إن الاستنتاج الأول المباشر هو أنَّ هذه الأمة لم تلتزم بالمهمة العظيمة التي كلَّفها الله بها ، والتي بيَّنتها الآية التالية :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾
[آل عمران: ١١٠]

ولو استعرضنا التاريخ الإسلامي نجد سنة الله ماضية حقّاً وعدلاً ، فكلما استمسك المسلمون بالمهمة التي كلَّفهم الله بها ، وصدقوا أداءها ، وبلّغوا رسالة ربِّهم ، وتعهّدوا الناس عليها ، نصرهم الله وأعزَّهم . وكلَّما تخلَّوا عن هذه المهمة أذلَّهم الله ، وأضاع سلطانهم وأنزل بهم العقاب . انظر ماذا حدث في بغداد في آخر الدولة العباسية ، وانظروا ماذا حلّ بالأندلس ، وتابعوا النظر والتدبّر ، لتروا سنة الله عادلة حقّاً ماضية لا تتخلَّف .

إنَّ من أهمِّ أسباب التخلف عن أداء هذه المهمة والرسالة هو : أولاً امتداد الجهل بالكتاب والسنَّة واللغة العربيَّة ، ثمَّ الإدبار عنها . وثانياً : هو تعطل قدرة التفكير الإيماني المبدع الذي لا يقوم إلا حين يمتلئ القلب بالكتاب والسنَّة واللغة العربية ، وحين يتدرّب المسلم عليه وعلى ردِّ الأمور إلى منهاج الله ، وإذا تعطل التفكير الإيماني انتشرت الأهْواء ، وفسد التفكير ، وتضاربت الآراء والاجتهادات ، وتنازع الناس أحزاباً وشيعاً ، وذهبت القوة من الأمة، ووهنت !

إنَّ من أهمِّ القضايا الإيمانيَّة التي ألحَّ بها الكتاب والسنَّة **التفكير الإيماني** ، التدبر ، التأمل ، النظر ، والآيات الكريمة التي تأمر بذلك كثيرة :
(أفلا يتدبّرون ، لعلّهم يتفكّرون ، يفقهون ، .....)

ونعود نؤكد أنه لن يستقيم التفكير على النهج الإيماني إلا إذا توافرت أسس الإيمان والتدبّر والفهم ، ونوجزها بما يلي :

* صفاء الإيمان والتوحيد حتى تُطرَد الأهواء والعصبياتُ الجاهلية .
* العلم الصادق بمنهاج الله ـ قرآناً وسنةً ولغة عربيّة ـ ، في صحبة منهجيَّة ، صحبة عمر وحياة ، صحبة تدبّر وحفظ ، وممارسته ممارسة إيمانيَّة في الواقع .
* الوفاء بالدعوة والبلاغ وتعهّد الناس على الإسلام ، حتى يكون ذلك ثمرة صفاء الإيمان وصدق العلم والممارسة ، وحتى تنمو الخبرة وينمو الزاد الصالح ، على وعي الواقع من خلال منهاج الله ، لا من خلال سواه، ولا من خلال الوهن الذي نعيشه .
* متابعة محاسبة النفس بصورة دائمة كما أمر الله سبحانه وتعالى ، حتى تصفو النفس من الأهواء والمصالح الدنيوية .
* أن يستقيم ميزان المؤمن بيد المسلم ، فلا يزن الناس والأمور إلا به، حتى يميز أهل الأهواء من أهل الصَّفاء ، وأهل الدنيا من أهل الآخرة .

إذن مشكلتنا اليوم هي مشكلة تاريخية ، مشكلة أمّة رضيتْ بأن تتمزّق ،

ورضيت بأن يعمَّ الجهل بالكتاب والسنَّة واللغة العربية قطاعاً واسعاً منها ، رضيتْ بأن يمتدَّ هذا الجهل قروناً .

ولَمَّا أحسَّ بعضهم بالخطر وهبَّ لينقذ ، دخلتْه أمواج من الغزو الغربيِّ لديار المسلمين، فاختلطت المفاهيم بين العروبة والإسلام ، وبين القومية والإقليمية، والوطنية والإنسانية، والحريّة والمرأة وحقوقها ، والآخر المجهول وحقوقه ، وأدلى الكثيرون برأيهم. فمنهم من أوَّل بعض الآيات تأويلاً يوافق هواه، ومنهم من حذف من الحديث الشريف ما يشاء وأبقى ما يشاء، ومنهم من آثر الأفكار الغربية بقضِّها وقضيضها، ليعالج مشكلات المسلمين، فأفسدوا كثيراً، ووقع الانحراف الواضح البيّن ، واشتدَّ أمره حتى كاد يتعذَّر الرَّدُّ عليه أو علاجه، خاصة حين يتولَّى الإعلام وقوى أخرى تغذية هذا الاتجاه أو ذاك سرّاً أو جهراً .

لقد وصل الحال بالمسلمين أن لا يذكر أحدهم الجهاد الذي فرضه الله ، حتى لا يُتَّهمَ بالإرهاب ، ووصل الحال إلى أن تختفي معان إيمانيَّة ومصطلحات إسلاميَّة ، فلا يجوز تكفير أحد ولو سبَّ الله ورسوله ، وأنكر الشعائر كلها ، وحارب الإسلام علانية والمسلمين ! وحتى لو قال هو عن نفسه إنه كافر .

وتلقَّفنا مصطلح " الآخر " المجهول الهوية ، و" الاعتراف بالآخر " وبحقوقه ، ولا أحد ينادي بحقوق المسلم المؤمن المحافظ على دينه ، فهذا قد تضيع حقوقه بين المسلمين ، فيلجأ إلى الغرب عسى أن يجد فسحة للتنفّس ، وقد يتنفَّس ويأخذ الفتنة المتعددة ويقع ضحيّتها ، وقد ينحرف فكره ولا يشعر بذلك ، أو يحسب أنه مع انحرافه على حق ! كيف لا ؟! فالميزان اختلَّ واضطرب بين يديه ! ونسيَ الناسُ الموتَ والدار الآخرة ، ولم يعد لها حساب عند هذا أو ذاك !

أمام هذا الواقع المضطرب الذي نجابه فيه كلَّ يوم هزيمة جديدة ، يزيّنها بعضهم بزينة وزخرف ثم يسمّيها نصراً . فكم أعجب من قوم فقدوا أرضهم وتملكها الأعداء ، وأُشغلوا بالانتخابات الديمقراطية وتنافسوا فيها ، فعمَّت الفرحة المنتصر فيها وأقام المهرجانات والاحتفالات ، كأنهم نسوا أنهم فقدوا ٨٠٪ من أرضهم

المقدسة ، وأُلْهُوا بالصراعات والتنافس الديمقراطي ، فأقاموا " عرس الديمقراطية " مع ليالي الأفراح ، على حطام فلسطين وحطام الفلسطينيين وحطام بعض ديار المسلمين ، دون أن يشعروا بمدى الخسارة وعظيم الخطر الذي أخذ بالازدياد على المسلمين .

لقد تسرَّب إلى عقول بعض المسلمين ، أو عقول كثيرين منهم ، أفكار الديمقراطية الغربيَّة الوثنيَّة ، وشعاراتها الكاذبة ، واختلطت بما لديهم من بعض المفاهيم الإسلامية ، فلم يستطيعوا فصل المفاهيم الإسلامية عن خبث الديمقراطية، ولم يستطيعوا أن يقدِّموا من إسلامهم الصافي ، من الكتاب والسنَّة ، بديلاً عن الديمقراطية ، فأخذت تصدر بعض الفتاوى والاجتهادات من هذا الخليط غير النقي، محاولة تقريب مفاهيم الديمقراطية وزخرفها إلى الإسلام ، في جهود فاشلة لم تنقذ المسلمين مما يعانون منه من وهن وإذلال واحتلال ، وإنما زادت تورط المسلمين في شباك الديمقراطية وشَرَكها ، والإيغال في وحولها ، فازدادت المآسي بدلاً من أن تقلَّ !

لذلك أصبح تصور الانتخابات التي تجري ليس نابعاً من صفاء التصور الإيماني ، بل من زخرف الديمقراطية الغربيّة . وكذلك أصبح تصور المجالس النيابية والتشريعية وأمثالها نابعاً من الديمقراطية الوثنية العلمانية التي عزلت الدين عن الحياة ، وكذلك تصور أسلوب التعاون أو الموقف هنا وهناك ، أصبح هذا كله تصوغه الديمقراطية بسلطانها القاهر . وذهب الكثيرون إلى أن يسوِّغوا ذلك بقواعد يتلمسونها في الإسلام ، فيحرِّفون حديثاً أو آية أو يؤولون تأويلاً فاسداً ، أو يتلمسون بعض اجتهادات القدماء التي وضعوها لواقعهم ذلك ، يحاولون بها تسويغ اجتهاداتهم الجديدة ومواقفهم ، يجيزون أو يمنعون ، يحلّلون أو يحرمون ، دون دليل حاسم من الكتاب والسنَّة ، ودون ردّ الواقع إلى منهاج الله ردّاً وافياً أميناً كما يأمر الله .

ولقد نتج عن تلك الاجتهادات وممارستها في الواقع أن زاد ضعف الجهود في محاولة بناء التصور الإيماني الصافي ، وأخذت النفوس تعتاد ما تمارسه من خطأ

وخلل ، ثمَّ رغبت فيه ، ثمَّ أخذت تدعو إليه ، فزادت الغربة عن الإسلام ، وتكوّن في الأمة فريق ينادي بما ينادي به الغرب : من علمانية وديمقراطية وحداثة ، وما يتبع ذلك من قضايا تتعلّق بالمرأة والحكم والمجتمع والسياسة ، ثمَّ أخذ هذا الفريق ينمو يدعمه إعلام قوي داخليٌّ وخارجيٌّ ، حتى عزل الإسلام كلية في بعض ديار المسلمين إلا من بعض المظاهر والشعارات ، دون الجَوهر الضروري ، وقد تختفي الشعاراتُ أيضاً في بعض الدِّيار .

لقد بدأ الخطأ من اللحظة الأولى حين سُمِحَ لهذا الفكر أو ذاك أن يتسلل مع الاستهانة به أولاً ، ثمَّ تمضي سنَّة الله الثابتة لينموَ هذا التسلّل ، ثمّ يُمارسُ فكره ، ثمَّ يعتاده الكثيرون ، ثمَّ يرغبون به ، ثمَّ يدعون إليه ، ثمَّ يمتدُّ لينتشر ويحكم ويوجّه الحياة .

الخطأ كان من اللحظة الأولى حين اشتدَّ الغزو للعالم الإسلامي بكل الوسائل التي يمتلكها المجرمون ، وأهمها توافر النهج المدروس والخطة المتفق عليها ، وفي الوقت نفسه غفلة وتقصير من المسلمين ، وأهم مظاهر ذلك عدم وجود خطة واعية ونهج مدروس .

لقد تمَّ هذا كلّه ، واشتدَّ الغزو على العالم الإسلامي ، وتكوّن فريق من المسلمين ينادي جهاراً بمبادئ الغرب ! هذا واقع عرضنا أطرافاً منه في صفحات سابقة وتفصيلات موسعة في دراساتنا السابقة .

أمام هذا الواقع ، تقف مشكلات كثيرة لا نستطيع أن نعالجها كلها هنا ، بعد أن عالجنا معظمها في دراسات سابقة ، ولكن المشكلة التي نعالجها هنا هي : **ما هو الموقف الشرعيّ العملي من الديمقراطية والمجالس النيابية والتشريعية وما يماثلها من قضايا الواقع اليوم ، حين نردُّ ذلك إلى منهاج الله ؟! وكيف ساهم ذلك في هوان المسلمين ؟!**

لقد برز في واقع المسلمين اليوم مواقف مختلفة متناقضة متضاربة : فهي ما بين الدعوة إلى الجهاد العسكري ، وبين من اقتنع بهذه الأفكار ومجالسها ونظمها ، وبين فريق واسع حائر يتبع هذا حيناً ويتبع ذاك حيناً آخر ، وفريق يرى التريّث إذ لا

حيلة بين يديهم إلا الصبر والتريُّث ، فيتركون الأمر كلَّه دون أن يفكِّروا أو يعملوا ، وربما كان هناك نماذج أخرى يفرزها الواقع مع الأحداث !

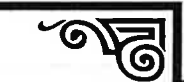
باستعراض الواقع نجد أن جميع الاتجاهات التي عُرِضَت أعلاه لا تملك نهجاً واعياً وخطة شاملة مدروسة ، ويعرضون رأيهم حَول هذه القضيّة أو تلك مستندين إلى رؤى مختلفة ، ولكنها لا تعرض خطة شاملة ، ولا نظرية عامة ، ولا مراحل متدرجة . وتبقى الآراء تتناول كلّ قضية وحدها معزولة عن سائر القضايا التي تموج في واقع الأمة : قضايا متناثرة وآراء متناثرة !

ولذلك نودُّ أن نقدِّم رأينا حول هذه القضايا الخاصة ، قضية المجالس النيابية وما يتبعها ، والمشاركة فيها أو عدم المشاركة ، منطلقين من نظرية عامة شاملة نابعة من الكتاب والسنَّة ومدرسة النبوة الخاتمة ، وما تفرضان من أسس الإيمان والتوحيد . وهذه النظريَّة العامة معروضة في أكثر من كتاب من كتبنا نكررها ونعيدها حتى تتسع دائرة دراستها في جوٍّ فيه إعلام ضيق لمثل هذه الدراسات .

ونعرض الآن بعض القضايا التي لها مساس بالاجتهاد وتكوين الرأي. فنعرض أولاً أن هنالك حالتين في محاولة الاجتهاد ، لنرفض حالة ، ونقرّ حالة . ثمَّ نبيّن مصدر التشريع في الإسلام ، وأنه مصدر ربَّاني واحد ، إليه نردُّ كل القضايا والأمور والوسائل والأساليب ، ثمَّ نعرض الأخطاء التي ترتكب في واقعنا بهذا الأمر ، ليظلَّ هنالك فرق كبير بين المصدر الرباني الذي يمثّل الحق المطلق وبين قول البشر . ولا بدَّ أن نبيّن منزلة اجتهادات الأئمة السابقين ، وحكمَ تشريع مَنْ قبلنا ، ومن الاستفادة من قصص القرآن في التشريع ، وغير ذلك من القضايا والمصطلحات التي لها مساس بذلك ، على ضوء ما سنراه في الصفحات المقبلة .

سنكون واضحين صريحين في بيان الرأي ، مع حبّنا الصادق للمسلمين جميعاً ، وقد يؤذي رأينا هذا أو ذاك هذا الفريق أو سواه ، وذاك الرجل أو سواه ، ولكن باعثنا الحبُّ الصادق لا العداء ، والنصيحة الأمينة لا المراءاة !

وسيكون رأينا يحمل حجّته من الكتاب والسنَّة ومن الواقع الذي نردّه إلى الكتاب والسنَّة !



الباب الثاني

قضايا في الاجتهاد والفتوى

١- حالتان في الاجتهاد والفتوى .

٢ – مصادر التشريع في الإسلام .

٣ – اجتهادات الأئمة السابقين وتوصيتهم للأجيال بعدهم .

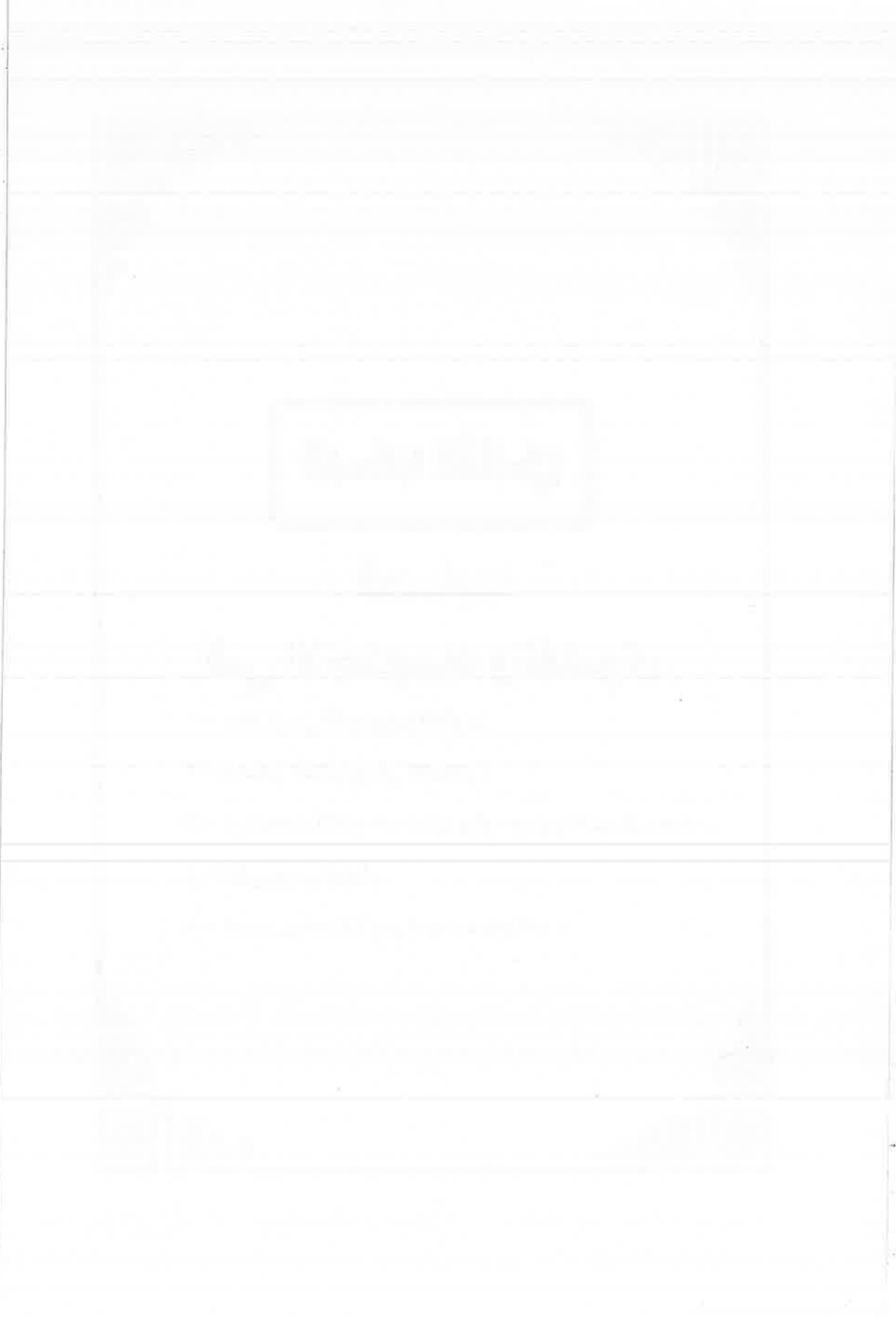
٤ – تشريع من قبلنا .

٥ – قصص وأحداث يعرضها منهاج الله .







(١)

حالتان في الاجتهاد والفتـوى

لا بدّ من توضيح قضيّة رئيسة في الاجتهاد والفتوى ، برزت في مواقف كثيرة . فهنالك حالة يكون لدى المجتهد رأي مُسبق وهوى يلحّ عليه ، ويريد أن يدعمه بفتوى شرعيّة أو اجتهاد يحمل شكلاً مما يعتبره حجّة له أو بيّنة . فيمكن أن يحرِّف آيةً أو حديثاً تحريفاً يقلب المعنى الأصلي ويأتي بمعنى معاكس تماماً . أقرب الأمثلة على ذلك تحريف حديث رسول الله ﷺ الذي ينصُّ على : " أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله فإن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واتجهوا إلى قبلتنا .....فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين " ، رواه ابن حبان ومعظم كتب السنة والصحاح .(١)

فأُخذَ من هذا الحديث الواضح الجملة الأخيرة وحدها ليُستَدلَّ على أنَّ الإسلام أعطى لغير المسلمين ما للمسلمين وفرض عليهم ما فرض على المسلمين. فضلَّ صاحب هذا الرأي ، وأضل وارتكب إثماً عظيماً بتحريف الحديث الشريف. وفي الوقت نفسه حرَّف الآية من سورة التوبة :

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١]

وهناك أمثلة أخرى يُؤْخذُ فيها جزءٌ من آية فقط ثمَّ يُصْدر المجتهد رأيه بناء على هذا الجزء ولو أخذ الآية كلها ، ودرس جوّ السورة كلها ، وقواعد الإسلام المتماسكة ، لاختلف الاجتهاد .

أما الحالة الثانية فهي أن يكون هنالك مشكلة أو قضيّة ليس لدى المجتهد هوى سابق ، وإنما يبحث عن حل لهذه المشكلة . فيستعرض النصوص المتعلقة بها ، ثمَّ يخرج برأي واضح يحمل البيّنة من الكتاب والسنّة دون تأويل فاسد ولا تحريف ، ولكن على قدر ما يهديه الله بصدق نيّته وسلامة علمه .

(١) صحيح ابن حبان : ج ١٣ ص : (٢١٥) ، رقم : (٥٨٩٥) .

الحالة الأولى قد تضطر صاحبها إذا لم يجد في الكتاب والسنة ما يوافق هواه ، فإنه يلجأ إلى آراء بعض الأئمة السابقين الذين اجتهدوا لواقعهم ، فيأخذ من هذا أو ذاك ما يناسب رأيه أو هواه .وقد يلجأ إلى مواقف سابقة لبعض الأنبياء والرسل ، مثل يوسف عليه السلام ، فيعتبر عمله تشريعاً لنا اليوم ، ولو أنَّ الكتاب والسنة لم يرد فيهما ما يعتبر ذلك تشريعاً لنا ، كما سنذكر بعد قليل .

إن الواقع المتبدّل يضغط أحياناً على الناس ضغطاً شديداً ، سواء بالإعلام المدويّ أو التسلل الخفيّ ، أو القوّة ، أو غير ذلك ، مما قد يكوّن في نفوس بعضهم هوىً لاستحسان ما يرفضه الإسلام ، فيبحثون عن مسوِّغات لذلك ، فلا يجدونه في الكتاب ولا في السنَّة ، فيلجؤون كما ذكرنا إلى تأويل فاسد أو تحريف باطل ، أو آراء بشريّة من هنا أو هناك ليس لها حكم الكتاب والسنّة .

نؤكّد الحقيقة الهامة وهي أنَّ منهاج الله وحده هو الحقُّ المطلق الذي يسع الأمكنة كلَّها والأزمنة كلَّها والأحداث والوقائع كلَّها ، وهذا أحد أسباب إعجازه ، ومظاهره . فإذا لم يستطع أحدهم أن يجد في منهاج الله حكماً لحالة يريدها ، فليعلمْ أنَّ العجز فيه هو وليس في منهاج الله .

وقد نضطرُّ أثناء هذا البحث أن نعيد هذه القاعدة ونؤكدها أكثر من مرَّة لأهميّتها من ناحية ، ولكثرة مخالفتها في واقعنا اليوم .

ولذلك ننصح من يريد أن يجتهد في قضية ما ، أن لا يضع في نفسه حكماً مسبقاً ، ولكن يدرس القضية ويجمع كلّ أطرافها ، ثم يعرضها على الكتاب والسنة ، ثم يحاول أن يستنبط منهما الحكم الأنسب لتلك الحالة ، واضعاً في نفسه أنه راضٍ بما يجده من حكم ولو خالف هواه .

(٢)

مصادر التشريع في الإسلام : (١)

لا يوجد في الإسلام إلا مصدران للتشريع ، هما الكتاب والسنَّة اللذان وحدهما يسعان الأزمان كلها ، والأماكن كلها والأحداث كلها . أما القياس والمصالح المرسلة والإجماع والاستحسان وغير ذلك ، فإنها وسائل وأساليب تُسْتَخدم لاستخلاص الحكم من الكتاب والسنَّة من خلال ما نسمّيه الاجتهاد . فالكتاب والسنَّة مصدران ربَّانيّان ، وباقي الوسائل والأساليب جهود بشريّة ، ولا يجوز أن ترقى الجهود البشريّة إلى مستوى الكتاب والسنَّة . فقد يخطئ البشر بالقياس ، والاستحسان ، والإجماع إذا وُجدَ ، ولكن منهاج الله لا يخطئ . وهو المصدر الذي أمرنا الله باتباعه دون أيّ مصدرَ آخر ، وهو وحده الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [الأعراف: ٢]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [الأعراف: ٣]

وآيات أخرى كثيرة وأحاديث كثيرةٌ تلحُّ بهذه القاعدة الربَّانيَّة العظيمة . وتدلُّ الآيات والأحاديث الكثيرة على وجوب ردّ جميع قضايا الواقع وغيره إلى منهاج الله . ولكن هذا الردّ إلى منهاج الله يقوم على أسس يجب توافرها :

---

(١) يراجع كتاب : " الفقه امتداده وشموله بين منهاج الله والواقع : الباب الثاني ، الفصول الثلاثة " للمؤلف . ويراجع كتاب : " دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية " . للمؤلف .

* صفاء الإيمان والتوحيد وإخلاص النيَّة لله ، وترك الهوى الذي يذهب بصفاء الإيمان .
* العلم الصادق بمنهاج الله ، العلم المرتبط بصفاء الإيمان وإخلاص النيّة .
* وعي الواقع أو القضيَّة التي يريد أن يردَّها إلى منهاج الله .
* الاستئناس بأقوال العلماء السابقين ، واستشارة الحاضرين ، والتعاون على التقوى .
* معرفة المسلم لحدُوده .

وهذا الرد إلى منهاج الله يحتاج إلى تدريب متواصل يقوم به البيت والأسرة، وهم يرعون أبناءهم ، وتقوم به المساجد والمعاهد وميادين التربية والبناء.

وتظلّ جهود جميع العلماء موضع التقدير والاحترام ، للاستعانة والاستئناس بها ، ولكنها كما قلنا لا يمكن أن ترقى إلى مستوى منهاج الله ، ولا أن تُعتبر صالحة لكل زمان ومكان كمنهاج الله ، فهي موضع دراسة واستئناس واستفادة .

ولا بدَّ أن نشير إلى خطأ يقع فيه الكثيرون ، حين يأخذون حجَّتهم من أقوال زعيم أو رئيس جماعة أو حزب ، حين تكون الحجة متوافرة في الكتاب والسنَّة فيتركونها ويأخذون بأقوال البشر .

وخطأ آخر يمكن أن يقع فيه بعضهم ، حين يعطي رأيه واجتهاده دون أن يرفقه بحجة شرعيّة من الكتاب والسنَّة .والرأي الذي لا يحمل حجّته وبيّنته لا يعتبر رأياً مقبولاً في الإسلام ، إلا أن تكون قضيَّة علميَّة تثبت بالتجارب والأبحاث .

وخطأ آخر حين يعطي الرجل رأيه ويدعمه بحديث شريف دون أن يبيّن تخريج الحديث ومصدره أو درجته .

نخلص من هذا كله إلى أنه من الواجب الشرعيّ ردّ جميع الأمور إلى منهاج الله ردّاً أميناً بشروطه التي سبق ذكرها ، وذلك مع كلِّ واقع متجدد . ولنذكر بعض الآيات الكريمة بالإضافة إلى ما سبق :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨ – ٥٠]

هاتان الآيتـان من سورة المائدة مع الآيتين السـابقتين : (الأعراف : ٢ ، ٣) ، والآيتين (فصّلت : ٤١-٤٢) تضع القاعدة الرئيسة بوجوب ردّ جميع الأمور إلى منهاج الله ، وبوجوب صدور الحكم عن منهاج الله ، ومخالفة ذلك هي عودة لحكم الجاهليَّة ! وآية أخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩]

فقد جعلت الآية الكريمة عدم ردِّ الأمور إلى الله والرسول نقضاً للإيمان بالله واليوم الآخر . وذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى: ١٠]

ومعنى " فحكمه إلى الله " أي إلى منهاج الله ! وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]

وجعل الله صفة من لا يقبل بحكم الله ورسوله صفة المنافقين أو الكافرين والظالمين :

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠]

أما صفة المؤمنين فتعرضها الآية التالية :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]

وآيات أخرى كثيرة تؤكد هذا المعنى وتثبّت هذه القاعدة الرئيسة في الإسلام : في الفكر والفقه وميادين الحياة كلها ، والممارسة والتطبيق .

(٣)
اجتهادات الأئمة السابقين
وتوصيتهم للأجيال بعدهم

لقد اجتهد الأئمة السابقون ، جزاهم الله عنا خير الجزاء ، في قضايا فقهيَّة بفهم آية أو حديث ، أو في الشعائر والبيوع والفرائض والنكاح والحدود وما شابه ذلك مما له أصل وتشريع ثابت في الكتاب والسنة . واختلفوا في بعض الأمور اختلافات كوَّنت مع الأيام مذاهب فقهية . واجتهدوا كذلك لأحداث الواقع الذي عاصروه وعاشوه . وبنوْا اجتهادهم على ردّ الواقع إلى منهاج الله ، وقالوا الكلمة العظيمة المأثورة للأجيال المقبلة كلِّها : " **لا تأخذوا عنَّا ولكن خذوا من حيث أخذنا** " . و " **كلنا يخطئ ويصيب إلا صاحب هذا القبر** " ، وذلك بالوحي الكريم الذي يتنزّل عليه .

يميل بعضهم اليوم إلى أن يعتمدوا اجتهادات أئمة سابقين اجتهدوا لواقعهم في جميع ملابساته ، وكأنَّ ذلك الواقع مطابق لواقعنا نحن اليوم . وأرى أنَّ لكل واقع جديد ظروفاً جديدةً ، قد تلتقي في بعض النقاط في ظروف واقع سابق ، وتختلف في نقاط أخرى . فكل واقع له قضاياه الاجتماعية ، والفكرية ، والسياسية، والاقتصادية ، والعلاقات الدولية ، وتوازن القوى أو عدم توازنها ، ومدى عدم التوازن ، وخصائص أخرى كثيرة ! ولذلك كان المبدأ الشرعي الملزم هو: ردّ جميع الأمور صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله . فمنهاج الله وحده هو الذي جعله الله صالحاً لكل زمان ومكان ، ولكل واقع ، أما قول البشر وأعمالهم واجتهاداتهم فلا يمكن أن ترقى إلى مستوى منهاج الله ، ولا يمكن أن تكون صالحة للزمن كله .

ولا شكَّ أنه يجب الاستئناس والاستفادة قدر الإمكان من جهود علمائنا واجتهاداتهم ، دون أن ننزلها منزلةَ الوحي المتنزّل من عند الله .

ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ : " **... عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء**

الراشدين المهديين من بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجذ " [(١)] ومعنى سنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين هو النهج الذي دربّهم عليه ﷺ . والذي يُبْنى على الكتاب والسنَّة . والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تؤكد ضرورة ردّ جميع القضايا إلى منهاج الله الذي يسع وحده الأزمنة والأمكنة كلها والواقع كله[(٢)] . ولذلك جاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

[الأعراف: ٢، ٣]

ونرى في واقعنا اليوم من يلجأ إلى اجتهادات علماء سابقين ليُفْتوا بجواز التعامل بالربا لشراء مساكن بدلاً من الاستئجار ، بعد أن لم يجدوا في الكتاب والسنَّة أيَّ سبيل لذلك ! ولقد كثرت الاجتهادات السابقة المرهونة بظروفها وتناقضت واختلفت ، فمن أراد أن يعودَ إليها سيجد رأياً هنا ورأياً هناك ، يجد آراءً يخالف بعضها بعضاً .

ذلك أن الاستعانة بتلك الاجتهادات تكون غالباً لتسويغ ما حرَّم الله نصَّاً بالكتاب والسنَّة مثل الربا ، بغية تسهيل الأمور على الناس حسب ظنّهم . ولكن مثل هذه الاجتهادات كان أهم أثر لها دعم الواقع السيّء الذي يمارس الربا ، والذي كان يُفْترض مقاومته لإلغائه ، ومع استمرار الممارسة بوجود فتوى الإباحة تستسهل النفوس ممارسته وتعتاده ، ثمَّ تدعو إليه ، ثمَّ تتوالى القضايا المشابهة لتجد الفتوى المشابهة ، ليَصْدرَ لكل قضية فتوى . ومع أن الربا من أوضح الأمثلة على ذلك ، ولكن نشأتَ قضايا أخرى كثيرة ، وتداخلت الأمور، حتى لم تعد الحدود واضحة لدى المسلم العادي لشدّة الخلل في الواقع الإسلامي وكثرته [(٣)].

---

(١) أبو داود : ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧ ، الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ ، ابن ماجه : المقدمة / ٢٥ .
(٢) يراجع كتاب " دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية " : (ط : ٦) .
(٣) يراجع كتاب " الربا وخطره في حياة الإنسان " ، وكتب دراسة الواقع وأفكاره وأحداثه في كتب المدرسة .

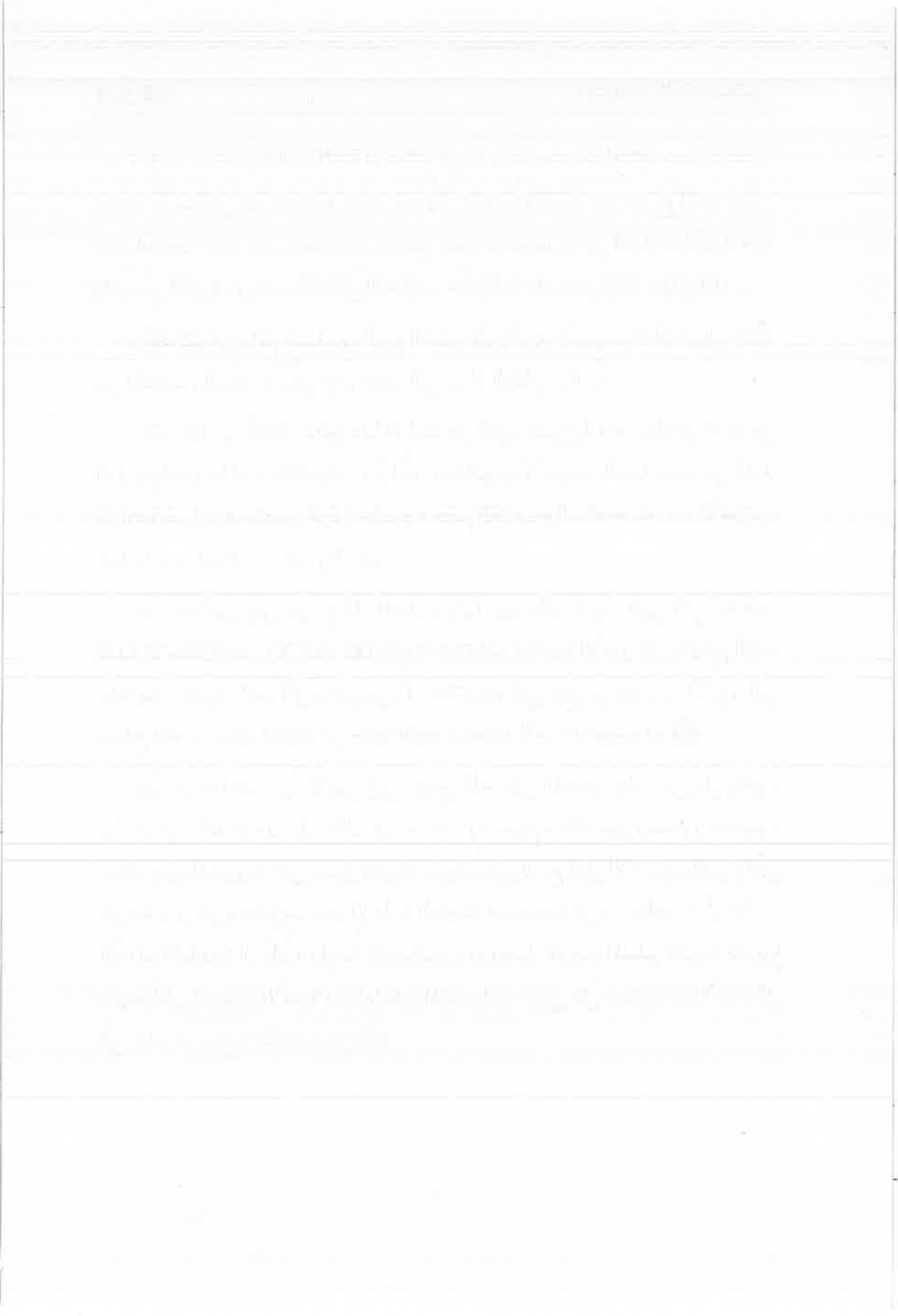
ونؤكد أن اجتهادات الأئمة الأعلام في تاريخنا يجب دراستها ممَّنْ يريد أن يجتهد، ليستأنس بها ويستفيد منها، ليسْهُلَ عليه ردُّ القضيّة إلى منهاجَ الله، ليبْنيَ اجتهادَه بعد ذلك على أساس من منهاج الله. فالتجارب في الساحة الإسلامية زاد يُنمِّي الخبرة. ويجب أن تظلَّ التجارب متَّصلة ما دامت مرتبطة بمنهاج الله.

ولقد كثر في واقع المسلمين اليوم اللجوء إلى فتوى البشر دون أن تحمل حجّة من الكتاب والسنَّة، ويُرْفَع قول البشر إلى منزلة الكتاب والسنَّة.

ولقد كان من أخطر نتائج هذا الاتجاه هو تكوّن صراع المذاهب الذي امتدَّ مع التاريخ امتداداً أخذ بالازدياد. ثمَّ اتبَّع هذا النهجَ الأحزابُ السياسية التي أخذ أفرادها بقول زعمائهم وأنزلوا حكمها حكم الكتاب والسنَّة، فتنابذت الأحزاب كما تنابذت المذاهب سابقاً ولا حقاً.

إنَّ ردَّ الأمور إلى منهاج الله قاعدة ربَّانيَّة يجب التزامها، فهي التي تخفّف شدّة الاختلافات. ولا شكَّ فقد تقع اختلافات عند ردّ الأمور إلى منهاج الله، ولكنّها ستكون دائماً أقلَّ بكثير من الاختلافات التي تنبع من عدم ردّ الأمور إلى منهاج الله، وستكون كلّها في طاعة الله واستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ.

إنَّ هذه القاعدة: ردَّ الأمور إلى منهاج الله، إلى الله ورسوله، في كلِّ واقع، ردّاً يقوم به القادرون على ذلك في حدود وسعهم وطاقتهم ومسؤولياتهم، خاضعين للشروط التي سبق ذكرها، ويتعاونون مع أهل الاختصاص وأهل الموهبة، أو تقوم به المؤسّسات الإيمانيَّة العاملة المتخصصة في هذه القضيّة أو تلك، إنَّ هذه القاعدة الربَّانيَّة ملزمةٌ للمسلمين، ويجب تدريب المسلم عليها تدريباً منهجياً في البيت والأسرة، والمعاهد والمؤسسات، وفي كلِّ مستويات الأمة، كلٌّ في حدود وسعه وطاقته ومسؤوليته.



(٤)
تشريع مَنْ قَبْلَنا

لقد جاء القرآن الكريم مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، كالتوراة والإنجيل قبل أن يُحرَّفا . لقد جاء منهاج الله جامعاً لجميع التشريعات السابقة ، كاملاً تاماً يفي بحاجة البشرية كلها مدى الأزمان كلها . فإذا وجد الناس عدم القدرة على إيجاد الحل للقضية المطروحة من منهاج الله ، فالنقص والضعف والخلل في الطاقة البشرية ، وليس في منهاج الله . فردُّ الأمور إلى منهاج الله يتطلب خصائص إيمانية يجب توافرها ، كما ذكرنا سابقاً .

نصوص الكتاب والسنَّة حول هذه القضية حاسمةٌ فاصلة ، فلنتدبَّرْ بعض هذه الآيات الكريمة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء: ١٠٥]

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾ [المائدة: ٤٩]

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥]

﴿ ... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء: ٥٩]

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ [النور: ٥١]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦١]

وقد أمرَ الله أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أُنْزِل على نبيّه محمد ﷺ ، وأنذرهم باللعنة كما لُعن أصحاب السبت :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾

[النساء: ٤٧]

إنَّ الله يأمر أهل الكتاب باتباع رسالة محمد ﷺ وشرعها ويتركوا شرعهم الذي كانوا عليه ، لأنَّ ما أُنْزِلَ على محمد ﷺ مصدِّقٌ لما معهم ومهيمنٌ عليه ، إنه قول فصل !

إننا أُمرْنا أن نؤمن بالأنبياء كلِّهم وبما أُنْزل إليهم ، وجاء كتاب الله جامعاً ذلك كله ومهيمَناً عليه ، ليكون وحده شرعاً للبشَرِيّة كلِّها .

وكان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانيَّة ويفسرونها بالعربية ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا : " آمنّا بما أُنزِل إلينا وأُنزل إليكم .... الآية " .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

(لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا فإنكم إما أن تصدِّقوا بباطل أو تكذِّبوا بحق ، فإنَّه لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتّبعني). (١)

وعنه أيضاً أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه النبي ﷺ فغضبَ فقال : (**أمتهوّكون يا ابن الخطاب (أي أمتحيّرون في كتابكم ودينكم) ؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها**

(١) أحمد : الفتح الرباني : ج ١/ ١٧٤ حديث ٦١ .

بيضاء نقيَّة ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذّبوا به أو بباطل فتصدِّقوا به ، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى بين ظهرانيكم ما وسعه إلا أن يتبعني) [١].

وأما ما ورد عن رسول الله ﷺ من جواز التحدّث عن بني إسرائيل في حديثه الشريف : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله أنتحدث عن بني إسرائيل قال : (**نعم ! تحدَّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، فإنكم لا تحدَّثون عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجبُ منه**)[٢] .

فذلك يعني : أن يتحدَّثوا عن بني إسرائيل بمَا ورد في كتاب الله وفي أحاديث رسول الله ﷺ عنهم ، وعن كثرة معاصيهم وشدّتها ، حتى لعن الله الكافرين منهم في محكم القرآن وغضب عليهم .

من خلال هذا العرض الموجز السريع ، الواضح الحاسم ، ومما عُرض قبله ، نخرج بنتيجة رئيسة : أننا لسنا بحاجة إلى شرع من قبلنا ، ففي منهاج اللّه غناء عن أي تشريع آخر ، فقد أنزله الله سبحانه وتعالى ليسع الأزمان كلها والأماكن والأحداث كلها . وإن بدا أيٌّ تقصير أو عجز فذلك في جهد الإنسان وليس في منهاج الله . ومن خلال منهاج الله يُدْرَس الواقع ليُفهم بصورة إيمانيّة تلجم الأهواء والأماني المتفلتة .

ونذكر هنا كذلك أنّ كلَّ نبيٍّ كان يُرسَل إلى قومه خاصة ، فجاء ما كان فيه من تشريع خاص بقومه وفترته ، ولكن تظلُّ أسس الإيمان والتوحيد واحدةً ثابتة في كلِّ الرسالات السماوية ، لأنها كلها دين واحد هو الإسلام ، فلا دينَ من عند الله سواه ، وهو دين جميع الأنبياء والرسل منذ نوح عليه السلام الذين خُتموا بالرسالة الجامعة الخاتمة من عند الله وحياً على عبده ورسوله محمد ﷺ .

وفي حديث رسول الله ﷺ يرويه عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنه بيان لذلك :

(١) المصدر السابق : ص : ١٧٥ حديث رقم ٢٦ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٧٧ حديث رقم ٦٦ .

(أُعْطيتُ خمساً لم يُعْطهنَّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصرْتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيَّما رَجل من أمّتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ ، وأُحلّت ليَ الغنائم ، ولم تَحلَّ لأحد قبلي ، وأُعطيتُ الشفاعة ، وكان النبيُّ يُبْعثُ إلى قومه خاصّة ، وبُعثْتُ إلى الناس عامة)
[رواه الشيخان والنسائي][(١)]

نعم ! هذه القاعدة الهامة الكبيرة : " وبعثتُ إلى الناس عامة " ، فمنهاج الله شرع للبشريّة كلها في جميع الأزمان والأماكن والأحداث . ولكن منهاج الله يحتاج إلى المواهب المؤمنة الصادقة التي تتفتَّح لتُقدِّم أجمل العطاء وأغنى الفكر للإنسانية كلها ، منطلقة من نيّة خالصة لله ، وإيمان صاف لا تشوبه نزعات الدنيا، وأهواء الجاهليّة وعواصف العصبيات الجاهلية الدنيوية التي نهى عنها الإسلام .

وهذه المواهب الإيمانية التي لا تُخْدَع بزخارف الفتن ، ولا بضغوط المجرمين ، ولا تحلُّ لنفسها الكذب والخداع والظلم ، هي ما يحتاجه المسلمون اليوم وفي كلِّ عصر .

إنَّ مدرسة محمد ﷺ هي المدرسة الخالدة مدى الدهر كلِّه ، هي التي تنجب هذه المواهب وترعاها وتدفعها إلى الميدان . إنها مدرسة البناء والإعداد على نهج مفصّل حق نابع من قواعد الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

إنَّ الزاد الذي يحمله الإنسان في قلبه وعقله يؤثر التأثير الكبير في فكره وعطائه ، فليكن الزاد الرئيس صفاءَ الإيمان وصدقه ومنهاج الله ـ قرآناً وسنّة ولغة عربية ـ . عندئذ نستطيع أن نفهم الواقع ونردّه إلى منهاج الله ردّاً أميناً واعياً ، ونجد الحكم والاجتهاد والرأي والحل ، على أن يلتزم كلٌّ حدود وسعه ومسؤوليته ! أما إذا اختلط الزاد في الفطرة واضطرب التصور ، وغلب الضغط على فطرة الإنسان من الزاد الذي يناله من فتن الواقع وتفلّته في أمواج الزخارف، فإنَّ الرأي سيتغيّر والحلول ستضطرب والتَصوّرات قد تنحرف !

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : ١٠٥٦ .

(٥)
قصص وأحداث يعرضها منهاج الله

يعرض الكتاب والسنّة قصصاً هادفاً يربِّي النفوس ويُعلِّم الناس سنن الله في هذه الحياة الدنيا، بما تحمل من دروس وعبر ومواعظ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]

وهذا القصص مرهون بواقعه وزمنه، وما وقع فيه من مخالفات لأسس الإيمان والتوحيد، أو ما وقع من إجتهادات. ولكنْ في كلِّ قصّة في منهاج الله عبرة تحتاجها البشرية كلها، وتظلُّ معيناً دائماً للموعظة والعبرة على مدى الدهر كله. ولكن هل هذا يعني أنّ كلَّ موقف في هذا القصص هو تشريع لنا؟!

من حيث المبدأ نقول إن كل موقف مطابق للتشريع الأساسي في الكتاب والسنَّة فهو مَثَلٌ على هذا التشريع. فامتناع يوسف عليه السلام عن الاستجابة لفتنة امرأة العزيز موقف فيه تطبيق لشرع الله في الرسالات كلها، وهو تحريم الزنا تحريماً شديداً. وفي هذا الموقف تصوير لصراع النفس البشرية مع الفتنة والمغريات، ثمَّ تصوير لانتصار النفس المؤمنة بفضل من الله وهدايته. وموقف يوسف عليه السلام في السجن، حيث ابتدأ حديثه مع الفتيين بدعوتهما إلى الله، إلى التوحيد، إلى الإسلام. ونعتقد أنه ظل يدعو إلى ذلك بسلوكه ومواقفه وبلسانه كلما أمكنه ذلك، وهذا الموقف المطابق للإسلام، والموقف الذي يجب أن نتأسى به، يذكّر المسلم بأهمية الدعوة والتبليغ وتعهّد الناس على ذلك في كلِّ حال من أحواله. إنها هي مهمة الرسُل والأنبياء جميعاً في جميع الصور، ومهمة الدعاة والأمة المسلمة اليوم!

ولا نستطيع أن نعرض القصص كله وما فيه من حكم ومواعظ ودروس. ولكننا نأخذ مثلاً اعتاد بعضهم أن يجعل منه قاعدة وتشريعاً يقيسون عليه، وهذا ما نخالفه. ذلك المثل نجده في الآيات الكريمة التالية:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥]

يرتبط هذا الموقف بجميع أحداث القصة، الأحداث التي مضت على سنن لله ثابتة، أَدَّتْ في نهايتها إلى هذا الموقف. ولو أن الأحداث السابقة جرت على خلاف ذلك، لما وقف الملك هذا الموقف، ولما استطاع يوسف عليه السلام أن يعرض نفسه ليتولَّى الإشراف على خزائن الأرض. فقد سُجِنَ يوسف عليه السلام متَّهماً ظلماً، فصبر واستمسك، وبرز تميزُّه وقدرته في تأويلَ أحلام الملك، وبما أشار به من ضرورة اتخاذ حلول وإجراءات: ﴿... فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾! برزت مواهب خاصة جداًّ لا تجدها عند غيره، ولا أحد استطاع أن يجيب طلب الملك من تأويل الأحلام. كلهم قالوا: ! ﴿... أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ فيوسف إذن هو الرجل الوحيد الذي يصلح لهذه الأزمة المقبلة وهو رجلها، ولا أحد سواه. يُضافُ إلى ذلك سموُّ خلقه الذي أبرز مع سائر مواقفه بعض أمارات النبوة، سواءً اعترف الملك بالنبوّة أم لم يعترف. لذلك أسرع الملك لاستخلاصه لنفسه لينقذ أمته. وانتقل يوسف عليه السلام من هوان السجن وضيقه إلى جمال الحريّة. ولم تحدِّثنا السورة عن الدعوة واستمرارها، فهي مهمة النبوّة والرسالة، فلا نشكُّ في أنَّ يوسف عليه السلام تابع مهمّة الدعوة بلسانه وسلوكه. نبيّ كريم يعرض عليه الملك أن يتقدّم لينقذ أمة من أزمات اقتصادية مقبلة، بعد أن اطمأنَّ الملك إلى قدرته وخلقه، ولم يكن لدى الملك ونظامه ما يمنع من استفادته من يوسف عليه السلام، ولم يكن لدى يوسف النبيّ ودينه ما يمنعه من قبول الإفراج عنه من السجن، وتولي منصب فيه عزّته وكرامته وحريّته، بعيداً عن التدخّل في شؤون الحكم وسياسته ونظامه.

يُضاف إلى ذلك أن يوسف عليه السلام كان مؤثِّراً لا متأثِّراً، كامل الصلاحية في ما عهد إليه من أمر، يسلك مسلك الإيمان، لا يعطله شيء! ليس جزءاً من نظام يحكمه ويملي عليه سياسته.

نرى أن هذه حالة خاصة ، تميَّزت بظروف الملك وظروف يوسف عليه السلام ، وارتبط ذلك كله بأحداث القصة ، ولو تغيَّرت الأحداث لتغيّر الموقف كله. ويظلُّ عمل يوسف عليه السلام عملاً مختلفاً كلَّ الاختلاف عن عمل المجالس النيابية والوزارة ورجال الحكم والسياسة .

لذلك لا نرى أن هذه القصّة تمثّل تشريعاً للمسلمين ، ليستخلصوا منها جواز دخول البرلمانات اليوم ، وتسلم الوزارات ، أو عدم دخولها وعدم تسلمها ، فالقصة كلها لا علاقة لها بمثل هذه القضايا . إنها موقف خاص بأحداث خاصة في زمن خاص يخضع لنظم اجتماعية وتشريعية وحكم خاص ، لا ينطبق على أحوال واقعنا اليوم ، ولا يشابهه في أيّ ناحية من النواحي .

ولكن يمكن أن نستنتج أن المسلم صاحب الخبرة الخاصة المتميزة غير المتوافرة عند غيره ، إذا تعرَّض الناس لمشكلات في زمن خاص ، فيمكن أن يساهم في إنقاذ الناس من خطر أو مشكلات أو هلاك . هذه حالات خاصَّة مرهونة بظروفها .

واقعنا اليوم يختلف كل الاختلاف عن ذلك الواقع : فالأحداث غير الأحداث، والملوك غير الملوك ، والمجتمع غير المجتمع ، والمقبل على أمر من تلك الأمور ليس نبيّاً كيوسف عليه السلام . ولذلك لا تصلح هذه للقياس عليها ولا للاجتهاد على أساسها . وإنما هي دروس وعبر .فكلُّ واقع يجب أن يُرَدَّ إلى منهاج الله بكامل ظروفه ، لِنَعِيَهُ أولاً وعْياً إيمانيّاً ، ثمَّ لنخرج بالاجتهاد المناسب إذا كان هنالك قضيّة .

ومثل آخر يلجأ إليه بعضهم يأخذونه من تاريخ السيرة النبوية ، ليستنتجوا منه أحكاماً تتعلّق بواقعنا اليوم ، دون أن يكون هنالك أيّ رابط . تلك هي قصّة النجاشي الذي أسلم لما وصلته الدعوة الإسلامية ، وقومه كلهم نصارى ، ولكنْ ظلَّ هو بعد إسلامه يحكمهم . فأيّ قياس يمكن أن يُبْنى عليها . إنها حالة فريدة ! لا تطابق أي حالة من واقعنا اليوم ، ولا يُعْقَلُ أن يبنى عليها جواز دخول المسلم هنا وهناك انطلاقاً من نفسه دون أن يجد له بيّنة جلية من منهاج الله .

فالنجاشيّ لم يأت ابتداءً مسلماً ثم دخل مجتمعاً أهله نصارى ، ثمَّ أراد أن يحكمهم . كلا ! إنه كان حاكماً لهم أولاً ، ثمَّ هو أسلم ، وقومه رفضوا الإسلام وبقوا أهل كتاب ! وهم رضوا به على حاله ! ذلك واقع خاص مرهون بظروفه التي تختلف عن ظروفنا اليوم . والنجاشي وصل إلى الحكم بظروف خاصة ، وثبت على الملك بعد صراع ، ولم يكن لديه تشريع الإسلام كله ! ولما جاءه الإسلام آمن والتزم بما بلغه ، وإن لم يكن لدينا تفصيل ذلك .

فالمسلم اليوم مكلّف أن يبلّغ رسالة الله إلى الناس في كلِّ حال . وهذا التبليغ هو المهمة التي خلق الله الإنسان للوفاء بها حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض ، ومن أجل هذه القضية جاء حديث رسول الله ﷺ يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه :

(أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلُّوا صلاتنا ، فقد حَرُمت علينا دماؤهم وأموالهم ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم)(١) .

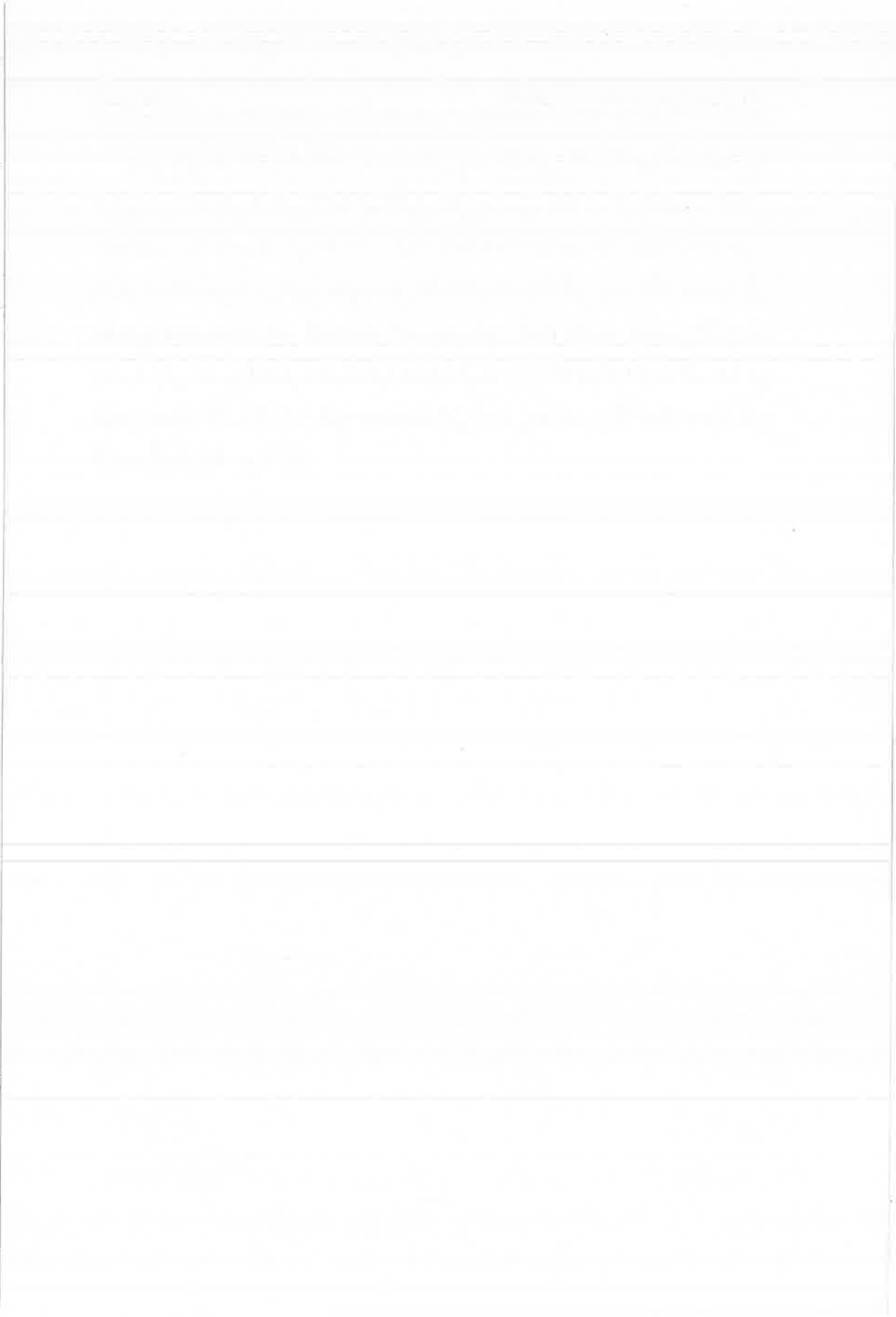
فهذه المهمة في الأرض هي خلاصة العبادة والأمانة والعمارة والخلافة (٢) . وهي المهمة التي يفترض أن يعيها المسلم وعياً دقيقاً من الكتاب والسنَّة ، وأن ينهض إليها ، وأن تتحدّد مواقفه على أسس منهاج الله ، ومن بينها هذا الأساس .

وأخيراً نقول إن القاعدة الأولى هي ردُّ كلّ واقع جديد إلى منهاج الله وشرعه الواضح . ولكن ما زال أناس تحت ضغط الواقع يثور بهم هوى يريدون إلباسه ثوباً إسلاميّاً حتى يسوّغوا هذا الموقف أو ذاك ، فيلجؤوا إلى تأويل آية أو تحريف حديث ، أو اللجوء إلى بعض الجهود البشريّة في التاريخ أو إلى رأي بعض المذاهب المختلف فيه مما قاله أتباع المذهب .

---

(١) صحيح ابن حبان : ج ١٣/ ص : ٢١٥ ، حديث : ٥٨٩٥ . وأخرجه أبو نعيم في الحلية والنسائي ،وأحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والخطيب في تاريخه ، والبيهقي وغيرهم .
(٢) يراجع كتاب : " حتى نغير ما بأنفسنا " للمؤلف .

ومن المهمِّ أن نذكّر أنَّ أوَّل واجب على أبناء الدعوة الإسلامية أن ينهضوا لتبليغ دين الله إلى الناس كافَّة كما أُنْزل على محمد ﷺ ، وأن يتعهَّدوا الناس عليه تعهّد بناء وإعداد ، ليَبْنُوا أُمّةً مسلمةً واحدةً صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، وليكون ذلك جزءاً من نَهج عام يحمل الأهداف الممتدَّة التي يجب أن يسعوا إلى تحقيقها هدفاً هدفاً ، قبل أن يشغلوا أنفسهم بأمور تُعطِّل العمل الرئيس الذي قد يتحوّل إلى تجميع أنصار ، تغيب فيه عمليَّة البناء ، بناء الأجيال المؤمنة الممتدة مع الزمن ، وبناء الأمة المسلمة الواحدة ، فيفشل العمل ، وتغيب الأهداف ، وقد يقع الانحراف ليزداد مع الأيام .









البـاب الثالـث

قضايــا ومصطلحات

المقـدمـة .

١ – الدين .

٢ – لا إكراه في الدين .

٣ – الديمقراطية وبعض آثارها في الواقع .

٤ – الانتخابات .

٥ – الوطنية والوحدة الوطنية .

٦ – الإنسانية والأخوة والإنسانية .

٧ – الآخر والاعتراف بالآخر .

٨ – التعدّدية .







المقــدمــة

لقد غزا العالمَ الإسلاميَّ مصطلحاتٌ كثيرةٌ وفدتْ مع الاتجاهات اليسارية والعلمانيَّة والديمقراطية والحداثة وقضاياها ، وانتشرت هذه المصطلحات بين المسلمين عامّة وبين كثير من الدعاة ، يُغذِّيها الطوفان الإعلاميَّ والزحف العسكريُّ ، وفتنة الزخرف والزينة ، حتى بدأ كثير من المسلمين يعتادونها بعد طول رفض لها ، ثمَّ أخذوا يرغبون بها ، ثمَّ أخذوا يدعون إليها ، ويُغيِّرون نمط تفكيرهم ونَمط حياتهم على أساسها ، دون أن يشعروا بخطر ذلك على إيمانهم وإسلامهم ، بل احتلَّت هذه المصطلحات ودعوتها الألسنة والمقالات والمؤتمرات الإسلامية ، كأنْ لم يكن هناك إسلام يُدْعى إليه ، إلا أن يكون شعاراً يُغلِّف تلك الدعوات ، وطلاءً يُخفي سَوْءاتها .

وإنَّك لتستمع لبعض الدعاة في المؤتمرات أو الفضائيات ، وتكاد تشتهي أن تسمع كلمة الإسلام ، وقد احتلت كلمة الديمقراطية المكان الأوسع في كلِّ ذلك !

وإن النفور أو الرفض الذي صاحب تلك المبادئ ومصطلحاتها أول ما بدأ غزوها أخذ يخفُّ ويبهتُ تدريجياً ، حتى كأنَّ الفتنة قد اتسعت ، وأمواجها قد علت وطغت .

لا نشكّ في أن هذا ابتلاءٌ من الله سبحانه وتعالى ، ليُمحِّص به عباده المؤمنين :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وإنَّ الابتلاء ماضٍ مع الدهر كله ، لا يقتصر على زمن دون زمن ، وإن يوم القيامة هو يوم الفصل ، إنه ميقاتهم أجمعين :

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ

وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٧]

لذلك سنتناول في الصفحات المقبلة بعض هذه المصطلحات والشعارات ، مما نؤمن بضرورة إعادة معناه إلى منهاج الله ، ليتضح الفرق بين ما يدعو إليه الله ورسوله في محكم الكتاب والسنَّة ، وبين ما تدعو إليه المبادئ البشريَّة والصناعة البشريَّة من خلال مصالح ماديَّة آنية ، وأهواء ثائرة عاجلة !

إنَّ هذه المصطلحات البشريَّة النابعة من مبادئ الديمقراطية والعلمانيّة والحداثة كثيرة جداًّ ، لا نستطيع أن ندرسها كلها ، ولكننا سنختار عدداً قليلاً يوضح النهج الذي نرمي إليه والقضيّة التي ندعو لها .

يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ بعض الناس جعلوا من أنفسهم آلهة ، فحسبوا أنهم يعلمون كلَّ شيء ، وأنهم قادرون على كلِّ شيء ، فغرَّتهم أنفسهم ، فأخذوا يُشَرِّعون للخلق تشريعاً غير تشريع الله ، ويزينونه بالأهواء والشهوات حتى تكون فتنة أشدَّ وأوسع:

﴿ ....وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف: ٢١]

(١)
الـــديـــن

كلمة " الدين " كلمةٌ عمّت الشرق والغرب والتاريخ البشري واللغات المختلفة ، والأمم والشعوب كلٌّ يدَّعي أن له ديناً ، ثم يعرض دينه الذي لديه .

ولكن هذه اللفظة في اللغات الأخرى غير العربيّة لها معنى خاص يختلف كلّ الاختلاف عن المعنى الذي تحمله هذه الكلمة في اللغة العربيّة . ومع ضغط الغزو الغربيّ على العالم الإسلامي ، غزواً فكريّاً وعسكريّاً ، تأثر كثير من المسلمين بالفكر الغربي ومصطلحاته ومدلولاتها ، واختلطت المعاني في كثير من الأذهان ، وحسب الكثيرون أن كلمة "Religion" في الإنجليزيّة مثلاً ، وأمثالها في لغات أخرى ، تحمل نفس معنى كلمة " **دين** " في الإسلام وفي اللغة العربية . ولكنّ الحقيقة هي أن هنالك فرقاً واسعاً جداً بين كلمتي " **دين** " و " Religion"

كلمة " **دين** " في اللغة العربيَّة تحمل عدَّةَ معان وردت كلها في القرآن الكريم : الجزاء ، المكافأة ، ومنه : يوم الدين ، ومنه اسَم الله سًبحانه وتعالى الدّيان . والدين : الملك ، الحكم ، السلطان ، الطاعة ، والمدينة : الأمّة . والمدين: العبد ، والدين : الجمع .

والكلمة الإنجليزية " Religion" لا تحمل إلا معنى الطقوس ، ولا تحمل المعاني التي تحملها كلمة " الدين " ، فمن الخطأ أن نترجم كلمة " Religion "بـ " دين " ، فالفرق واسع ، ولا يوجد لدى غير العرب لفظة تعادل كلمة " دين " والإسلام دينٌ يحمل جميع المعاني السابقة ، لتجتمع كلها في المعنى الرئيس لكلمة دين : منهج كامل قام للحياة كلها ، الدنيا والآخرة :

﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ... ﴾ [المائدة: ٣]

فمن مسؤولية المسلمين جميعاً أن يبيّنوا للعالم كله ما هو الإسلام الذي

ارتضاه لعباده ، وما معنى كلمة دين ، وكيف أنها لا تُترْجم ولكن تشْرح معانيها ، ليكون الشرح جزءاً من التعريف بدين الإسلام ، الدين الذي يجمع أمور الحياة كلها: الاجتماعية ، والتربوية ، والنفسيّة ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتشريع الكامل ، والحكم ونظامه ، والدولة وسلطانها ، والمسؤوليات للفرد والأسرة والأمة كلها ، وجميع التكاليف التي نزل بها الوحي الكريم على محمد ﷺ ، والشعائر ، والعبادة كلها ، والأمانة ، والعمارة ، والخلافة ، وتعاون الشعوب على أساس إقامة دين الله ، الإسلام ، والدعوة إلى الله ورسوله وتبليغ الإسلام وتعهّد الناس كافة عليه ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن النار إلى الجنّة بإذن الله تعالى ، وجهاداً في سبيل الله ، وسائر المسؤوليات التي وضعها الله أمانة في عنق الأمة المسلمة :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

[آل عمران: ١١٠]

ومن أهم المسؤوليات التي كلّف الله بها عباده أن يحملوا هذا الدين دعوة وبلاغاً وتعهّداً وجهاداً في سبيل الله ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها . فهذه هي حقيقة الأمانة والعبادة والخلافة والعمارة التي خَلَقَ الله الإنسان للوفاء بها في هذه الحياة الدنيا من خلال ابتلاء وتمحيص ، ومن خلال عهد وميثاق ، ليُحاسَب عليها الناس يوم القيامة .

إنّ هذا الدين الإسلامي جاء لهذه الغاية ، ليحَدِّد مُهمَّة الإنسان في الأرض ، والغاية التي خَلَقَه الله من أجلها .

والناحية الأخرى التي ترتبط بهذه القضيّة هي أن الله سبحانه وتعالى ، وهو الواحد الأحد ، ما كان ليبعث لعباده أدياناً مختلفة يتصارع الناس عليها ، حين يريد الله من عباده كلهم أن يؤمنوا إيماناً واحداً ليدخلوا جميعاً في طاعته ورحمته

ما أطاعوا والتزموا . فالدين عند الله واحد هو الإسلام ، دين جميع الأنبياء والرسل الذين ختموا بمحمد ﷺ .

أما المصطلح الذي شاع بين الناس : " **الأديان التوحيدية السماوية** " ، وما شابهه ، فهو مصطلح خاطئ متناقض ، لا يتناسب مع معنى التوحيد ولا معنى الألوهية ، ولا معنى الدين ، فالدين عند الله دينٌ واحد هو الإسلام . وكيف تكون الأديان توحيدية سماوية وهي مختلفة متصارعة ؟!

ومن ذلك نرى أنه خارجَ دين الله ، خارجَ التوحيد ، قد توجد أديان يصنعها البشر ، إما من عند أنفسهم أو من تحريف دين الله مع الزمن . وهذه الأديان غير التوحيديةَ يمكن أن نضعها كلّها في إطار " **دين غير توحيدي** " ، لا يدعو إلى الله ورسوله ، ولا يتبنّى الوحي المنزّل من عند الله على رسله الذين ختموا بمحمد ﷺ ، خاتم الأنبياء والمرسلين . فهنالك إذاً دين الله ، دين التوحيد ، دين واحد جاء برسالات متعدّدة مع الرسل والأنبياء ، ودين غير دين الله :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾
[الكافرون: ١ – ٦]

مفاصلةٌ وحسمٌ في الدين والمعتقد ، لا مجال فيه للمراءاة أو المجاملات أو المساومات : دين الله دين واحد هو الإسلام ، ودين الكافرين ، ولا يوجد أديان متعددة ، إلا في نطاق دين الكافرين !

وعند الخروج عن هذا التصوّر يضطرب الفكر ويختلط ، وتضطرب التصورات ، وتخرج أفكار ومصطلحات !

فحوار الأديان مثلاً مصطلح غريب حسب ما يُطْرَح في واقعنا اليوم ، وغريب من حيث كلمة " الأديان " ! والله يقول : دين واحد ! أفنكذّب الله سبحانه وتعالى ! واستخدامنا لكلمة " حوار " استخدام غير سليم . ففي الإسلام يكون

الحوار حول الدين دعوةً وبلاغاً للدين الواحد ، الدين الحق ، الإسلام ، وتعهُّد الناس عليه ، كما أمر الله ! فلا حاجة لحوار الأديان ، فالأديان معروفة ، وأصحاب كلّ دين يدعون إلى دينهم ولا يحاورون حوله . ولكن الحوار يمكن أن يدور حول طريقة التعامل لا حول الدين نفسه ، ويظل الإسلام يدعو الناس كافة إلى الإسلام بوضوح وجلاء !

نشرت إحدى الصحف حديثاً لرئيس الوفد الذي ذهب لزيارة " البابا " لإجراء حوار معه حول الدين . فقال رئيس الوفد في تصريحه : " إنَّ البابا قال لنا: نحن لا نؤمن بأنَّ محمّداً (ﷺ) نبيٌّ ! " ويضيف رئيس الوفد : " إذن لماذا الحوار؟! " فأقول أنا للوفد ورئيسه : اسأل نفسك قبل أن تذهب . فرأي " البابا " ومذهبه واضح معروف لديك ، أفتذهب لتقنعه ليغيِّر دينه ، أم ليقنعك أن تغيِّر أنت دينك ؟! نعم ! ما فائدة الحوار بين الأديان ؟! ولكن الدعوة الصادقة والبلاغ الأمين فرضٌ واجبٌ !

ولما كان اليهود والنصارى قد حرّفوا رسالة أنبيائهم ، فخرجوا بذلك عن الدين الواحد للأنبياء والرسل جميعهم ، سماهم الله " أهل الكتاب " إقراراً بأن الله أنزل على إبراهيم الصحف ، وعلى موسى التوراة ، وعلى عيسى الإنجيل ، من عند الله رسالات متعدّدة لدين واحد هو الإسلام ، دين جميع الرسل والأنبياء .

هذا ما نصّ عليه القرآن الكريم والسنة في سور متعددة ، وآيات متعددة ، وأحاديث واضحة ، نصّاً صريحاً بيّناً لا خلاف فيه ولا تحتمل التأويل . وإذا كان هناك اختلاف فهو في الرسالات من حيث بعض التشريع ، فقد كان كلُّ نبيٍّ يُرْسَل إلى قومه خاصّة ، يبلّغهم دين الإسلام ، دين التوحيد الواحد ، ويضع لهم من التشريع ما يحتاجه كل قوم . ولما جاء النبيّ الخاتم بمثل ما أتى به الأنبياء والرسل من الدين والتوحيد ، مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، جُمِعَ له التشريع كله تشريعاً ربّانيّاً واحداً للبشريّة كلها إلى يوم القيامة ! تشريعاً كاملاً وتامّاً وكافياً !

لا بد من تثبيت هذا المفهوم في قلوب المسلمين وفي قلب كل مسلم ، ليعي المسلم حقيقة دينه ومداه ومستواه ، فلا يأخذه الضعف أو الجهل إلى أن يلهث وراء العلمانيّة والديمقراطية والحداثة ، حتى يَعيا ويسقط دون أن يكسب الدنيا ولا الآخرة ، ولا رضا أهل الديمقراطية إلا رضا استدراج مؤقت ، ولا رضا الله !

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : (**مثلي في النبيين كمثل رجلٍ بنى داراً ، فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ، ويعجبون منه ، ويقولون : لو تمَّ موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة**) [أخرجه أحمد والشيخان والترمذي](1)

فالدين ، من حيث الواقع والحقيقة ، والعقل ، هو الحقيقة الكاملة لهذا الكون كلِّه ، مشهده وغيبه ، دنياه وآخرته ، خلقه كله ، خالقُه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشَهادةَ ، خالق كل شيَء ، له المُلك كله ، وله الأمر كله وله الحمد كله . من هنا يُصبح الدِّين رسالةَ الأنبياء والرُّسل على مرِّ الزمن ، خُتموا كلُّهم بالنبيّ الخاتم محمّد ﷺ ، وخُتمت الرسالات بالكتاب والسنّة كما جاءا باللغة العربية ، ليكون كتابُ الله منهج حياة كامل تام للإنسان ، للبشرية .

ومن خلال هذا المنهج الرَّباني الكامل يبيّن الله لعباده كلِّهم مهمّة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، المهمّة التي خلقه الله للوفاء بها ، ولتكون جزءاً رئيساً من هذا الدين العظيم ، ليعرف كلُّ إنسان أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه ، وهو الذي كلَّفه بمُهمَّة عظيمة يقوم بها في الدنيا من خلال ابتلاء وتمحيص ، ومن خلال عهد وميثاق ، فتكون الطَّريق أمام الإنسان في هذه الحياة الدَّنيا مشرقةً جليّةً، يمضي المؤمنون بذلك على صراط مستقيم واحد ، ممتدٍّ إلى الدار الآخرة .

لذلك يعيش المؤمن في هذه الحياة الدنيا مطمئنّاً راضياً ، واعياً لمهمته وتكاليفه

---

(1) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم : ٥٨٥٧ .

الربَّانيَّة التي سيحاسَب عليها يوم القيامة بين يدي الله ، يوم يضع الموازين القسط فلا تظلم نفسٌ شيئاً ، ثمَّ يمضي الإنسان إما إلى جنَّة أو إلى نار .

هذا هو الدين الحق الذي يبيّن للإنسان كلَّ ما يحتاجه حتى ينجو من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة .

نعم ! هذا هو الدين الذي جعله الله رحمةً منه لعباده ، وفضلاً منه عليهم ، وهدى ونوراً . فلا تجد فيه تناقضاً بل تماسكاً ، وتجده ميسَّراً للذكر لمن ملك بفضل الله مفتاحين يفتحان له كتاب الله بإذن الله وبهدايته . هذان المفتاحان هما : **إتقان اللغة العربية وصفاء الإيمان وصدقه** . (١) فإذا توافرا عند أي إنسان فإنَّ كتاب الله تعالى يُفتح له بهداية من الله . ولهذين المفتاحين آيات وأحاديث تدل عليهما وتبين أثرهما في تيسير القرآن للذكر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٢]

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤]

فلا يُعقل أبداً أن يكون الدين طقوساً تؤدَّى على صورة ما ، تنفصل بعد ذلك عن واقع الحياة الدنيا وأحداثها وميادينها ، ثمَّ يصبح الإنسان بعد هذا الانفصال هو الذي يقرر، يعبد العقل حيناً ، أو ما يسمّيه عقلاً ، أو يعبد الأهواء والشهوات ، أو يعبد المصالح المتضاربة المتنافسة ، أو يعبد الأوثان وما يوحي به شياطين الإنس والجن .

هذا هو الدين ! منهج حياة متكامل ، يصل الدنيا بالآخرة ، ليصبح عمل المؤمن الصادق كلُّه عبادةً صادقةً لله ، أكلُه وشربُه وسعيُه ، وجهادُه ، ورضاه

---

(١) يراجع : كتاب : " حتى نتدبَّر منهاج الله " للكاتب.

وغضبُه ، وحبُّه وكراهيتُه ، وعلمُه ، وعملُه ، كلُّه عبادةً خالصةً لله إذا صدقتْ النيَّة لله ، وإذا خضع العمل كلّه لشرع الله ، شرطان لا يُغني أحدهما عن الآخر ، شرطان يجب أن يعملا معاً في وقت واحد .

هذا هو الدين ! نجاةٌ في الدنيا والآخرة . بدونه يصبح الناسُ وُحُوشاً ، يفتك بعضهم ببعض ، ويهلك بعضهم بعضاً . لا تقوم بينهم عدالة ولا أمانة ، ولا حُرِّيَّة ولا مساواة ، إلا من حيث الشعارات يطلقها المجرمون الوحوش ، ليزيّنوا بها باطلهم ، وليفتحوا بها ثروات الأمم لينهبوها ، وليستأثر المجرمون الوحوش بخيراتها ، ويَدَعُوا الناس فقراء عالة عليهم !

هذا هو الدين الحق ، دين الله ، دين الإسلام ، الدين الذي يقيم الحقَّ في الأرض بين الناس ، ويقيم العدل الصادق الأمين ، ويقيم الحريَّة المنضبطة لتوفّر الحريّة المنضبطة ، لتحقّق المساواة العادلة بين الناس .

وبغير هذا الدين الحق لا تقوم عدالة أبداً ، ولا حريّة ، ولا مساواة ، فهذا كلّه يقيمه شرع الله .

كثير من الناس غاب عنهم التصوّر السليم للدين ، ولمهمته في الحياة ، فاضطربت تصوّرات الناس ، أو بعض الناس اضطراباً واسعاً . فمنهم من جعل من الدين ومن معنى العبادة الطقوس والشعائر فقط . ومنهم من نادى بعزل الدين عن السياسة والحكم ، أو عزل السياسة والحكم عن الدين . ومثل هذه التصوُّرات ابتدأت في الغرب على أثر اصطدام النصرانية بالوثنية ، ثمَّ اصطدام الكنيسة برجال العلم وبالدولة والحكام ، ثمَّ أخذت تمتدُّ إلى العالم الإسلامي بين المسلمين، حين انتشر الجهلُ بالكتاب والسنَّة واللغة العربيَّة ، وقويت دعاية الغرب وغزوه الفكري والعسكري .

ومن أهمِّ التصوّرات الدينية التي غابت عن الناس معرفة الإنسان لمهمته في الحياة الدنيا ، وللتكاليف الربّانيّة التي أمره الله بالوفاء بها ، والتي سيحاسَب

عليها بين يدي الله يوم القيامة . نسي الناس هذه المهمة الحقيقية ولهثوا وراء مصالحهم الدنيوية حتى يوافيهم الأجل وهم لم يوفوا بعهدهم مع الله ولا بالأمانة ولا بالعبادة ولا بحق الخلافة في الأرض .

وإذا كان القرآن الكريم قد أوجز مهمة الإنسان التي خلقه الله للوفاء بها في الحياة الدنيا بمصطلحات أربع : **العبادة والأمانة والخلافة والعمارة** ، فإنه مع هذا الإيجاز فصَّل المهمّة تفصيلاً كاملاً ، ثمَّ جمعت المهمة كلها في نشر دين الله في الأرض ، ودعوة الناس كافَّة إليه ، حتى تكون كلمة الله هي العليا وشرعه هو الأعلى . ومن أجل تحقيق ذلك شرع الله القواعد والوسائل والأساليب وفصّلها حتى يتيسَّر للإنسان الوفاء .

فمعرفة الدين وفهمه ، وفهم تصوُّراته كاملةً سليمةً من مصدره الحق ـ المنهاج الربَّاني ـ ، أمرٌ أساسيٌّ في حياة الإنسان . وبغير هذا الفهم والعلم والالتزام يهلك الإنسان .

إنها مهمّة الإنسان المؤمن ، الإنسان الداعية الصادق ، أن يوفي بالأمانة بالتبليغ والتعهد وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ومن الهلاك إلى النجاة . وإن أي امتداد للفتنة وسوء فهم هذا الدين ، يحمل المسلمون مسؤوليّته عن ذلك ، ويحمل الدعاة والعلماء مسؤولية أكبر .

إنَّ البلاغ والبيان ، والتعهد والبناء ، والقوة والإعداد ، مهمة كبيرة والتقصير بها إثم كبير ، فلا يُشْغَلَنَّ الدعاة عنها بزخارف الدنيا وزينتها ، فَيَهْلَكُوا ويُهْلكُوا . إنَّ هذا الدين هو الحياة ، هو النور ، هو الهدى :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

(٢)

" لا إكراه في الدِّين "

" **لا إكراه في الدين** " مبدأ عظيم في الإسلام ، لأن الله لا يقبل من عبد إيماناً غير نابع من قلبه ويقينه ، قال الله تعالى :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧]

وقال تعالى : **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾** .

إنَّ قضيّة الإيمان والتوحيد هي أول قضية تستحق أن يموت المسلم من أجلها ، وجميع القضايا الأخرى يحلّ القتال من أجلها لتكون تلك القضايا نصرة للإيمان والتوحيد في الأرض .

ولكن هذا لا يعني أن من آمن ومن كفر سواء . ولا يعني أن يبقى الأمر متفلّتاً ، ويُترك الناسُ على حالهم ، ثمّ يرضى المسلمون بذلك ، ثمَّ يَدْعون إلى التعاون والتضامن مع واقع لا يرضى الله به ، ولا يقوم المسلمون بما أمرهم الله به من البلاغ ومحاولة تغيير الواقع بكل الوسائل الممكنة ، حتى إذا وجب القتال وأمكن قاتلوا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ويقيموا الصلاة**

ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله) [رواه الشيخان عن ابن عمر والنسائي عن أبي بكرة وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة]

وهذا حديث متواتر ، وكذلك رواه الشيخان رواية أخرى عن أبي هريرة .

وإن الناس لتقاتل اليوم من أجل عرض من الدنيا ، ولا يجدون في ذلك غضاضة ، ويمضي القتال دون دعوة إلى الله ورسوله ، ويسوّغ الناس هذا القتال. أمَّا القتال في الإسلام فهو امتداد للدعوة والبلاغ والبيان على ضوء الواقع بشروط مفصَّلة في الكتاب والسنَّة ، حتى يصبح القتال في مرحلة الدعوة ضرورة وحكمة تسوق الموعظة والعبرة للناس جميعاً ، وفرضاً واجباً أمر به الله تعالى .

" **لا إكراه في الدين** " نعم ! حين تكون الدعوة إلى الله ورسوله ماضية جادة تبليغاً بكل الوسائل الممكنة المتوافرة . إنها تعني واجب القيام بالدعوة والبلاغ والبيان ، ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . . .** ﴾ ! وكيف يتبيَّن الرُّشد من الغيِّ للناس إلا بالدعوة الواضحة الجليَّة الحاسمة التي تكون فيها قضيَّة الإيمان والتوحيد كما جاءت في الكتاب والسنَّة هي القضيَّة الأولى ، وهي مدار الدعوة والبلاغ ، لا يُشغل عنها الدُّعاة ولا يُنْزلونها منزلةً أقلَّ من منزلتها الحقيقية ، ولا تغيب في طيَّات الشعارات والتنافس على الدنيا والشقاق والصِّراع .

إنَّ العلاقة مع الآخرين من غير المسلمين يجب أن تبتدئ بالدعوة الواضحة الجليَّة بأطيب الأساليب وأنجعها . إنها لا تبتدئ بالقتال ولا بالعداء ولا بالسباب والشتائم . ولكنها في الوقت نفسه لا تتوقَّف ولا تُماري تحت شعار التعارف والتضامن والمبادئ الإنسانيَّة والأخوَّة الإنسانيَّة التي يرفعها البعض لتكون مساوية لأخوَّة الإيمان .

" **لا إكراه في الدين** " ! نعم ! وعلى الإنسان نفسه أن يتخذ القرار حين يسمع الحق ، فيؤمن أو يكفر . إنها مسؤولية كلّ إنسان أن يتخذ قراره هذا ، ثمَّ

يتحمَّل مسؤولية قراره ونتائجه ، وهي مسؤولية عظيمة ونتائج خطيرة . ولنستمع إلى الآيات الكريمة تبيّن لنا النتائج الخطيرة لما يُتَّخذ من قرار :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾ [الكهف: ٢٩ - ٣١]

هذه هي القاعدة الربَّانيَّة بوضوح وجلاء ودقّة : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴾ ! وعلى هذه القاعدة الربَّانيَّة تبنى سائر الخطوات والنتائج .

ثمَّ تأتي القاعدة الثانية : ﴿ ... فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ ! ليكون القرار ذاتيّاً ، نابعاً من الإنسان نفسه ، دون إكراه ! ثمَّ ليتحمَّل الإنسان نفسه نتائج قراره ، النتائج المختلفة في الحالتين ، حالة الكفر أو حالة الإيمان .

أما النتيجة في حالة الكفر :

﴿ ... إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... ﴾ !

والنتيجة في حالة الإيمان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ .. ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١]

وشتَّان بين النتيجتين . " **فلا إكراه في الدين** " لا تعني أن تتوقف الدعوة إلى الدين الحق ، ولا تعني التنازل عن أيٍّ جزء منه ، ولا تعني المراء أو المساومة أو الانحراف ، ولا تعني تبنّي الاشتراكية والديمقراطية والعلمانية والدعوة إليها .

إنها الدعوة الربَّانيَّة . إنَّها قول الحق والبلاغ الحق . إنَّها البيان الفاصل الحاسم الجليّ ، لا يُرافقه تردّد ولا وهن .

وهذا واضح بأنَّ الإسلام لا يرضى بالكفر ولا الشرك ولا الانحراف عن الصَّراط المستقيم ، مما يمكن أن يكون واقعاً في الحياة :

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ ﴾ [الزمر: ٧]

وتتوالى الآيات والأحاديث تؤكد هذه القضيَّة العظيمة التي هي أخطر قضية في الكون وفي حياة الناس كافَّة . وجعل الله للكافر نتيجة وللمؤمن نتيجة ، وجعل الإنسان يتحمَّل مسؤوليّة قراره ، وتمضي عليه سنن الله وقضاؤه وقدره في الدنيا والآخرة .

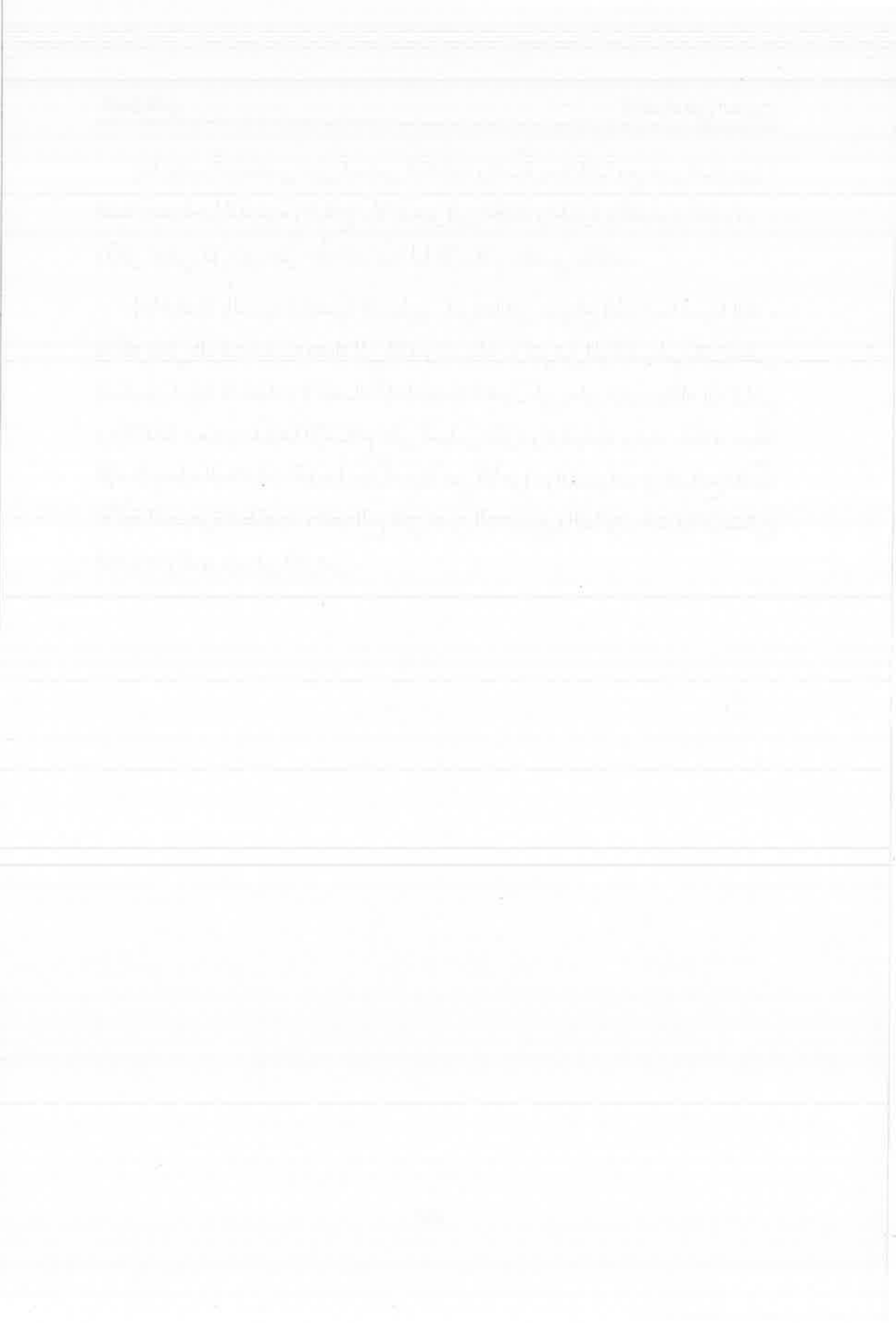
وحين نكون دعاة فإننا نبلّغ رسالة الله ، ولا نبلّغ أهواءنا ورغباتنا ومصالحنا . إننا ندعو الناس إلى الإيمان الصادق والتوحيد الصافي حين نكون دعاةً . فإذا لم نفعل ذلك ، وخضنا مع النَّاس في كلِّ مشكلات الدنيا إلا قضيّة الإيمان والتوحيد ، فعلى أيّ أساس نكون دعاة ؟! كيف نكون دعاة إلى الله ورسوله ، كما يأمرنا الله ورسوله ، حين نملأ نوادينا وساحاتنا بالدعوة إلى الديمقراطية حيناً والاشتراكية حيناً آخر ، وإلى العلمانيَّة حيناً آخر ، ويصبح الإسلام شعاراً يُغلِّفُ هذه الدعوات ؟!

وحين نكون قضاةً فإننا نردُّ ما نجابه من أحداث إلى منهاج الله ، نردُّ الواقع وأحداثه إلى منهاج الله ، كلٌّ في حدود وسعه ومسؤوليته ، ردّاً أميناً قائماً على صدق الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، وصدق العلم بالواقع من خلال منهاج الله ، فنقضي عندئذ ، كلٌّ في حدود وسعه ومسؤوليته ، بما يعترضنا من أحداث ، ولا نقضي على أساس الهوى والمصالح الدنيوية مغلّفين ذلك كله بشعارات الإسلام .

إننا يجب أن نحكم على الاشتراكية كما يقدمها أهلها ، والعلمانية كما يقدمها أهلها ، وغير ذلك من المذاهب ، على أساس من الكتاب والسنَّة .

إننا يجب أن نقضي على أساس الكتاب والسنَّة بعلاقاتنا مع غير المسلمين ، قضاء مصاحباً للدعوة والبلاغ . لا ندعو إلى الحقد والجفوة والظلم والعدوان . ولكن نعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه كما بيّنه لنا الإسلام ونقضي بذلك .

إننا قضاة بالنسبة لقضيّة فلسطين . لنردَّها إلى منهاج الله كما أمرنا الله ، ولنكون في الوقت نفسه دعاة إلى الله ورسوله . وكم من المواقف لم يكن بعض المسلمين فيها لا دعاة ولا قضاة ! إننا قضاة لنقول لمن يعلن كفره بالله إنه كافر وعلاقتنا معه يحدِّدها الإسلام على أساس فكره وعقيدته ودينه . فقد حدَّد الإسلام هذه العلاقات تحديداً ربَّانيّاً بعيداً عن الأهواء والشهوات والمصالح الماديَّة الآنيَّة المسيطرة الطاغية ، المصالح التي تسنُّ التشريع والقانون لحماية مصالح العدوان والمجرمين في الأرض .



(٣)

الديمقراطيـة
وبعـض آثـارها في الواقـع الإسلامـي

نستطيع أن نوجز بعض المعلومات الرئيسة عن الديمقراطية للتذكير والتثبيت، كما يلي :

١ - نشأتْ هذه الفكرة والمصطلح في أَرض الوثنية اليونانيّة ، حيث لا تؤمن بالله الواحد الأحد الذي له ملك السموات والأرض ، خالق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، له الحكم والأمر ، فجعلت الحكم للشعب حكماً مطلقاً يُحلُّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء ويقضي بما يشاء ، صورة وثنيّة مغرقة بالوثنية ، امتدت إلى روما .

٢ - ومع اصطدام الوثنية بالنصرانية الوافدة إلى الإمبراطورية الرومانية ، انتهى الصدام بتنازل النصرانية عن بعض أسسها ، وبتفاهمها من خلال التنازل مع بعض الأباطرة الرومان ، مما أدى إلى ظهور العقيدة الثالوثية ، واختفاء التصور التوحيدي الذي جاء به عيسى عليه السلام ، وقيام الكنيسة الكاثوليكية [١].

٣ - دخلت النصرانية الجديدة في صراع مع السلطة الزمنية ومع العلماء والعلم ، واستمرَّ هذا الصراع حتى هزِمت الكنيسة الكاثوليكية ، وظهرت العلمانيّة كردّ فعل للتسلط الكنسي ، رافضة التصور الدينيّ ، والدين كلّه ، لتعزله في الكنائس وتستغله كلما احتاجت إليه السلطة القائمة . فظهرت العلمانية .

٤ - من خلال هذا التصوّر العلماني للحياة ، ومن خلال النشاط الرأسمالي المبني على العلمانيّة ، صاغت الرأسمالية الأوروبية ، ثم الأمريكية نظاماً يؤمن مصلحة الطبقة الرأسمالية ، ويقدّم بعض المصالح للشعوب بالقدر الكافي

(١) يراجع كتاب : " المسلمون بين العلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية " للمؤلف .

لتخديره وخضُوعه ، ويتبنّى العلمانية وما ينبع عنها من تصورات ، ليكون هذا كله أساس الانطلاق الصناعي والعلمي وتطوره ، مما وفّر للديمقراطية قوة وسلاحاً وزخرفاً يُخدِّر الناس ويُنسيهم جوهر **الإيمان والدار الآخرة !**

٥ - انطلقت الديمقراطية في الأرض تنشر الحروب والفتنة والفساد ، وتصطدم مع الشيوعية التي ظهرت ردَّ فعْلٍ للرأسمالية .

٦ - أباحت الديمقراطية كلَّ ما حرَّم الله : أحلّت الزنا واللواط والخمر ، وأطلقت الحرّية الفردية المتفلتة ، وعزلت فكرة " الدين " عن الدولة والحياة وتمسكت بالعلمانيّة ديناً لها ، ولكنها ظلَّت تستغلُّ النصرانيّة واليهودية كلَّما احتاجتهما لمصالحها المادية الدنيوية .

٧ - بذلك كله فارقت الديمقراطية الإسلام مفارقةً كاملةً دون أن تجهر بذلك، ولكن تحاربه بوسائل مختلفة : فكريّة وعسكرية واقتصادية وإعلامية ، وتستعين بعدد غير قليل ممَّن فُتِنُوا من المنتسبين إلى الإسلام ، أو ممن ضعفوا وهانوا وأرادوا الدنيا !

٨ - الانتخابات ، كما نراها اليوم ، وكما تحدثنا عنها سابقاً ، وسيلة من وسائل الديمقراطية يرفضها الإسلام شكلاً ومضموناً ، دون أن يُنكر حق الأمة باختيار إمامها بأسلوب يَبْنيه المسلمون ، لتتوافر فيه الأسس الشرعية المقررة في الإسلام ، على ضوءَ الكتاب والسنة ، وقد عرضنا بعض تلك الأسس في الصفحات السابقة .

٩ - من خلال ما سبق نرى :

- أن الديمقراطية نظام بشري ، وأن الإسلام منهج رباني .
- أن الديمقراطية نظام جزئي ، وأن الإسلام منهج متكامل تام .

وخلاصة ذلك أن الخلاف الرئيس والفرق الأكبر بين الإسلام والديمقراطية

هو في النظرة للكون والحياة . ففي الإسلام تكون النظرة ربّانية ممن خلق الكون كله ، وخلق الإنسان وخلق الحياة ، وفي الديمقراطية تكون النظرة بَشريّة علمانية قاصرة مناقضة للإسلام ، لا تبني مواقفها وسياستها في جميع الميادين على الإيمان بالله واليوم الآخر .

ويأتي السؤال الذي نوجهه لدعاة الديمقراطية من المسلمين :

أين نجد الديمقراطية في الأرض ، في حياة أيّ فرد أو أسرة أو جماعة أو أمة ؟! لماذا لا يجاهد المسلمون لإقامة الإسلام كما أُنزل على محمد ﷺ بدلاً من أن يكافحوا من أجل إقامة الديمقراطية وإحلالها محلّ الإسلام ؟! أم أنها محاولة لتكوين خليط من نهجين لا يلتقيان : الديمقراطية العلمانية والإسلام :

نهجان قد ميّز الرحمن بينهما ... نهج الضلال ونهج الحقِّ والرشدِ

لا يجمع الله نهج المؤمنين على ... نهج الفساد ولا صدقاً على فَنَدِ

لقد حاول بعض المسلمين خلال القرن الماضي والحالي أسلمة كل فكرة غير إسلامية : الاشتراكية ، الحداثة ، الديمقراطية ، العلمانية ، مساواة المرأة بالرجل أو الرجل بالمرأة ، وغير ذلك ! ولكنهم فشلوا في جميع هذه المحاولات ، لأن الأصلَ أسلمةُ الإنسانِ وقلبِه ، فعندئذٍ يسلم فكره .

ألم يكن الإسلام بنظرهم كافياً لمعالجة المشكلات القائمة ، وطرح الحلول الإسلامية ، بدلاً من إعلان الشعار : " **الإسلام هو الحل** " ، ثمَّ نطرح في الناحية العملية الديمقراطية هي الحل ، والاشتراكية هي الحل ، والحداثة هي الحل ؟! لماذا لم يستطيعوا توحيد الشعار والتطبيق ؟!

شهدت منطقة الشرق الأوسط خاصة والعالم الإسلامي عامة تطورات واسعة ، منها ما كان متوقعاً ومنها ما حسبه الناس مفاجئاً . إن الأحداث والتطورات تمتد من أرض فلسطين إلى العراق ، إلى أفغانستان ، إلى باكستان ، إلى سوريا ولبنان ، إلى مناطق أخرى كثيرة من العالم الإسلامي ، من العالم كله !

أول ظاهرة نودُّ إبرازها هي إقبال أكثر من دولة عربية أو إسلاميَّة على فتح باب التعامل المباشر مع إسرائيل ، أو التلميح بذلك ، أو التهيئة إليه . وكأنَّما تولَّدت بذلك قناعة لدى الكثيرين ، أو كان هناك إيحاء بالتلميح أو التصريح بذلك . فمن كان وراء هذا التلميح والتصريح والقناعة ؟! وكيف أمكن تحويل النفوس والقلوب عن كل المبادئ والقيم والشعارات التي ملأت أجواء المنطقة عشرات السنين منذ القرن الماضي وإلى أشهر أو سنة قبل اليوم ، الشعارات التي دَفَعَتْ الجماهير في مظاهرات صاخبة مدويَّة بُحَّت فيها الحناجر ؟! كيف اختفت هذه المظاهرات والحناجر والشعارات ؟! من كان وراءها ؟! ومن كان يطلقها ؟!

وكيف يمكن المواءمة بين الاتجاه الجديد نحو إسرائيل ، والشعارات المتناقضة في أرض فلسطين ؟! فما هي المسرحية الجديدة ؟! ومن يقوم على إخراجها ؟!

لم يكن هذا التحوّل فجائياً ، وإنما مرَّ على مراحل مدروسة تخطط لها عقول وأياد عدَّةٌ ، وأجهزة تتوافر لديها إمكانيات فنّية وعلميَّة وعسكرية ، ومضت هذه القوىَ تعمل ليل نهار على نهج مدروس ، والمسلمون بين غافلين أو تائهين أو مستْدرجين .

لم يبق أحد على شعاراته . سَكَتتْ الشعارات ، أو أُطْلقتْ شعاراتٌ جديدة يتخفَّى وراءها الكثيرون ، ويحاولون أن يسوِّغوا هزيمتهَم بمنطق غير مستقيم خلاصته : " **من التحرير إلى التمرير !** " .

وقد أصبح من المعتاد أن ترى لدى الجماعة الواحدة **نوعين من الشعارات أو التصريحات : نوع يوجّه للجماهير لكسب تأييدها الانتخابي ، ونوع لمن يُراد التَّعامل معهم أو من بيدهم زمام القضيَّة !**

منذ البداية ، منذ اللحظة الأولى ، كان واضحاً أننا لم نستعدَّ لأيِّ معركة ، ولم نحاول الاستعداد إلا بالضجيج والاضطراب . ونزل الميدان أفواج ينقصهم أمران : الإعداد والعُدَّة ، والنهج والخطة ، فانحصرت الأهداف في ضجيج الشعارات .

وارتجال الخطوات وتمزّق الجبهات ، أمام قوى أكملت إعدادها وعدَّتها ، وأحكمت خُطتها إلا أن يشاء الله فيحبطها . ولكن الأمر العجيب لا ينحصر في من نزل الميدان وأطلق الشعارات ، ولكن في الأمة كلها ! ذلك أنك لم تجد أحداً سأل هذا أو ذاك وقال : عرفنا شعارك ، فما هي خطتك ودربك لتحقيق الشعار ؟! لم يسأل أحد هذا السؤال أبداً ، مضت الشّعوبُ والأمة كلها تقودها الشعارات غير واعية للدرب الذي تسير فيه ، الدرب الذي لم ترسمه الأمة ! فما هي النتيجة التي تُنْتَظر إذن ؟! اختفت الشعارات وظهر أنها كانت في اتجاه وأن الجهود كلها كانت في اتجاه آخر .

منذ الخمسينيات من القرن الماضي أُطلقتْ شعارات ، فأقبل عليها الكثيرون، وأقبل عليها المسلمون . أُطلق شعار الاشتراكية فتنادى الدعاةُ وتلقَّفوا الشعار وخلطوه بالإسلام ، وقالوا الاشتراكيَّة من الإسلام ، أو اشتراكية الإسلام ، ثم طُوي الشعار ، ونزل شعار الديمقراطية ، فتهافت الدعاة المسلمون عليه بصورة عجيبة منذ أواخر القرن الماضي .

كتب داعية كبير في صحيفة اللواء الأردنية مقالاً مسهباً بعنوان : " **نحن مع الديمقراطية بجميع معانيها وأبعادها** " ، وأقيم مؤتمر إسلامي دُعيتُ إليه بعنوان : " **حوار بين الشورى والديمقراطية** " ! ودار بعده حوار ونقاش وجدل تمسك فيه الدعاة بالديمقراطية ودافعوا عنها . وفي مؤتمر إسلامي آخر في استكهولم خصَّص داعية مسلم حديثه حول حاجتنا إلى الديمقراطية . وتوالت المقالات والندوات والمؤتمرات . وكلهم ينادون بالديمقراطية ، لأنهم يريدون الحريَّة والعدالة والمساواة . ويقول أحدهم في مقالة له في صحيفة الدستور الأردنية : إذا كانت الديمقراطية تعني العدالة ، فهذا من الإسلام ، وإذا كانت تعني كذا فهو من الإسلام ، وإذا كانت تعني كذا فهو من الإسلام ، فالديمقراطية إذن من الإسلام ! فلذا يجب أن نأخذ بها . وكان ردِّي على هؤلاء جميعاً : إنكم أنتم دعاة مسلمون عاهدتم الله على دعوة الناس إلى الإسلام وإلى دين الله بتكامله ، فلمَ تخليَّتم عن

ذلك ، وذهبتم تدعون إلى الديمقراطية ، والديمقراطية وراءها دول تدعو لها ؟! وكذلك إذا كانت الحرية والعدالة والمساواة موجودة في الإسلام ، فلمَ تعطون هذا الشرف زوراً وبهتاناً إلى الديمقراطية ، وتحجبونه عن الإسلام ، أم تقولون إن الإسلام لا يوجد فيه عدالة ولا حريَّة ولا مساواة ، فأعلنوا رأيكم ليعرفه الناس ويحاسبوكم عليه !

إذن لعبة الديمقراطية بدأت منذ زمن مبكر ، وامتدت إلى اليوم ! نطالع حوارات كثيرة في الفضائيات ، فأذهلني ما جاء في بعضها مما يقوله بعض الدعاة المسلمين أثناء الحوار عن " الوطنية " و " مصلحة الوطن " ، و " حقوق المواطن " ، دون أن يتطرَّقوا إلى الإسلام ، وإلى مبادئه ، وكيف يعالج هذه القضايا. الغرب يدعو إلى حقوق الإنسان بعامة ، ولو أن دعوته ظاهريَّة ، وإذا بنا ندعو إلى الوطنية وحقوق المواطن ! لماذا لم يقل الدعاة المسلمون إن الإسلام ، والإسلام وحده ، هو الذي قرَّر حقوق الإنسان ، وأعطى لكل فئة حقها ورعاه لها . ولن يجد الناس حقوقهم تصانُ وتُرْعى خارج الإسلام أبداً ، إلا " حقوق " التفلّت الجنسي وما يتبعه من فساد خلقي واقتصاديّ وسياسي . ثمَّ يطالبون بحقوق الإنسان كما قررها الإسلام ، لا بحقوق المواطن فقط .

لقد صاغ الإسلام جميع الروابط البشرية : من رحم ووطنية وإقليمية وصداقة وصحبة ، صياغة إيمانيَّة تنفي عنها العصبيات الجاهليَّة كلها ، لتبقى نقيَّة تجمع الناس ولا تمزّقهم ، وتساهم كلها في بناء الرابطة الرئيسة ، رابطة أخوّة الإيمان التي تربط المؤمنين أمة واحدة من دون الناس ، ولتصبح هذه الرابطة الإيمانية هي التي تحمل شريعة الإسلام لتطبِّقه في الواقع البشريّ ـ ولتعطي كلّ فئة حقوقها العادلة الأمينة ، وبذلك تحمي حقوق الإنسان في عدالة صادقة ، وحريّة أمينة، وغير ذلك ، على ميزان ربَّانيّ لا يظلم أبداً ، ولا يظلم أحداً .

ولكن العدوان ينشأ عندما يعتدي أحد على غيره ليأخذ حقوقاً لم يحلَّها الله له، أو يطالب بما لم يُجزْه الله له . أما إذا اطمأنت القلوب إلى ربها وخالقها ،

واطمأنت إلى عدالة شرعه ، فإنَّ الناس كلَّهم يتآلفون في أجواء العدالة والحرية التي رضوا بها نِعْمة من الله وفضلاً ورحمةً تربط حياتهم الدنيا بالآخرة !

أما الديمقراطية النابعة من الوثنية ، فإنها تجرِّد الإنسان من حقوقه الرئيسة، وتُلقي إليه بالفتات لتخدِّره بها ، فيسكن على خَدَرٍ ويهيجُ على فتن .

منذ زمن أصدرت كتاباً بعنوان : " **الشورى لا الديمقراطية** " ، ومن طريف ما ذكرت فيه قول أستاذ أزهري يقول في كتابه : " الشورى وأثرها في الديمقراطية " : " **.... إلا أننا ما زلنا نجد في عهد معاوية بقيّة من ذلك الإشعاع الديموقراطي الذي تركه الرسول ﷺ في أعماق النفوس** " ! لقد أصبح الرسول ﷺ في ميزان الانحراف لدى بعضهم داعية ديمقراطيّاً ، فأيُّ ضلال وتحريف وتشويه أشدَّ من ذلك ؟!

ولا عتب على الغرب أو أمريكا بالذات حين تدعو إلى الديمقراطية إلا من حيث إنها لا تطبِّق ما تدَّعيه ، أو حين تدعو إلى أيّ باطل آخر ، فذلك شأن الظالمين على مدى التاريخ . وإذا كانت الديمقراطية الغربية هي ما يفعلونه في فلسطين والعراق وأفغانستان ، وما سبق أن طبقوه في القرن التاسع عشر في الهند وشمال أفريقيا ووسطها وسائر المناطق التي احتلوها ، إذا كانت هذه هي الديمقراطية فويل للعالم كلِّه منها !

وما دمنا نتحدَّث عن الديمقراطية فلا بدَّ أن أشير إلى نقطتين :

الأولى : هي أن الديمقراطية بكامل مفاهيمها نَبَتَتْ في تربة الوثنيَّة اليونانيَّة، ونشأت وحملت معها إلى أوروبا غراس الوثنية التي تفتَّحت على العلمانية الحديثة . والإسلام نشأ في أرض النبوُّات والتوحيد ، في أرض الجزيرة العربية التي انطلق فيها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وتوالت الرسل والأنبياء يدعون إلى دين واحد هو الإسلام ، حتى خُتموا بمحمد ﷺ . وشتّان بين الغراس في تربة الوثنية وبين الغراس في تربة الإسلامَ والإيمان والتوحيد .

أما الثانية : فهي أن الديمقراطية صياغة عصابة من المجرمين في الأرض، من أصحاب رؤوس الأموال الذين عبدوا المصالح الماليَّة والماديَّة من دون الله ، وأصبحت تلك المصالح هي منطلق الفكر والقيم والإدارة والنظام . فصاغوا نظام الديمقراطية ليُخَدِّروا به الناس ، فيلقوا إليهم بالفتات ، ويَملؤوا هم جيوبهم بالثروات الهائلة ، ويتحكَّموا في مصير أكبر قطاع من الناس . فالمنزل يشترى بالتقسيط ، الزواج وتكاليفه بالتقسيط ، السيارة بالتقسيط ، وويل لمن يعجز عن سداد الأقساط أو يتخلف ، فقانون الديمقراطية يلاحقه . ويعمل ابن الديمقراطية من الصباح إلى المساء ، فلا يعود إلى بيته إلا منهكاً . وإذا جاء السبت والأحد قضى وقته في اللهو والخمر وحفلاتهما في ظلِّ الحريَّة التي تمنحها الديمقراطية ! فلا يجد الإنسان في ظلِّ الديمقراطية الوقت أو الفرصة ليُفكِّر في الموت والدار الآخرة، أو ليعدَّ نفسه لذلك ، حتى يفجأه الموت! ثمَّ يمضي إلى نتيجته وحسابه بين يدي الله . فمن يتحمّل مسؤولية إضلاله إن كان ضالاً ، ومن يتحمّل مسؤولية التقصير عن تبليغه دعوة الله ورسالته ؟!

أرأيت لو أنَّ رجلاً كان يمضي على طريق ، وأمامه ، إذا استمرَّ ، هوّةٌ عميقة فيها نار تلظَّى ! أكنت تترك هذا الرجل يمضي على هواه حتى يسقط في هذه الهوة ، أم تسرعُ إليه لتقنعه بالعدول عن هذا الدرب والعودة إلى درب فيه النجاة ؟! هكذا الديمقراطية تخدِّر الناس بالشعارات والفُتات ، وتتركهم هملاً في أمواج الفتن من خمور ومخدّرات ونساء ، وصراع على الدنيا ، وتنافس على شهواتها ، ثمَّ ليلقَوا مصيرهم بين يدي الله على موازين قسط ، وليسقطوا في الهُوَّة ولهيبها الذي يتلظّى ! أمَّا الإسلام فإنَّه يأمرك بأن تسرع لردعه وإنقاذه ، ليترك درب الضلال فلا يقع في الهُوّة التي تلظَّى ، وليعود إلى الصراط المستقيم !

العدوان يقع عندما يريد الإنسان أن يُشرِّع من عند نفسه شرائع يُطلقها ضعفه وجهله ، وغروره وأهواؤه ، مصالحهُ وشهواته . هنالك يقع العدوان على الإنسان حين يحرمونه من شريعة الله ، يفرضون عليه شرائع البشر .

طلعت الثورة الفرنسيَّة بشعارات جذَّابة : حريَّة ، إخاء ، مساواة! ولكنها أخفت بين شعاراتها أبشع الجرائم في فرنسا نفسها ، وحملت فرنسا سياسة الجرائم إلى خارجها حيثما احتلَّت بلاداً وأقطاراً ! فقتلت كلَّ معاني الحريَّة والأخوَّة والمساواة ، إلا حريَّة المخدِّرين !

هاهو التاريخ ، حيثما قلَّبته ، لوجدت هذه الحقائق من الجرائم الوحشيَّة حملتها الدول الغربيَّة كلها لتمتدَّ معها في الأرض كلها ، في بحرها وبرِّها وفضائها .

هذه حقائق مدويَّة في التاريخ لا يجهلها أبناء العالم الإسلامي الذين كانوا في كثير من الأحيان في العصور المتأخرة أكثر ضحايا هذه الجرائم ! فما الذي حدا بالمسلمين أن يهرع الكثيرون منهم إلى هذه الشعارات ناسين ما تُخْفي من مظالم وحشيّة ، يهرعون إليها ، يتلقَّفونها ثم يصبحون من دعاتها وجنودها ، تاركين مهمتهم الأولى ومسؤوليتهم الكبرى في حمل رسالة الله ودينه - دين الإسلام - إلى البشريَّة كلِّها ، ليبلّغوهم هذا الدين ويتعهدوهم عليه ، حتى تنشأ الأجيال المؤمنة الصادقة مع ربِّها ، أجيالاً بعد أجيال ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع ، ولا مشاغل المناصب وتنافُسِ الدنيا وزخارفها !

هذه المليارات من البشر ، المليارات التائهة في زحمة الحياة الدنيا ، تلهث وراء الدنيا وتنسى الموت والدار الآخرة ، وتنسى المهمَّة التي خُلِقتْ لأجلها ، لأجل الوفاء بها وتحقيقها في الحياة الدنيا ، هذه المليارات من البَشر من المسؤول عن جهلها لمهمتها ، ومسؤوليتها أمام الله ، ومصيرها في الدار الآخرة ؟!

إنَّ الكثيرين من المسلمين بعامة وبعض الدعاة منهم بخاصَّة نَسُوْا المهمَّة الرئيسة التي خلقهم الله لها ، للوفاء بها . المهمَّة التي أخذ الله عليها العهد من بني آدم ، والتي جعل القيام بها يتمُّ من خلال ابتلاء وتمحيص ! **مهمَّةٌ تقوم على عهد وتمضي من خلال ابتلاء وتمحيص ! إنَّها الخلافة في الأرض ، والأمانة ،**

والعبادة، والعمارة، إنها الدعوة إلى الله ورسوله دعوة ربَّانية منهجية تجمع المؤمنين الصادقين صفّاً واحداً، لحمل رسالة الله إلى عباده كما أُنزلت على محمد ﷺ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها.

إن الدعوة إلى الله ورسوله، هي دعوة الناس كافَّة، وتعهّدهم عليها تعهُّداً يبني الأجيال المؤمنة لتتدافع في الحياة البشريَّة، حتى تكون كلمة الله هي العليا! إنها مهمة عظيمة يتشرَّف الإنسان بحملها والوفاء بها، ويسعد الدعاةُ والمسلمون والناس بها. إنها الدعوة لإنقاذ الناس من مصير محتوم في الدار الآخرة إذا أدبروا عن دين الإسلام، دين الله، دين الرسل والأنبياء جميعهم، دين واحد.

ما بال بعض المسلمين اليوم، لم يكتفوا بالتفرُّغ للدعوة إلى الديمقراطية، والتهافت على ممارستها، بل أخذوا يغيّرون من بعض قواعد الإسلام، ويؤولون بعض الآيات والأحاديث، ليوائموا شعارات الديمقراطية، وليزيدوا الناس بذلك ضلالاً وفتنة!

يُسْأل أحد الدعاة: لو حكمتكم امرأة فما هو موقفكم؟! فأجاب: إذا انتخبها الشعب فنحن مع الشعب! وسُئِل لو حكمكم من هو على غير دين الإسلام؟! فأجاب: إذا الشعب اختاره فنحن مع الشعب! الوطنية، مصلحة الوطن المادية الآنية، الديمقراطية حلَّت محل مصطلحات الإسلام وتشريعه!

هل تغيَّر الإسلام ونزل وحيٌ جديد على الناس، أم أنَّ الناس تغيَّروا وأرادوا أن يغيَّروا الإسلام؟! ولكن الله سبق وأن تعهَّد بحفظ دينه، مهما فُتِنَ بعض الناس.

وفي الوقت الذي نلاحظ فيه تراخي بعض الدعاة عن صدق الالتزام بدينهم وبمسؤولياتهم، ووضع جهودهم الكبيرة في مواقع غير إسلامية، وتنازلاتهم المتتالية عن مواقف إيمانيَّة سابقة، وعن نصوص ثابتة ملزمة، ومضيّهم إلى اتجاهات يدفعهم إليها روح المساومات، في الوقت الذي تحدثُ فيه هذه الأمور،

نرى أن دولة إسرائيل خلال نصف قرن تقريباً ازدادت مساحتها عمَّا كان مقرَّراً لها في قرار التقسيم ، وازدادت صلاتها الخفيَّة والعلنيَّة في العالم الإسلامي ، وشاركت في إدارة المسرحيَّات فَي المنطقة بشكل يلفت النظر ، وحدث كذلك أنه مهما كان هنالك من انحرافات أو تنازلات عن حقوق أو عن شعارات في الساحة الإسلامية ، فإنَّ من الرأي العام من لم يهزّه ذلك ، أو لم يبال به ، وقد يندفع بعضهم وراء تلك الانحرافات !

وما زال بعض الإعلام يُدوِّي يُخْفي بعض الحقائق الرئيسة ، ويُغطِّي سقوطاً هنا وانحرافات هناك !

للمسلمين تجارب ليست قليلة مع الديمقراطية وانتخاباتها وبرلماناتها . لا أذكر أن هناك انتخابات جرت لم يعقبها تبادل الاتهامات بالتزوير . ولا أذكر أن هنالك انتخابات جرت لم تنكشف فيها فضائح يتبادل الفرقاء نشرها !

وكلَّما دخل المسلمون المجالس النيابية يحسبون أنهم سيغيرون المجتمع من خلال قبة المجلس ، فإذا هم يرون أن الانحرافات والفتنة تزداد سنة بعد سنة ، وأنهم لم يستطيعوا أن يرفعوا عن المجتمع فتنة واحدة ، مثل فتنة الخمر وتفلّت الجنس ، وتنافس الدنيا وشهواتها .

المجتمع لا يُصْلَحُ من خلال تلك المجالس ، ولكنه يصلح من خلال العمل المنهجي في قلب المجتمع . هناك يمكن بدء الإصلاح ، وهناك يمتدُّ وينمو ويتطور . المؤسسات الديمقراطية التي تحمل معظم المخالفات الشرعية كالبنوك الربوية ، والأنشطة النسوية ، وغيرها لا تستطيع أن تصلح المجتمع ولكن تستطيع تقديم التطور الماديّ لينعم به فريق ويُحرم منه فريق ، ولتنتشر الجرائم والفواحش ، والكذب وعوامل الخداع والتخدير .

في الإسلام هناك طريق واحد للإصلاح ولكنه يتسع لكل الجهود المنهجيَّة الصادقة . هذا الطريق هو طريق مدرسة النبوة الخاتمة التي تدعو إلى الله ورسوله

دعوة منهجيَّة مدروسة ، دعوة للناس كافة ، ثمَّ تتعهد من تدعوهم لتبني الأجيال المؤمنة الصادقة ، لتمتدَّ في حياة البشرية .

إن القوى المعادية للإسلام ما زالت تعمل من خلال نهج وتخطيط ، تتلمَّس آثاره في النتائج الخطيرة التي حقَّقوها في الواقع الإسلامي . ولا مجال هنا لعرض ذلك كله ، إلا أننا نشير إلى ما يُلْقونه بيننا حتى يشغلونا به إشغالاً كبيراً ، فننسى أهدافنا وشعاراتنا ، ونُسْتَدرج إلى خطوات ومواقف تُخْفي عيوبَها وخطرها بالشعارات والمسوّغات المنمَّقة ، وكُلَّما هبطنا أو تراجعنا تفتَّق الذهن عن شعارات ومسوِّغات جديدة ، وهكذا حتى تُسْتَهلكَ جهودنا فيما لا خير فيه ، وتمضي عشرات السنين بعد عشرات السنين ، والشعارات تتزاحم ، والخدر يزيد!

كلٌّ يقول أنا الذي فإذا الذي ليس الذي ! يا ويل من لم يعدلِ !

هنالك فرق كبير بين مناهج من يريد أن يثبت نفسه في الساحة وينصر نفسه ، وبين مناهج من يحمل دعوة ربَّانيَّة يريد أن يُبلِّغها للناس كافة ويتعهدهم عليها ، ويبني أجيالاً مؤمنة ربَّانيَّة تصدق الله في بذلها وتؤثر الآخرة على الدنيا ، لينصرَ الله ودين الله !

والحمد لله رب العالمين

(٤)
الانتخـــابـــات

الانتخابات التي تجرى اليوم هي أُسلوب من أَساليب الديمقراطية التي صاغتها الرأسمالية الحديثة ، والتي أصلها ومنبتها الوثَنيّة اليونانية . وهي في الوقت نفسه وليدةُ العلمانية .

لقد تحدَّثنا عن الديمقراطية في عدة كتب ومقالات [١] وتحدّثنا عن العلمانية في أكثر من كتاب ومقالات [٢] وتحدّثنا عن الانتخابات في كتاب : " **الشورى وممارستها الإيمانيّة** " وفي مقالات أيضاً .

الانتخابات من حيث إنها وسيلة لتعبير المسلم عن رأيه في ترشيح فلان أو فلان ، لهذا المجلس أو ذاك ، لا تُستنكر من حيث المبدأ . ولكنها تُستَنكر وتصبح حراماً بيّناً في الأسلوب الذي تتبعه الديمقراطية ، والأسلوب الذي نراه في واقعنا في بعض ديار الإسلام . وذلك للأسباب التالية :

أ - إنها تعتمد اعتماداً رئيساً على مبدأ تزكية النفس بصورة علنية واسعة ، بصورة منهيٍّ عنها في الإسلام ، وغالباً ما تكون هذه التزكية كاذبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾
[النساء: ٤٩]

وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : " أمرنا رسول ﷺ أن "**احثوا في وجوه المداحين التراب** " . والأحاديث الشريفة كثيرة في هذا الموضوع . ولكننا نود أن نبيّن معنى التزكية المنهي عنها . إنها التفاخر والاعتزاز وإعلان ذلك على الناس والتنافس فيه ، حيث لا مسوّغ لإعلانه ، ولا تقوم مصلحة شرعيّة أو إدارية في ذلك . أما ما يحتاجه المسلم عند رفع

---

(١) كتابا " الشورى لا الديمقراطية " ، " تقويم نظرية الحداثة " للمؤلف .
(٢) كتاب " المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية " للمؤلف .

تقرير عن عمله وكيف أدّاه ، مما هو مطلب إداريّ ، فهو واجب شرعي لمصلحة شرعية : إداريّة ، تربويّة ، وحماية للدائرة أو الدعوة ، ولإجراء دراسات إيمانيّة عن واقع محدّد . فلا يخلط المسلم بين هذا وذاك . ففي نطاق العمل الإداري يظل المسلم مطالباً بصفاء النيّة والتوجه إلى الله بعمله كله ، فلا يقع تناقض بين عمله ونيَّته ، ولا يقع مخالفة شرعيَّة ، إلا إذا فسدت النيَّة أو وقع الكذب والادعاء الباطل . أما في ميدان الانتخابات فهي تزكية باطلة بأسلوب باطل تفسد النيّة كلها لدى جميع من يتنافس فيها ، فالنيّة تكون عندئذ متجهة إلى الدنيا وزينتها والتنافس فيها والصراع عليها .

ب- إن التزكية ذاتها تستهلك أموالاً كبيرة للدعاية الشخصية ، حيث يكون ملايين المسلمين بحاجة إلى هذه الأموال ، ليسدوا جوعهم ، أو ليقضوا حاجاتهم الرئيسة المتعطلة ، أو لتبني الأمة قوتّها وتعد سلاحها ، كما أمرها الله ، أو ليُنْشئُوا المصانع ، ويبنوا المعاهد والرجال . فأصبح الحرام مضاعفاً : تزكيةٌ للنفَس محرّمة ، وإهدارُ أموال المسلمين في غير وجهه الشرعي . وانظر إلى الأموال التي تُقَدّمها شركات وأغنياء وأصحاب مصالح لهذا وذاك في أَجواء الانتخابات ، في تنافس غير مقبول في ميزان الإسلام، ومقبول في ميزان الديمقراطية .

ج- تبذل جهود كثيرة يُشْغَلُ بها الناس عن كثير من أمور دينهم ودنياهم ، وعما هو أولى بهذه الجهود . أموال تُهَدر وأوقاتٌ تهدر وجهود تُهدَر !

د- كثيراً ما يرافق تزكية النفس المحرّمة نشر فضائح الطرف الآخر ، مما حرّمه الله أيضاً . واذكروا كم نشر كلينتون من فضائح بوش ، وبوش من فضائح كلينتون . وانظروا في كل انتخابات كيف يُنقص كلٌّ طرف من قدر الطرف الأخر ، بأسلوب خفيٍّ أو غير مباشر ، أو بأسلَوب علنيّ .

ه- كثيراً ما يرافق أجواء الانتخابات شراء النفوس إما بالحفلات والمهرجانات والولائم التي تعتبر إنفاقاً حراماً على عمل حرام ، أو شراء النفوس بالرشاوي المباشرة ، حتى أصبحت عُرفاً سَيِّئاً في تاريخ الانتخابات . وربما مارس

بعضهم بعض التزوير واستغلال النفوذ والظروف في دعم فئة ضد فئة ، ويرتكب الكذب والقول الزور . وكم يدور في أجواء الانتخابات من نجوى مُحَرَّمة ، يقوم بها فريق ليُحصي عيوب خصمه ، وتبذل الجهود لوضع الخطط لإسقاط فلان وإنجاح فلان من خلال ما نسميه مؤامرات وتواطؤاً محرّماً ونجوى مُحَرَّمة .

و- كثيراً ما تكون الانتخابات الحالية ووسائلها مصدر تمزيق للصفوف وملء النفوس بالأحقاد . وقد يتحوّل هذا إلى صراع مكشوف واستخدام للسلاح ، وقد يقع قتلى وجرحى ! وقد يرافقها مظاهرات تُدوّي بها تعابير تزكية النفس ، وربما تحقير الآخرين ، وترفع الأعلام هنا وهناك ، دويٌّ وصخب تطيش بينها العقول والألباب !

ز- لا نجد أن أحداً عرض نهجاً أو خطة لمعالجة الأوضاع الظاهرة ، والتي يتسابق الفرقاء كلهم بالوعود إلى معالجتها بشعارات تطلق في الهواء وتصبح هواءً ، لا نهج فيها ولا خطةَ ولا علم . إنما هي شعارات تدغدغ العواطف وتزيّن الأهواء ، وتثير الصراع المحموم والتنافس المذموم . وتبقى المشكلات هي المشكلات يتوارثها جيل بعد جيل دون توافر أيِّ منهج أو حلٍّ ، ولكنْ تتزاحم الشعارات .

ح- وأهم من ذلك كله هو هدف الانتخابات ! ما هو هدفها ؟! هل هدفها إعلاء كلمة الله في الأرض ، وتطبيق شرع الله ودينه ؟! هل الانتخابات تُبْذَل من أجلها الأموال والجهود والأوقات لدخول مجالس ربّانية إيمانية، يتنافس الجميع فيها على التقوى ونصرة دين الله ؟! أم أنها جهود وأموال وأوقات تُنْصَر بها ديمقراطية الغرب ونفوذُها وجنودها الظاهرون والمخفيون ؟! أو أنها تُبذَل كلُّها لدخول مجالس يختلط فيها الحابل بالنابل : وطنيّة ، يسارية ، قومية ، شعبيّة ، وشعارات إسلامية ، تدخل في هذا الخليط أصابع خفيّة تعمل هنا وهناك ، لا تعرف ما وراءها ولا ما أمامها .

هل الانتخابات حركة تقوم لتنصر دين الله ، يتنافس الجميع على هذا الهدف ،

أم أنها حركة لشعارات متناقضة ، كلها لا تحمل نهجاً ولا خطة ، ولكن تحمل الضجيج والشعارات التي سرعان ما تختفي بعد انتهاء الانتخابات ، أو تتغيّر ، ثم تنطلق الفلسفات والمحاولات لتسويغ التنازلات وتغيير الشعارات .

عندما نريد أن نُحَكِّم الإسلام في أمر ما ، كالانتخابات ، يجب أن تكون الانتخابات إسلاميّة ربّانية نهجاً وأسلوباً وهدفاً ، وإذا لم تكن كذلك فلا حاجة إلى أن نُحَمِّلَ الأمور المخالفة للإسلام طلاءً من الإسلام ، بتأويل أو تحريف .

ط- إن الذين يُقْبلون على الانتخابات ليدلوا بأصواتهم لا يملكون غالباً ميزاناً إيمانياً ربانيّاً لَيزنوا به الناس ، ويدلوا بأصواتهم على أساسه . وتكون الحوافز غالباً عائلية أو إقليمية أو حزبيّة ، أو طلب دنيا ومنصب وسمعة ، أو السعي وراء مصالح ومكاسب دنيوية يخفيها أو يعلنها . وأما الأساس الإيماني فإنه يفرض على المسلم أن يكون واثقاً أن نيّته خالصة لله سبحانه وتعالى ، وأنه يختار فلاناً أو فلاناً لينصر دين الله في الأرض لتوافر خصائص الميزان الإيماني فيه ، بعد أن درسها واطمأن إلى توافرها ، واطمأن إلى صفاء نفسه . وإذا كانت النيَّة خالصة لله ، فإنَّ هذا يفرض أن يكون الهدف محدِّداً وأن يكون ربَّانيَّاً ، وأن يكون هناك نهج وخطة ربَّانيَّة توصل إلى الهدف ، وكذلك الوسائل والأساليب. فإذا لم يتحقّق هذا ، فكيف تكون النيَّة خالصة لله ؟!

ي- للمسلمين تجارب واسعة في الانتخابات البرلمانيّة ، دخلوها بحجة الإصلاح والتغيير . فكانت النتائج واضحة جليّة في معظم الحالات . لم يستطيعوا أن يُغيّروا من الواقع ، ولكن تغيّروا هم تحت تأثير الضغوط الكبيرة في المجتمعات ، حتى أصبح بعضهم يتبنّى ما كان يحرّمه ، ويرضى بما كان يرفضه ، ويُغيِّر من الشعارات بما يناسب كلَّ حال . ولقد كان من أبرز نتائج تجربة المسلمين بدخولهم المجالس النيابية على غير منهج واع ، أن تمت أحداث هامة دون أن يستطيع المسلمون معارضتها أو تغييرها . أبسط مثال

على ذلك تغيير نص الدستور : دين الدولة الإسلام إلى : أنَّ الإسلامَ أحدُ مصادر التشريع أو ما شابه ذلك . ويكفي هنا أن نشير إلى هذه الظاهرة دون ذكر أمثلة وأحداث ، فالواقع وأحداثه ظاهرة كثيرة .

ك- لتقريب الصورة إلى الأذهان نبيّن أولاً أنه يتعذّر على المسلمين أو غيرهم ، أن يغيّروا سياسة الدولة أو الواقع من خلال المجالس النيابية والتشريعية وأمثالها . وربما ينالون شيئاً بسيطاً حسب مقتضيات الواقع ، ولكنهم حين يدَّعون مثل هذا الادعاء ، فإنه ادعاء لا يقوم على أساس من دراسة واعية للواقع ولا من ردّ الأمور إلى منهاج الله . نستطيع أن نشبه الدولة وأنظمتها وأجهزتها ورجالها كدولاب يدور في الثانية ألف دورة . ومن جاء إلى هذا الدولاب فمثله كمثل مسمار التصق به ، فلا يستطيع إلا أن يدور معه كما يدور . والتجربة الواقعية العمليّة أثبتت صحة هذا الرأي .

ونخلص من ذلك كله إلى أنه إذا أراد المسلمون أن يمارسوا الانتخابات ، فلا بد أن تتوافر شروط رئيسَية ، وأنَ تُتَّخذ خطوات منهجية قبل ذلك . نوجز هذه كلها بنقاط :

أولاً : لابد أن يكون المسلمون أبناءَ مدرسة الإسلام ، مدرسة محمد ﷺ ، أبناء أمّة واحدة لا أبناء أحزاب تتصارع ، وعياً وإيماناً وعلماً والتزاماً ، وأن يكونوا ماضين في تبليغ دين الله كما أُنْزل على محمد ﷺ إلى الناس كافّة وتعهُّدهم عليه ، تبليغاً وتعهّداً منهَجياً ، يبني الجيل المؤمن الذي يمكن أن يُنزل الله نصره عليه ، وأن لا يعطّلهم عن هذا العمل شيء ، وأن لا تتحول الدعوة إلى جمع أنصار وحشود للمظاهرات والهتافات والانتخابات ، دون عمليّة البناء الذي تتميّز به مدرسة النبوّة الخاتمة .

ثانياً : أن يكون لهذه المدرسة ونشاطها نهج عام محدد ، ونظرية عامة شاملة ، ومناهج ونماذج ، وأهداف ، كل ذلك أن يكون مفصّلاً نابعاً من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ، ومن مدرسة النبوّة الخاتمة .

ثالثاً : أن يكون بين يدي كلّ مسلم " **ميزان المؤمن** " ، " **تقويم الداعية** " ، حتى يستطيع أن يختار على أسس ربانيّة يكون الولاء الأول والعهد الأول لله سبحانه وتعالى ، والحبُّ الأكبر لله ولرسوله ، ومن هذا الولاء الأول والعهد الأول ، والحبّ الأكبر تنبع كل موالاة وعهد وحبٍّ في الحياة الدنيا .

رابعاً : إذا أرادوا المشاركة هنا أو هناك، فلا بد أن يكون لهذه المشاركة نهج محدّد مفصّل ، وأهداف محدّدة مفصّلة ، كلّ ذلك مبنيّ على القواعد الثلاث السابقة. وأن تكون الأهداف من المشاركة حقيقيةً ربَّانيَّة قابلة للتحقيق ، لا يجوز التنازل عنها ولا المساومة عليها، وأن يكون الهدف الرئيس هو متابعة الدعوة والتبليغ والتعهّد والتزام منهاج الله .

خامساً : أن تحدَّد الوسائل والأساليب العملية المتوافرة التي توصل حقّاً إلى تلك الأهداف ، والدرب الحقيقي الذي يبلغ بها الأهداف .

سادساً : لا بد من التقويم والمحاسبة بعد كل فترة لمعرفة ما أُنجز وما يمكن إنجازه ، ولتقويم المسيرة كلها حتى تطمئن النفوس أنها وفيّة لرسالتها أمينة على أهدافها ، لا تسقط في حبال الزخارف وزينة الدنيا .

سابعاً : يجب أن لا تُعطِّل هذه المساهمةُ العملَ الرئيسَ للدعوة الإسلامية ومدرسة الإسلام ، العمل الدائب على تبليغ دين الله كما أُنْزِلَ على محمد ﷺ إلى الناس كافّة وتعهّدهم عليه ، وبناء الأجيالَ المؤمنة العاملة الصادقة التي تحمل الخصائص الإيمانيّة الربانيّة .

إننا نذكر هذه الشروط حتى يتبيّن للمسلم مدى خطورة الانزلاق إلى مواقع لا قدرة لهم فيها على متابعة مسؤوليّة الدعوة الإسلامية ومدرسة محمد ﷺ ، ولا قدرة لهم على حماية أنفسهم من خطر الفتنة والانزلاق إلى مواطنها .

إن حاجة المسلمين، وحاجة البشريّة، تتلخّص في تبليغ الدعوة، كما ذكرنا، وبناء الأجيال المؤمنة القادرة على حمل هذه الرسالة الربانيّة العظيمة بوفاء وأمانة. وإن الإخلال بهذا الأمر إخلالٌ بالدعوة الإسلامية كلها، وتعريض المسلمين إلى خطر حقيقي، قد يبدأ صَغيراً، ثم إذا هو ينمو ويكبر حتى يشلّ القوى ويفتن النفوس ويستسلم الكثيرون للفتنة والباطل، وينصرفون إلى تسويغ ذلك بتأويل فاسد للآيات والأحاديث، أو بحذف شيء وإخفاء شيء وتبديل هنا وهناك!

هذه أمور وقواعد لا غنىً عنها لمن يرجو نصرة دين الله وبلوغ رضاه والمضيَّ على الصراط المستقيم الذيَ أمر به الله، وبيّنه وفصّله!

إننا نرى في الواقع أن فترة الانتخابات فترة تطيش بها الرؤوس، وتطلق فيها الوعود والشعارات والأماني، دون أن يُطْرَح نهج تفصيلي يبيّن احتمال تحقيق الأهداف. وعندما لا تتوافر تلك الشروط الأربعة التي ذكرناها، ويخوض المسلمون الانتخابات، فإنهم سيضطرون إلى التنازل بعد التنازل، وتسويغ ذلك بفلسفات مضلّلة ليستروا الفشل والتنازل، ثمَّ لينشغلوا بقضايا جانبيَّة أو صراعات وتنافس على الدنيا.

إننا نلمس هذه الحقيقة في قضية فلسطين وغيرها. فجميع الذين انطلقوا من أجل فلسطين كان الشعار والهدف تحرير فلسطين. طرحوا شعاراً فحسب، ولم يُطْرح نهجٌ ولا خطّة توصل إلى الهدف المعلن. ومضت المسيرة، وإذا بالهدف الثابت يتغيّر ثم يحذف من الميثاق، ثم تدور المساومات والمفاوضات لإجراء مزيد من التنازلات تُخْفى وتُغطى بتصريحات مدويّة بالزخارف والزينة من شعارات " الوطنية "، و" مصلحة الشعب "، وغير ذلك، " وكلُّ شيء يحتاج إلى وقفة "، و" الهدنة الطويلة أو القصيرة "، و " التكتيك "، وبعد عشرات السنين لا نجد إلا مزيداً من الهزائم والهوان، ودويّاً من الشعارات، وبعض الشعارات يمكن تسويقها بين الفلسطينيين والعرب والمسلمين، ولكنها لا تقبل على الصعيد الدولي.

الساحة واضحة ! الجهود لم تمض على نهج رباني مفصّل واضح ، تصارع الجميع على الانتخابات ، لم يستفد أحد من هذا الصراع إلا العدّو ! استهلكت الجهود والأموال ، وشعار تحرير فلسطين طُويَ تحت شعار هدنة طويلة الأجلَ . إنه تنازل يُخْفي وجهه من الخجل والحياء والإفلاَس !

كل الذين نادوا بتحرير فلسطين من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب ، لم يكن لهم أي إمكانات لتحقيق الهدف ، وكانوا هم يدركون ذلك تمام الإدراك ، ويخفون في أنفسهم ما لا يبدونه ، ويبدون ما لا يستقيم مع الحقائق !

فلماذا تمَّ هذا ولمصلحة من ؟!

وهنا نعود ونذكّر بالقاعدة الكبيرة التي أعلناها مراراً :

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه المدروس وخطته المدروسة وأهدافه الواضحة ، وفريق ليس له نهج ولا خطة ولا إمكانات ، فإن الفريق الأول يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لمصلحته هو ، أي لمصلحة الفريق الأول !

ولقد استفادت إسرائيل من جميع الجهود التي جعلتها تصبُّ في مصلحتها ، ليعود أصحاب تلكَ الجهود يقيمون الأفراح والأعراس على وهم أو فتنةٍ أُلْقِيَتْ لهم لِيَتَلَهَّوا بها أو هوىً يُخَدَّرون به !

كل ذلك قد لا يؤثر في ظاهر الأمر على هؤلاء وهؤلاء ، ولكن المسلمين إذا تورّطوا في هذا الدرب الخاطئ ، وساهموا فيه ، فحسابهم عند الله العظيم ، ولَن تفيد عندئذ الشعارات المعلنة المدويَّة . وغير ذلك . فالله يعلم ما في الصدور، والله يعلم ما يُسرّون وما يعلنون .

لقد تبين من أحداث الواقع الكثيرة أنّ استدراج المسلمين لمواقف خاطئة كان سهلاً على بعض القوى . فتلك القوى لها أجهزتها الواسعة وعناصرها المتسللة التي تلبس لكل حال لبوسه ، والتي تستطيع أن تصوغ وسائلها وتبلغ غاياتها بقفازاتٍ ناعمة لا تترك بصماتهم عليها إلا لمن يهديه الله .

في هذا الواقع الذي نعيشه اليوم ، إذا أردنا حقّاً نصرة الله ورسوله ، ونصرة هذا الدين العظيم ، لتكون كلمة الله هي العليا في الأرض ، **فلا بدّ للدعوة الإسلامية في الأرض أن تكون دعوة واحدة تحمل الرسالة الربّانيّة بكل جلائها ونقائها وصفائها ، لا تبدّل ولا تغيّر ، ولا تنحرف ولا تتراجع . إنها دعوة ربّانية وجنودها ربانيون وأهدافهم ربّانية ، ودربهم ربّاني ، لا تتعاطى أساليب ميكيافيلي ولا التنازلات والمساومات ، ولا تُشغَل بما يلهي عن التكاليف الربانية.**

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤]

لابد للدعوة الإسلامية من المفاصلة والحسم ، وعرض الإسلام كما أُنزل والثبات عليه ! إن شعارات " الانفتاح " ، و" المساهمة " ، يجب أن لا تُعطِّل مبدَأ المفاصلة والحسم . فالدعوة الإسلامية منفتحة بطبيعتها لأنها تحمل رسالة ربانيّة لتبلغها للناس كافة ، فكيف لا تنفتح على الناس كلهم ، دون أن تتنازل أو تساوم على حق ؟!

لقد كانت هذه هي خُطة الدعوة الإسلامية منذ اللحظة الأولى وعلى مدى مسيرتها مع جميع الرسل والأنبياء ومن آمن بهم وتبعهم ، إلا الذين انحرفوا وحرّفوا . ولذلك كان من أوائل ما أُنزِل على محمد ﷺ " سورة الكافرين " ، فيها المفاصلة والحسم :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾
[الكافرون: ١ - ٦]

تكرار وتأكيد وحسم ومفاصلة : " **لكم دينكم ولي دين** " ! لتبقى قاعدة أساسيّة في تبليغ رسالة الله ، دون انحراف ولا تحريف ، ولا تنازل ولا مساومة .

يمكن للإنسان أن يساوم في ماله وتجارته الماديّة التي يملكها معرّضاً نفسه للربح

والخسارة ، أما دين الله فهو لله ، ونحن مستخلفون فيه ، على عهد ميثاق ، من خلال ابتلاء وتمحيص .

ولذلك نودّ أن نبيّن أنه يحرم في مثل هذه الأجواء دفع أموال الزكاة للانتخابات الديمقراطية في أجواء غير إيمانية ! فليتّق الله الذين يفتون بجواز دفعها للانتخابات التي نرى أنها حرام ، وأنها عمل ليس في سبيل الله ، ولا هو على الصراط المستقيم . والتجارب خلال قرابة قرن من الزمن كافية لإثبات ذلك .

ولا أدلَّ على هوان المسلمين وضعفهم وفساد الانتخابات من أنه يُدْعى آلاف من المراقبين غير المسلمين ليراقبوا الانتخابات ويوفّروا نزاهتها ، وليعطوا شهادتهم على تلك النزاهة ! فإذا كان المسلمون غير قادرين على توفير النزاهة ، وإذا كانت ممارستهم مطعوناً فيها ، وشهادتهم مطعوناً فيها ، فلماذا الانتخابات ولماذا الأعراس بعدها ؟!

(٥)
الوطنيّة والوحدة الوطنية

شعار امتدّ وانتشر بين المسلمين دون أن يلتفتوا إلى ما يحمله من مغالطات وتناقضات ، وما يدفعه من تخلٍّ تدريجيٍّ عن الإسلام . فالإسلام صاغ جميع العلاقات البشريّة صياغة إيمانيّة ربانيّة ، بعد أن جعلها في فطرة الإنسان ، نقيّة تطهّرت بهذه الصياغة الربانيّة من العصبيات الجاهلية . ولكن هذه الروابط البشريّة الطبيعية تحوّلت لدى كثير من المسلمين إلى عصبيات جاهليّة حرّمها الإسلام .

فصلة الرحم صلة كريمة أَمر الإسلام باحترامها ، ولكنها تحوّلت لدى الكثيرين إلى عصبيّة عائليّة جاهليّة فارقت الإسلام وشروطه وخصائصه . وكذلك الصداقة ، أو الأخوة في الله تحوّلت إلى صورة من العصبيات الحزبيّة التي أفقدت الأخوة معناها الإيماني الرباني . والوطنيّة فارقت كذلك ما رسمه لها الإسلام لتبقى محافظة على صلة الرحم وقوام الأسرة والأخوة الصادقة في الله ، وحماية الوطن ورعايته بتطبيق الإسلام فيه وإعلاء كلمة الله فيه ، وتحوّلت إلى صورة من العصبيات الجاهلية تجمع أبناء الوطن على اختلاف مذاهبهم الفكرية من علمانيّة وغيرها ، وتبني لهم الحقوق والواجبات والعلاقات خلافاً لما يقرِّره الإسلام من علاقات وحقوق وواجبات لكل فئة في المجتمع . إنها تجمع مذاهب فكرية تخالف الإسلام جهاراً ، أو تحاربه مكراً وكيداً وشراً .

إن من أهم مسؤوليات المسلم أن يجاهد نفسه حتى يصفو إيمانه بالله ، وحتى يُنقّى من أيِّ عصبيّة جاهلية : عائلية أو وطنية أو قومية أو حزبيّة أو غير ذلك ، حتى تستقيم نفسه على نقاء التصور الإيماني ، وحتى تستقيم نفس من يدعوهم ويتعهدهم على الإسلام .

إنّ هذه القضيّة هي من أخطر قضايا الإيمان والتوحيد والإسلام كله . وكفى بالعصبيات الجاهلية شراً أنها تمزّق الأمة وتوهن قواها ، وتنشر الفتن وتفسد الفكر وتقرّب إلى الشرك .

إن الله يدعو الناس إلى الإيمان ، ليكون المؤمنون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، تتحقق في لقائهم ووحدتهم معاني الإسلام كلها ، وليكونوا بذلك أمة واحدة تحمل رسالة الله إلى الناس كافّة كما أُنْزلت على محمد ﷺ ، لتظلّ تجاهد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العلياَ في الأرض . إنها المهمّةُ التي خلق الله الإنسان ليوفي بها في الحياة الدنيا ، ليُحقِّقَ بها معاني الخلافة والعبادة والأمانة والعمارة في الأرض . وهي المهمة التي سيحاسَب الناس عنها يوم القيامة !

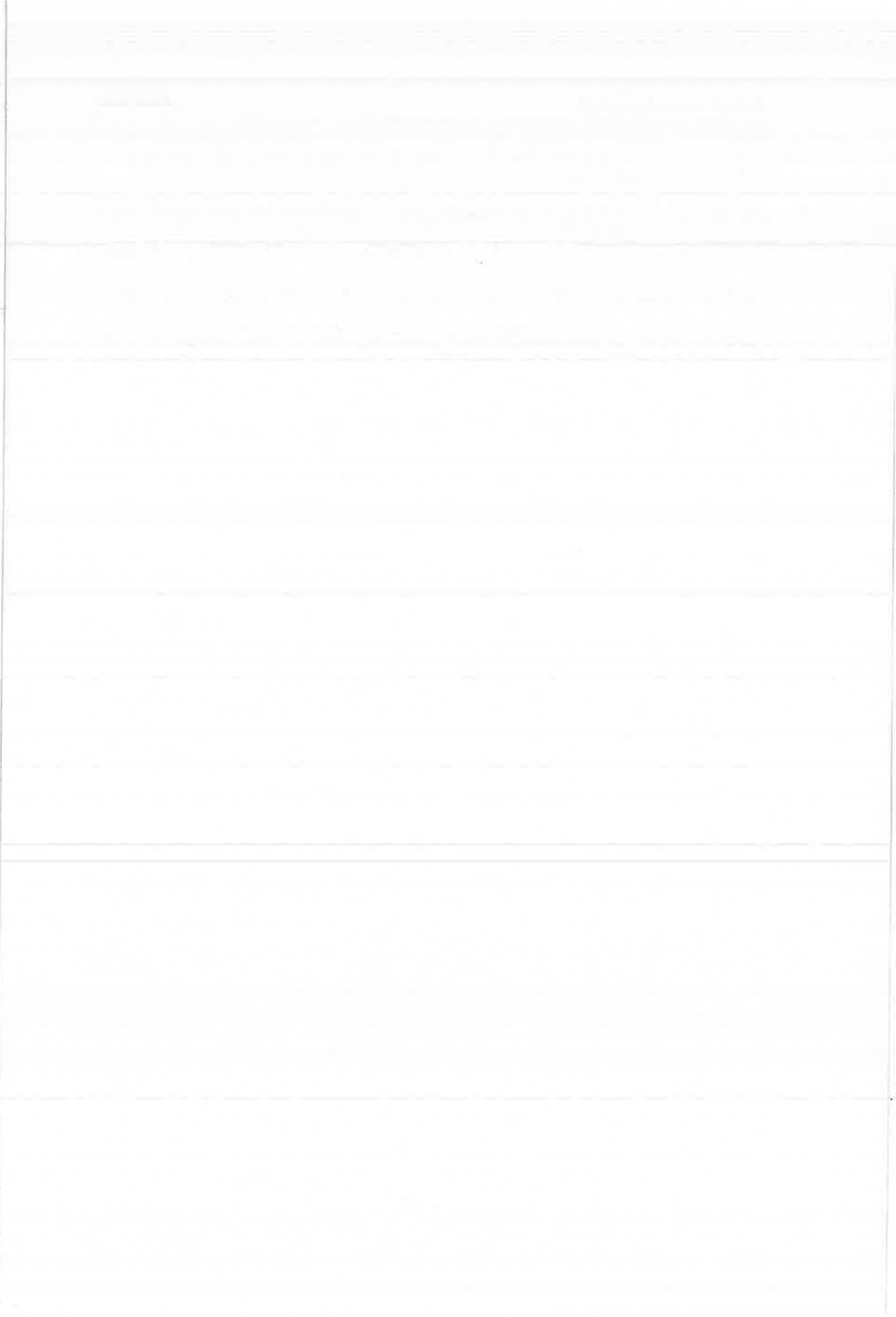
وإن معاني الوطنيّة الصادقة الأمينة لا يمكن أن تتحقق إلا في داخل الإسلام ، وفي أسس الإيمان والتوحيد ، لتأخذ الصورة الربانيّة التي تجمع الحقّ وأهله ليكونوا صفّاً واحداً على طاعة الله ، فيوفوا لوطنهم وأمتهم وللبشريّة بعهدهم الحقِّ مع الله ، على صراط مستقيم بيّنه الله لنا وفصّله ، فتتجردّ الوطنية بذلك من جميع أشكال العصبيات الجاهلية التي حرّمها الإسلام .

ويدخل مع هذا المصطلح شعار مصطلح آخر : المصلحة العامة ، مصلحة الوطن ، مصلحة الشعب ، وأمثال ذلك من الشعارات العامة غير المحدّدة ، ولكنها تجذب الآذان وتخدع النفوس . تطلق هذه المصطلحات والشعارات دون أن تُبيَّنَ ما هي المصلحة ؟! ما هو نهجها ؟! ما هو هدفها ؟! كيف توجد ؟! وتطلق هذه الشعارات فينجذب إليها من ينجذب ، دون أن يسأل أيّ سؤال عن المصلحة وحقيقتها ونهجها !

وتحت هذه الشعارات العائمة يُمرَّرُ كل ما يقتل المصلحة الوطنية ، ومصلحة الشعب ، إلا المصالح المخفيّة للمفسدين الذين يطلقون هذه الشعارات ويتاجرون بها !

إن المصلحة العامة ، ومصلحة الشعب ، ومصلحة الوطن ، لا تتحدّد ولا تصدق إلا بالإسلام وقواعده وشرعه . أما خارج الإسلام فإنها تظلّ شعارات عائمة تائهة !

كيف تتحقّق مصلحة الإنسان أو الشعب أو الأمة أو الناس جميعاً خارج الإيمان النقيّ والتوحيد الصادق وما يُبني عليهما من شرع وفكر ؟! كيف توجد مصلحة لأيّ إنسان إذا عُزلَت حياته الدنيا عن الآخرة ، وخُدِّر بزخارف الدنيا وزينتها ، ونسي الموت والقبرَ والبعث والحساب والجنّة والنار . إن نسيان هذا الحق يحوّل المبادئ إلى شعارات تخدِّر أو تتصارع ليتيه الإنسان بينها في ظلام وضلال .



(٦)

الإنسان والأخوة الإنسانية

يدَّعي بعضهم أن الإسلام لم يدعُ إلى الأخوة الإيمانيّة فقط ، ولكنه دعا إلى الأخوة الإنسانية والأخوة الوطنية والأخوة القومية . واستدل بعضهم على ذلك بحديث نسبه إلى الرسول ﷺ دون تخريجه ، فما وجدنا ذلك الحديث لا في الصحاح ولا كتب السنة ، ولا الضعيفة ! وقد شرحتُ تفصيل ذلك في كتاب : " **الانحراف** " !

لقد ذكرنا في صفحات سابقة وفي عدة كتب أصدرناها أن الإسلام يحترم جميع العلاقات الإنسانيّة الصادقة الأمينة ، بعد أن صاغها كلها صياغة إيمانيّة ربّانيّة ، حملت معانيها وخصائصها من الإيمان والتوحيد ، ومن الكتاب والسنة ، من الإسلام وحده ، لا من سواه . وبذلك تبرز معاني الإنسانيّة مشرقة صادقة في الإسلام ومن الإسلام ومع الإسلام !

خارجَ الإسلام ، تموت معاني الإنسانية إلا القليل القليل منها ، مما هو بقيَّة باقية من الفطرة التي أفسدها الخروج عن الإسلام . خارج الإسلام تموت معاني الإنسانية وتفسد علاقاتها ، حيث يطغى الظلم والعدوان ، والفتنة والفساد ، والفواحش والخمور ، وحيث تُطبَّق شرائع بشريّة تصنعها المصالح والأهواء ، ويُبْتعد عن التشريع الرباني الحق ، فلا يمكن أن تستقرَّ عدالةٌ ولا حرّية ولا مساواة ، إلا عدالة الظالمين المجرمين ، وإلا حُرية الفساد والعدوان ، وإلا مساواة الظالم بالظالم والمجرم بالمجرم ، ولا يَربط الناس إلا المصالح والأهواء ، المصالح المادية الدنيوية ، والأهواء البشرية المتفلتة !

إن الإسلام قد حدّد الحقوق والواجبات لكل فئة في المجتمع على أساس حقٍّ وعدل كامل . حدّد ذلك كله للمسلم ولأهل الكتاب تحديداً دقيقاً لا التباسٌ فيه ولم يجد النصارى ولا اليهود في تاريخهم كله عدالةً كما وجدوها تحت حكم

الإسلام، ولا رعاية وعناية ورحمة كما وجدوها في الإسلام. ومن خلال هذا التشريع الرباني تبرز معاني الإنسانية الكريمة دون أن تكون شعارات يتاجر بها، ولكنها حقائق صادقة تُمَارس في واقع الحياة!

لقد لمس أعداء الإسلام عظمة الإسلام في عدالته وتشريعه، واحترام الحقوق والوفاء بها، ورعاية الواجبات والمعاونة على أدائها.

إن تعبير الأخوة الإنسانية لم يأت به الإسلام، وإنَّما هو تعبير مزخرف ولكنه مضلّل. وهو تعبير لا حاجة للإنسانية إليه.

إن المذاهب التي عرفتها البشرية كلها لم تعرف الإنسانية خارج الإسلام. لم تعرف إلا الظلم والعدوان وسحق الإنسانية بين عجلات الدبابات ودوي الصواريخ، وأسلحة الفتك والدمار، وآلات التعذيب الوحشي ووسائله وأدواته في سجون رموز الديمقراطية والعلمانية والاشتراكية والحداثة والتقدم والرقي المزعوم في الإباحية الجنسية والفساد الخلقي.

ونؤكد أن أخوّة الإيمان الصادقة كما حدّدها الكتاب والسنة تحمل أكرم معاني الإنسانية، وإن صلة الرحم كما بينها منهاج الله تمثل أصفى معاني الإنسانية وذروة صدق العلاقات، لبناء المجتمع الإنساني المسلم في نور الإيمان والتوحيد.

وكذلك سائر العلاقات كما يُحدِّدها الإسلام من صحبة وصداقة وجوار وعلاقات دَوْلِيَّة، تظلُّ تحمل أسمى معاني الإنسانيّة ما دامت في نور الإيمان والتوحيد ونهجَ الإسلام.

فما حاجة المسلمين إلى مثل هذه التعبيرات التي سبق أن انطلقت بها الماسونيَّة الصهيونيَّة والدول التي تدعمها، لتجعل منها ستاراً تغزو به العالم بعُدْوانها وظلمها ونهبها ومجازرها؟!

نعود ونؤكِّد ونسأل: أليس في الإسلام ونهجه وقواعده ومصطلحاته غنىً عن كلِّ ذلك من المصطلحات العائمة والأفكار التائهة؟!

(٧)
الآخر والاعتراف بالآخر

منذ سنين غير قليلة شُغل بعض الدعاة بالدعوة إلى " الآخر " ، و " الاعتراف بالآخر " ، و " حماية حقوقَ الآخر " ، وغير ذلك مما يتعلّق بهذا الآخر .

دعوة غريبة في مجتمعات إسلامية ، حيث حدّد الإسلام بوضوح ودقة حقوق كل إنسان في ظل حكم الإسلام ، وحقوق كلّ طائفة رضيت بحكم الإسلام ، وحكم الله ورسوله .

من هو " الآخر " الذي يعنيه هذا الشعار والمصطلح ! لم يُشرْ إليه أحد ممن دعوا إليه ، وظل " الآخر " هائماً عائماً ، يثير الاضطراب والحَيْرةَ والفوضى الفكرية .

ربما عنوا " بالآخر " النصراني ! ولكن النصراني في بلاد المسلمين يعامل معاملة كريمة ، وربما بلغ حدّاً أصبح فيه هو المسيطر أو صاحب الكلمة . وأصبح المسلم نفسه يحتاج إلى من يتعرف عليه وعلى حقوقه وعلى وجوده .

أصبح بعض المسلمين يسهل عليهم التعامل مع غير المسلم تعاملاً غير نابع من الإسلام ، ولكن من الأفكار المسيطرة في الواقع كالعَلْمانية والديمقراطية وأمثالها ، ولا يتعامل مع أخيه المسلم ، بل يعاديه أو يحاربه .

لقد فشل المسلمون في واقعهم من تحقيق قاعدة ربّانية : " إنما المؤمنون إخوة " ، " المسلم أخو المسلم ... " ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً .

هذه المعاني اختفت من واقع المسلمين إلا في نطاق الحزب أحياناً ، أو في نطاق جماعة محدودة ، أما على صعيد الأمة فقد اختفت هذه الرابطة دون أن يشعر الدعاةُ المسلمون بالأسى لاختفائها ، أو بمسؤوليتهم الشرعية عنها ، أو بخطورة الحساب بين يدي الله عنها يوم القيامة .

روابط المسلمين تمزّقت أهواءً وأقطاراً وأحزاباً ومصالح ، وما نهض أحدٌ يدعو لحمايتها كما أمر الله ، ولكن نشط الكثيرون ينادون بالآخر والاعتراف بالآخر !

مهلاً أيُّها المسلمون ! أيها الدعاة ! أيها العلماء ! إنكم محاسبون عن ذلك غداً بين يدي الله سبحانه وتعالى ، فبماذا ستجيبون ربّكم يوم الحساب ؟!

وهل هذه الدعوة إلى " الآخر " الغامض المختفي ، والدعوة إلى الاعتراف به ، تمهيد لدخول اليهود والنصارى أرضاً يأخذونها غصباً وعدواناً ؟!

من هو الآخر ؟! هل هو اليهودي والدولة اليهودية ؟! وهل هذه الدعوة تمهيدٌ فكريٌ ونفسيٌ للاعتراف باليهود ودولتهم بعد أن اعترف بها عدد غير قليل من العالم الإسلامي ، وبعد أن أصبح اعتراف الآخرين قاب قوسين أو أدنى ؟!

أم " الآخر " هو المجرم الظالم المعتدي على أرض الإسلام بجيوشه وجنوده وسلاحه وفكره ودعايته ؟ فتكون الدعوة تمهيداً لقبول الهوان الذي أصبح حقيقة في واقع المسلمين اليوم ؟!

أيها المسلمون ! أقيموا الإسلام والتزموه فَتُعْرَف به حقوق الناس جميعهم على أعلى مستوى من العدل والإنصاف !

ويظل المسلم في واقعنا اليوم هو " الآخر " التائه الذي يبحث عمن يعترف به وبإسلامه وبدينه ! المسلم اليوم يبحث عن " أخوة الإسلام " وعن حقوقها وأين يجدها ، وكيف يجدها !

(٨)
التعـدّديـة

مصطلح طُرِح بشدّة في واقعنا ، وأخذ ينادي به المسلمون وكأنه شعيرة من شعائر الإسلام . إنه مصطلح أَلقتْه الديمقراطية بيننا ، فلهث الناس وراءه ، ولما أقاموا التعدديّة وجدوا أنفسهم أمام سراب يظل يجري والناس تركض وتلهث وراءه .

ربطوا التعدّدية بحرّية الرأي ! بحُرّيّة رأي الفرد والأمة كلها ، كأنه إذا لم يكن هنالك تعدُّديَّة لم يعد هنالك حُرّية فَي الرأي ولا في غيره .

إن حرّية الرأي التي تنادي بها الديمقراطية شعاراً تغزو به الأُمم والشعوب ، بقي شعاراً دون رصيد في الواقع ، حتى قال " بوش " : " كلّ من ليس معنا فهو عدونّا " ! عجب كل العجب ! فأين الديمقراطية وأين حرّية الرأي ؟!

حرّية الرأي في الغرب تسمح لك أن تَشْتُم أيّ شيء أو أيّ إنسان إلا ما نصُّوا على تحريم شتمه حسب هواهم ومصالحهم . حرّية كاذبة لأنها لا علاقة لها بالقرار الذي يُتَّخذ . لك أن تكتب وأن تتظاهر وأن تصرخ ! وكل ذلك لا علاقة له بالقرار ، فالقرار يتَّخذ بين الكواليس .

حرّية الرأي شعار في الغرب للتخدير ، حيث ترتبط هذه الحرّية بسائر الحرّيات المتفلتة ، الحريات الجنسية ، حرية الكلمة التائهة . أما إذا اتُّخذَ قرار لمصلحة إجرامية ، مثل غزو العراق ، انتهت حرية الرأي ، ولو قامت حشودَ العالم كله تعارض ذلك !

التعدُّدية جزء من النظام الديمقراطي ، تُبْنى على أساسها الأحزاب ، ويُبْنى معها صراعُ الأحزاب من خلال تنافس شديد يمتد طوال الفترة بين دورتين للانتخابات ، ويُشْغل الناس خلالها بجميع أنواع التنافس الذي يبلغ ذروته في الانتخابات . والانتخابات تستهلك الجهود الضخمة للأُمة كلها ، وتستهلك الأموال الكثيرة جداً ، كما ذكرنا سابقاً ، وتنشر الأحقاد .

وهنالك حزب معارض دائم المعارضة الظاهرة أو الخفيّة . في أمريكا حزبان ، حزب يتسلم الحكم وحزب معارض ، وتغذي الشركات الكبيرة هذا الحزب أو ذاك ، وفي انجلترا وسائر دول أوروبا عدد محدود من الأحزاب . في البلاد العربيّة عشرات الأحزاب في صراع محتدم مستمر ، صراع ظاهر أو صراع خفيّ ! وتصاغ حرية الرأي من خلال ذلك بصورة تؤمن مصلحة الرأسمالية والعلمانيّة ، وفي حدود ذلك تتكوَّن المعارضة لتساهم بطريقة غير مباشرة في تأمين النظام الرأسمالي ودعمه ، وتأمين الثروة في جيوب رجال هذا النظام ، وتخدير باقي الشعب ليرضى بالفتات ، وليظلَّ أسير النظام الرأسمالي ، في تصوّر مادّي دنيوي .

فحرّية الرأي مرتبطة إلى حدّ كبير بالحزب ومصلحته ومنافسته ، سواء في هذا الحزب أو في ذاك ! والجَميع مرتبطون بالنظام الرأسمالي الطاغي الذي يمارس الاستبداد والظلم بقفّازات من حرير .

في الإسلام يختلف الأمر كلّية ! فكل مسلم يملك حريّة الرأي بشروطها الشرعية التي يجب أن يلتزمها الحاكم والمحكوم ، بعد أن يكون بنيَ الإنسانُ المسلمِ الذي يعرف إسلامه ، والذي وفّر له الإسلام ميزاناً إيمانيّاً ربّانياً يَزِن به الناس والواقع والأحداث ، والذي يعرف حدوده ومسؤولياته وحقوقه معرفةً مبنيّة على الإيمان والعلم الحق من الكتاب والسنة ، وبعد أن حَدَّدَ الإسلام للمسلم مُهمّته في الحياة الدنيا ، مهمّته التي سيُحاسَبُ عليها في الآخرة بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وبعد أن حدّد له أهدافه الربانيّة المرتبطة بمهمته ، وبعد أن حدّد له الصراط المستقيم الذي يقوده إلى الجنّة بإذن الله .

وعندما أخذ المسلمون في العصر الحديث النظم الغربيّة كما هي ، وأخذوا معها التعدُّدية التي تمثلت في الأحزاب ، كان أول نتائجها تمزُّق الأُمَّة جهوداً وآمالاً وأهدافاً ومصالح تمثّلت في أحزاب متناثرة متصارعة ، فضعفت الأمة وتَبَدَّدتْ جهودها ، وهان أمرها .

الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا صفّاً واحداً ، أمّة واحدة ، بناءً واحداً .

إنها أمّة التاريخ الممتد في رسالة الأنبياء الذين خُتموا بمحمد ﷺ . إنها الأمة التي تجمع المؤمنين بأعظم رابطة عرفها التاريخ الإنساني كله ، إنها رابطة أخوة الإيمان ، أخوة تحمل العاطفة الصادقة والمسؤولية والحقوق .

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]

وكذلك :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]

وكذلك :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]

وتتوالي الآيات الكريمة تشدّ من حبل أخوة الإيمان ليعتصموا جميعاً به :

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]

وكذلك :

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]

وتأتي الأحاديث الشريفة لتفصّل في حقوق أخوة الإيمان وواجباتها ومسؤولياتها ، وخصائصها النفسية والإيمانية والعلميّة في واقع الحياة ، ليبقى المؤمنون أمّة واحدة وصفاً واحداً ، كما سبق أن بيناه في أكثر من كتاب ومقالة وبحث . ولكن المسلمين اليوم فشلوا في أن يُقدِّموا للعالم أُخوّة الإيمان التي أمر الله بها ، إلا في إطار الحزب الواحد حيث يرتبط أفراده فقط بأُخوة أو موالاة غير ما أمر الله به ، ويبقى ذلك خارج الحزب شعاراً يُتغنّى به .

ولكنّ التعدّدية الديمقراطية مزّقت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، عواطف وأهواء ، ومصالح وولاء ، حتى وهن عزمهم وهان أمرهم .

وهذه ناحية أخرى فشل فيها المسلمون في واقعنا المعاصر ، حين لم يستطيعوا أن يُقدّموا للعالم صورة الأمة المؤمنة الواحدة التي لا تتمزّق شيعاً وأحزاباً ، والتي تربطها أخوة الإيمان بعاطفتها الصادقة ومسؤولياتها وحقوقها وخصائصها الإيمانية ، مع توافر حريّة الرأي المنضبط والعدالة الصادقة ، والمساواة أمام القانون على منهاج ربّانيّ يحكم الأمة كلها ، ويُحدِّد الحقوق والواجبات لكلّ فئة في الأمة .

حين فشل المسلمون في أن يقدّموا للعالم هذه الصورة للأمة الواحدة ، أقبلوا على ديمقراطية الغرب يأخذونها ليطبقوها في واقعهم ، فاضطربت الأمة واختلط أمرها ، وأصبحت لا هي أفلحت بالديمقراطية ، ولا هي طبقت الإسلام كله كمنهج حياة ، وفُتحت بذلك ثَغَرات واسعة في صفوفها الممزّقة دلف منها الأعداء وتسلّلوا وزادوا الأمة فتناً وتمزيقاً وهواناً .

وأصبح من الصعب على كثير من المسلمين أن يروا حقيقة واقعهم ، وشدّة بعدهم عن حقيقة الإسلام ، وخطر تمزّقهم دياراً وأقطاراً ومصالح وأهواء ، فاعتادوا ما هم عليه ، ورغب الكثيرون به ، وجاءت المصائب والهزائم والقوارع، فهل أفاق المسلمون ؟!

حسبك أن ترى أن في التعدّدية والحزبية يكون الولاء للحزب أو رئيس الحزب ولاءً مطلقاً لا يعادله ولاء آخر . ففي أحد المؤتمرات الإسلامية كان أحد الدعاة المسلمين يستشهد بأقوال رئيس الحزب استشهاداً غير عادل وبغير حجة ، دون أن يذكر آية واحدة أو حديثاً واحداً .أليس هذا انحرافاً عمَّا أمر به الله ورسوله ؟!

نحن لا ندعو إلى الحزب الواحد ولا نؤمن به ، ولكننا ندعو إلى الأمة المسلمة الواحدة التي يمارس فيها كلُّ مسلم حرية الرأي وغير حرية الرأي بضوابط شرعية ربَّانيَّة تحترم حقوق الجميع على موازين عادلة .







الباب الرابع

السياسة في الميدان

١- هل في السياسة أخلاق ؟!

٢ - هل الإسلام هو الحل ؟!

٣ - بين النهج والتخطيط وبين الشعار !

٤ - التشهيد .

٥ - فقه الاستشهاد .

٦ - قضية فلسطين والدولة الفلسطينية !

٧ - مع قضية المرأة والنشاط السياسي .

٨ - نظرية المؤامرة !








(١)
هل في السياسة أخلاق ؟!!

سؤال يسأله بعضهم ، وسؤال يُفكِّر به الكثيرون ، وسؤال تثيره الأوضاع السياسية المشاهدة في الواقع !

إن التناقض الواضح بين ما يدرسه المسلم في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وبين ما يشاهده في الواقع سبب رئيس لإثارة هذا السؤال .

الإسلام يدعو إلى الأخلاق . والأخلاق في الإسلام ليست قضيّة مستقلة تُدْرس وحدها وتُمارسُ وحدَها . إنها قضية داخليّة في صميم نسيج الإسلام ، فهي مع كلِّ حركة وكلِّ نشاط وكلِّ ميدان . وهي عطاء الإيمان والتوحيد ، وعطاء الشهادتين والشعائر ، وهي عطاء كلّ ممارسة إيمانية في أيِّ ميدان من ميادين الحياة

الأخلاق إذا خلت من أيّ عطاء أو ممارسة فإنَّ العطاء والممارسة لا يعودان من الإسلام .

الأخلاق تتمسك بكل خير وحق وفضيلة ، وتدعو إلى كلِّ برٍّ وعدل ورحمة ، وإلى نبذ الكذب والغش والخداع ، والظلم والعدوان ، والسرقة والافتراء، والخيانةَ ، والزنا وسائر الفواحش ، والخمر والمخدرات ، والعجز والكسل ، والنفاق ، وكثير غير ذلك ، مما أتت به الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .

كيف يمكن أن تقوم الحياة ، أو يسودها العدل والبرُّ والرحمة إذا خلت الحياة من هذه الأخلاق . أيُعقل أن يسود العدل والمساواة والقسط إذا كان الذين يديرون الأمور مخمورين ، سكارى ، كذَّابين ، منافقين ، يعبدون الأهواء والشهوات ؟!

وإذا نظرنا إلى واقع البشريّة اليوم وما نرى فيها من حروب ومجازر ، ومظالم وعدوان ، وفساد وشر ، وإذا تساءلنا ما سبب ذلك ، لكان الجواب المباشر الأول هو فقدان الأخلاق !

لقد امتدَّ الكذب والخداع ، والتآمر ونجوى الكواليس ، وانتشرت ألوان وألوان من الفساد والجرائم تحت شعارات مزخرفة وزينة وفتنة .

وعندما تدرَّس السياسة في الجامعات هل تدرّس معها مكارم الأخلاق ، أم تدرَّس أساليب الخداع والكذب والمناورات ، والتنافس على الدنيا في جميع ميادينها ؟!

لا ننسى مدرسة نيقولو ميكافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) الفيلسوف السياسي الإيطالي الذي دعا في كتابه : " الأمير " الذي قدَّم فيه نصائح عملية لرئيس أيّ دولة إذا أراد أن ينجح . وكان محور نصيحته تلك أنه يجب على الرئيس أن يتجاهل الاعتبارات الخلقية كليّة ، ويعتمد على القوة والدهاء ، والكذب والغش ، واستعمال القوة دون أيّ شفقة أو رحمة . ويستطرد في نصيحته للأمير : " بأن لا يعتمد على الاحتفاظ بإيمانه ودينه إذا كان ذلك يتعارض مع مصلحته ... " !

من هنا ينكشف التناقض في الفكر والنفسية حين يقول : " ... إذا كان ذلك يتعارض مع مصلحته ... " ! فما هي المصلحة التي تتعارض مع الإيمان والدين . إنها مصلحة الدنيا وأهوائها وزهوتها وشهواتها ! وهنا تكمن المفارقة والمفاصلة والحسم .

ولقد امتدَّ تأثير هذه الفلسفة المضللة إلى عدد غير قليل من زعماء العالم وقادته الذين ارتكبوا خلال حكمهم أبشع الجرائم ، مثل نابليون بونابرت ، وهتلر ، وموسوليني ، وستالين ، وغيرهم !

محور فكر " ميكافيلي " وأساس التصوّر وميزان المصلحة عنده هي الدنيا:

﴿ **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣]

وفي التصوّر الإيماني ، كما يقرره الكتاب والسنَّة فإن الميزان ميزان آخر. فالهدف الأكبر هو الدار الآخرة ، الحياة الحقيقية الدائمة ، وما الحياة الدنيا إلا دار

ابتلاء وتمحيص ، يأخذ المؤمن الصادق منها ما يعينه على بلوغ الدار الآخرة والفوز بالجنَّة !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف: ١٠٩]

نهجان مختلفان ومصيران مختلفان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس: ٧ - ١٠]

هذا نهج الدنيا ونهج ميكافيلي ، وهناك النهج الآخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس: ٧ - ١٠]

نهجان قد ميّز الرحمن بينهما   نهج الضلال ونهج الحقِّ والرشدِ
لا يجمع الله نهج المؤمنين على   نهج الفساد ولا صدقاً على فَنَدِ

من هنا يتضح بشكل حاسم أن السياسة في ميزان الإسلام أخلاق ، ووفاء وصدق ، كما فصّل ذلك منهاج الله . إنه صدق يقوم على الإيمان والتقوى والعلم، ووفاء يقوم على الوفاء الأول بعهد الله ، وموالاة تقوم على أساس الولاء الأول لله، ومحبَّة تنبع من الحبِّ الأكبر لله ولرسوله وترتبط به وتسير معه .

ولكن السياسة ، وهي تحمل هذه الأخلاق كلها ، موهبة وطاقة وقدرة ، تقوم على أساس : الإيمان والتوحيد ، العلم الصادق بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربيّة ـ ، وفهم الواقع بردِّه إلى منهاج الله ردّاً أميناً ، والتزوّد بكلِّ علم صادق يفيد في فهم الواقع من خلال منهاج الله ، لا من خلال البحث عن تسويغات لفساد الواقع وضلاله والخضوع له .

فالسياسة في الإسلام : صفاء إيمان وصدق توحيد ، وصدق علم بمنهاج الله، وفهم الواقع ووعيه ، وموهبة قادرة على صفاء الاجتهاد والممارسة الإيمانية الصادقة التي تحمل معها ميزان المؤمن لتزن به الناس والأحداث ، فتبرز الأخلاق بروزاً كريماً ، وتشرق إشراقتها الغنية!

ليست مهمة المسلمين في الحياة الدنيا الخضوع للواقع واختراع المسوِّغات لهذا الهبوط . إنما مهمة المسلمين أن يدفعوا برسالتهم الربَّانيَّة إلى قلب الواقع ليغيّروا الباطل وينشروا الإصلاح !

ولقد طبّق رسول الله ﷺ السياسة في أعظم أشكالها وميادينها ، لتكون جزءاً من الرسالة الربَّانيَّة وممارستها في واقع الحياة . فما كذب صلى الله عليه وسلم ولا خدع ولا غشّ ولا خان ، ولا ضعف ولا استكان ، وإنما كان خُلقه القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ولقد أثنى الله على رسوله محمد ﷺ ثناءً عظيماً ممتداً في القرآن الكريم ، ولعلَّ أعلى ثناء كان قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤]

وحسبُكَ حديث رسول الله ﷺ يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

(إنما بُعثْتُ لأتمّم صالح الأخلاق) (١)

وكذلك مارس أصحاب رسول الله ﷺ السياسة في صدقها الإسلامي وعدلها الإيماني ، كما نرى ذلك في الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم . وإذا أخلَّ أحد بأخلاق السياسة في الإسلام ، فذلك ذنبه وعمله الذي لا يمثّل الإسلام .

وقد يهبط بعض الناس في مسيرة التاريخ في ممارستهم السياسة ، وقد يكذبون ويخدعون ، فما ذلك من الإسلام مهما قيل في صلاحهم .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٢٣٤٩) عن أبي هريرة .

وإن ممارسة السياسة النظيفة، سياسة الإسلام، لتحتاج إلى وعي المسلمين والمجتمع الإسلاميّ كله. فالأمر لا يتوقف على " السياسي " وحده. وإنما يعتمد الأمر على الأمة كلها وتماسكها واستقامتها على رسالة الإسلام.

ومهما ساءت الظروف فلا يحلّ للمسلمين أن يخالفوا منهاج الله، ولا أن يحلّوا لأنفسهم ما حرّم الله، ولا أن يخضعوا لضغط الواقع الذي يقدّره الله سبحانه وتعالى ابتلاء منه لعباده المؤمنين، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويعرف الصادق من الكاذب، والأمين من الخائن، ولتقوم المواقف كلها حجةً للإنسان يوم القيامة أو حجةً عليه.

وأمْرُ الله لرسوله ولعباده المؤمنين جليٌّ حاسمٌ فاصل:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾ [هود: ١١١]

إنَّ المسلمين اليوم، وهم في حالة من الوهن بأمسِّ الحاجة إلى المفاصلة والحسم، والاستقامة على أمر الله. وإنه واجب العلماء والدعاة وكلِّ مسلم صادق واع، أن ينصحوا جميعهم بوجوب الاستقامة على أمر الله، والمفاصلة بين الرشاد والفساد، والهدى والضلال، والإسلام وغير الإسلام!

إن هذه الاستقامة والمفاصلة هي التي تمدُّهم بالعزيمة والقوّة، وهي التي تفتح لهم أبواب الرحمة من عند الله، فينزل الله نصره على المؤمنين الصادقين في ظاهرهم وباطنهم، فيما يعلنون وما يكتمون.

إن اللجوء الصادق إلى الله ليفتح أبواب القوة وسبيل النصر، ويوفّر المدد والعون، والعدّة والعدد، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ يرويه البراء بن عازب ورافع بن خديج رضي الله عنهما:

"اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك "[1]

فالله هو القوي العزيز، هو الذي ينزل النصر على من يشاء على ميزان عدل وسنن ماضية وقدر غالب وحكمة بالغة.

(١) الترمذي: ٤٩/ ١٦/ ٣٣٩٤.

إن الله سبحانه وتعالى لا يَخذُل من يلجأ صادقاً إليه ، إنه هو البرُّ الرحيم ، وهو الغفور الودود ، وهو على كلِّ شيء قدير . فماذا تريدون أيها المسلمون من ملجأ خير من ملجأ عند الله ، ومنجى خير من منجى عند الله :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]

فماذا تريدون أيها المسلمون من قوة وسند وعون وملجأ وحماية أكبر من هذا كله . وإن الله قد وعد عباده المؤمنين بالنصر إذا هم أوفوا بعهدهم مع الله ، واستقاموا كما أمر :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾

[غافر: ٥١]

وكذلك :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠٣]

وكذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]

فنصر الله للمؤمنين حق ويقين إذا هم أوفوا بما عاهدوا عليه الله :

﴿ .... وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢]

وكذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١]

وكذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء: ١٢٢]

وكذلك :

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١]

نعم ! إنه الحق ! : " .... **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ.....** "

كلما صدق المؤمنون مع الله استبشروا بنصر الله الحق . فالقضيّة إذن بيد المؤمنين ، بيد المسلمين ، ليصدُقوا هم الله ، وليجاهدوا من أجل ذلك في سبيل الله:

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الروم: ٦]

إنَّ كثيراً من جهود المسلمين اليوم تتّجه لمحاولة الانفتاح على عالم غير مسلم ، وعلى أفكار مخالفة للإسلام ، وعلى محاولة تزيين ذلك بمختلف أنواع الزخرف والزينة ، ولو أدى ذلك إلى تحريف بعض الأحاديث النبوية أو تأويل بعض الآيات، أو إلى تزاحم الاجتهادات والفتاوى المتناقضة ، حتى يبدو أن الكثيرين يريدون إرضاءَ الغربِ وتجنُّبَ غضبه !

الأولى والحق أن نسعى إلى إرضاء الله سبحانه وتعالى بكل وسائل الطاعة والاستقامة والإنابة والخشوع ، وأن نتجنَّب غضبه بكل وسائل التوبة والعمل الصالح والاستجابة لأمره .

المسلمون حملة رسالة ربّانيّة ، ومحور عهدهم مع الله هو تبليغ رسالته إلى الناس كافة كما أُنزلت على محمد ﷺ وتعهّدهم عليها . وعلى هذا الأساس يقوم تعاون المسلمين مع شعوب الأرض ، تعاوناً نبلِّغ فيه الرسالة وننصح للناس ،

ونحمل الإسلام في كلمتنا ودعوتنا ، وفي سلوكنا وممارستنا ، حتى يروا الإسلام ديناً وتطبيقاً ، رسالة وممارسة .

إنها مسؤوليتنا اليوم ! فهل نقوى على النهوض إليها والوفاء بها . إنها تتطلّب منّا أن ننطلق بدعوة الله بلاغاً وبياناً وتعّهداً ، إلى الناس كافّة ، دعوةً واحدةً ونهجاً واحداً ، وأهدافاً ربَّانيَّة واحدةً ، واضحةً جليّةً ، لا نُخْفي من دين الله شيئاً ، كما أُنزل على محمد ﷺ ، ولا نبدّلُ ولا نغيّر !

إنّ مسؤوليتنا أن ندعو ونبلّغ ونتعّهد ، وأن نمضي بذلك على نهج مدروس، وخطة واعية ، نابعة ، من منهاج الله والواقع الذي نردّه إلى منهاج الله ، والله يهدي من يشاءُ ، ويضلُّ من يشاء ، على حكمة بالغة لله .

إننا بذلك ننال رضا الله ، ونستمدُّ قوّتنا منه ، وعزيمتنا منه سبحانه وتعالى، إذا علم أنَّ نيتّنا خالصةٌ لوجهه الكريم ، نيّةٌ خالصة صادقة ، نيّة واعية ، تعرف الهدف وتعرف الدرب الذي يوصل إلى الهدف ، والوسائل والأساليب ، والعدّة الضرورية والزاد الضروري .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥]

(٢)

هل الإسلام هو الحلّ ؟!

يبدو أنَّ عالمنا اليوم عالم الشعارات ، الشعارات التي تدوّي بها وسائل الإعلام الواسعة المتنوّعة ، وتُخْفي في كثير من الأحيان مضمونها الحقيقي وجوهر رسالتها ، فتثير في الناس عاطفة هائجة ، أو تتركهم حيارى بين ظنٍّ ووهمٍ ، أو تدفعهم إلى مزالق لا يدركون خطرها إلا بعد فوات الفرصة .

ويدور الصراع بين الشعارات ، ويحتدُّ الصراع ويتطوّر ، ولكل شعار رجاله أو شعوبه . فلا يعود هناك فرصة لتأمَّل وتدبّر ، ولا لدراسة وتبيّن ، ولا محاولة لدخول أعماق هذا الشعار أو ذاك ، أو حقيقة محتواه من حقٍّ أو باطل .

السؤال الذي يجب أن يقف الإنسان عنده هو : هل يريد الحقَّ أم يريد الانسياق وراء مصالح خاصة مادية أو وراء نزوات عاطفية ، أو حميّة جاهليَّة لقرابة أو قومية ، أو تبعيّة يُخَدَّر فيها الإنسان ، ويُخدَّر كثير منَ الناس ؟!

إنَّ هذه الحياة الدنيا فيها حقٌّ وباطلٌ ، ولقد يسَّر الله لعباده كلَّ وسائل معرفة الحق حتى لا يبقى هناك عذر لأحد في ضلالة . وجعلِ الله سبحانه وتعالى هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، لتقوم الحجة على كلِّ إنسان يوم القيامة أو تقوم له ، لينال كلُّ إنسان حسابه على موازين قسط في الدار الآخرة لا ظلم فيها أبداً ، فإمَّا إلى جنَّة وإمَّا إلى نار ، حيث هناك دار القرار ، دار الخلود والحياة الحقيقية .

لن تُغْنيَ الشعارات إذا أَضلّت الناس وأَخْفت الحقَّ الذي تقوم عليه السموات والأرض ، وخدَّرت الناسَ وأفقدتهم القدرة على الرؤية العادلة ، والتفكير الأمين ، والتمييز بين الحق والباطل .

لا بدَّ أن نقرر حقائق أساسية في هذا الكون وهذه الحياة الدنيا ، حتى يستقيم تفكيرنا على نهج إيمانيّ . إنَّ لهذا الكون كلّه ربّاً واحداً وإلهاً واحداً هو الله الذي

لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها ، خالق كلِّ شيء ، يُدبّر الأمر كله ، وله الأمر كله ، يمضي الكون كله على سنن لله ثابتة رحمةً منه سبحانه وتعالى ، بقضاء نافذ وقدر غالب وحكمة بالغة . وقد بعث الله لعباده رسلاً مبشِّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقد غرس الله الإيمان في الفطرة السليمة السويَّة ، وجعل آياته مبثوثة في الكون كله ، آيات بيّنات في أنفسنا ، وفي الأرض ، وفي السماء ، ليراها كلُّ ذي بصيرة وهبها الله له ، لا تُفقد البصيرة إلا فسدت الفطرة وغلبت الأهواء والشهوات والنزعات الجاهليَّة .

وبعث الله الرسل والأنبياء رحمة منه بعباده ، وهداية لهم ، وتذكيراً وبشرى ونذيراً ! فلا يُعقل أبداً أن يبعث الله رسله بديانات مختلفة يتصارع الناس عليها فيضلّون ويأثمون . فقد بعثَ الله جميع رسله وأنبيائه بدين واحد فقط هو الإسلام ، دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام الذين خُتموا بمحمد ﷺ . نعم ! كان هناك رسالات تجتمع كلها في الدين الواحد . وتَعَدَّدت الرسالات رحمة الله من الله بعباده ، حيث كان يُبْعث كلُّ نبيٍّ إلى قومه خاصَّة ، فبعث الله في كلِّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، وجعل مع التوحيد شرائع لذلك القوم في ذلك الزمن ، وختمهم بمحمد ﷺ برسالة جامعة خاتمة :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل: ٣٦]

هذه هي الحقيقة الواضحة البيّنة التي لا بدَّ أن يؤمن بها كلُّ ذي لبٍّ ونقاء وصفاء ، بعيداً عن الأهواء والشهوات . فإذا لم تستقرَّ هذه الحقيقة المقنعة فمن العبث بعد ذلك أن يدور أيّ حوار أو بحث .

الله واحد لا شريك له ، فالدين إذاً واحدٌ . فلا يُعقل أن يبعث لعباده بديانات مختلفة تتصارع ، ولا يُعْقل أن يكذب الرسل على ربِّهم . ولا على الذين

يبلغونهم، ولا على أحد من الناس . ولا بدّ أن تنتهي الرسالات برسالة جامعة شاملة مصدّقة لما قبلها ومهيمنة عليها لتُختم بها الرسالاتُ كلُّها رحمة من الله بعباده ، رحمة وسعت كلّ شيء ، وعدلاً منه وهدى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ .... ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

هذه هي الحقيقة الثانية : " **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه** " ، حقيقة مرتبطة بما قبلها أن بعث الله في كل أمة رسولاً أن اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت !

وجاءت هذه الرسالة الخاتمة كاملة تامة جامعة :

﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴾ [المائدة: ٣]

فالدين عند الله واحد ، هو الإسلام :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ﴾ [آل عمران: ١٩]

من هذه الحقائق ينطلق الحوار ، وكلّ حوار . ولكن القضيّة لا تقف عند هذه الحقائق ، فإنَّها تمتدُّ إلى الذين يحاورون ، ومدى إيمانهم بقضيتهم ، ومدى علمهم بها وفهمهم لها ،ومدى صدق ممارستهم لها في الواقع ، حتى يرى الناس الإسلام وحياً منزلاً من عند الله ، كتاباً يُتْلى ، ويرونه أيضاً سلوكاً مطبّقاً في واقع الحياة ، فيكون العلم والممارسة في الواقع الحجّة الكبرى في الدعوة والبلاغ ، حين يرى الناس الحقَّ صدقاً يمارس وخيراً يفيض ونوراً يمتدُّ .

لقد كانت هذه القاعدة أساساً في دعوة محمد ﷺ أن رأى الناس الدعوة بياناً

وممارسةً ، ممارسةً في جميع ميادين الحياة على تكامل وتناسق . لقد كان هنالك دعوة جليةٌ ، وكان الحوار دعوةً وبلاغاً ولم يكن جدلاً أو تنازلاً .

هذا الدين الإسلامي الذي جاء من عند الله حقاً كاملاً لا باطل معه أبداً ، جاء للعالمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٣]

من هذا التصور الذي بيّنه كتاب الله وسنَّة نبيّه ﷺ نرى بوضوح صفاءَ الإنسانيّة بأجلى معانيها ، حتى يتأكَّد الإنسان أنه لا مجال للإنسانيّة خارج هذا المنهاج الربَّاني . ويرى بجلاء سموّ العدالة في التشريع والتطبيق ، ويرى الحريّة الكريمة التي لا تعتدي على حقوق الآخرين ، ويرى حقوق الإنسان ليست شعاراً فحسب ، ولكنها معاملة وممارسة حقيقية في ميادين الحياة كلها حتى يؤمن أنه لا يمكن أن تقوم عدالة وحريّة أمينة وحريّة صادقة خارجِ هذا الدين .

كلُّ من يدرس منهاج الله سيرى الحقَّ وجلاءه في آياته البينات وأحاديثه الشريفة ، وسيرى أنه منهاج حياة متكامل تام لكل عصر ولكل مكان ولكل واقع ، ولكل شعب أو أمة تريد الحياة الطاهرة الأمينة .

إنه من عند الله العزيز الحكيم ، فلا يمكن أن يرقى إليه تشريع البشر مهما حملوا من ثقافة أو علم أو مواهب . ولأنه الحقّ لا بدَّ أن يتصدَّى له المجرمون في الأرض والمفسدون الذين لا يريدون الحق ولا العدالة ، ولكن يريدون الأهواء والشهوات ، والإباحية في الجنس ليسمّوها حريّة ، حتى إذا انتشرت الأمراض بسبب الفجور الجنسي لم يردعهم ذلك عن باطلهم ، بل يمضون ويزدادون فجوراً، حتى ينزل عقاب شديد من عند الله .

واقع البشرية كلها اليوم خطير يهدّد بكوارث وفتن وأمراض . وواقع المسلمين خطير كذلك ! فإذا أردنا إصلاح واقع المسلمين ، وإصلاح واقع البشرية، فليس

هناك من حلٍّ عمليٍّ عادل إلا الإسلام كما أُنزل على محمد ﷺ ، وكما جاء في الكتاب والسنَّة باللغة العربية بياناً ميسّراً معجزاً لا يستطيع أحد أن يبلغ مستواه.

ولا يوجد أمام البشرية كلها أي حلٍّ للإصلاح إلا الإسلام . ولكن هناك عقبات أمام ذلك . عقبات من غير المسلمين وعقبات من المسلمين . والعقبات من المسلمين أعظم خطراً .

حتى يبرز المسلمون أنَّ الإسلام هو سبيل الإصلاح للفرد والشعب والبشريّة يجب أن يُقدّموا الإسلام للناس كاملاً كما أُنْزل على محمد ﷺ ، بيناً جلياً دون تبديل ولا تحريف . ويجب في الوقت نفسه أن يُبرزوا الإسلام ممارسة وتطبيقاً في واقع الحياة ، حتى يصدق البلاغ والدعوة والحجّة على الناس . يجب أن نقدم الإسلام بلاغاً وبياناً صادقاً صافياً ، ونقدّمه نموذجاً حيّاً في ممارسة إيمانيّة، حتى يرى الناس الإسلام بياناً وعملاً .

ولما برز الإسلام بعد فتح مكة دولةً قوية تعرض الإسلام عدلاً ورحمةً وسياسةً واقتصاداً وحريّة منضبطة غير متفلتة ، وحقوقاً للناس ومسؤوليات محدّدة في شرع الله ، وقضاء وحكماً وتنفيذاً لحدود الله وشرعه كله ، ولما رأى الناسُ الدعاة يُبلّغون ما أُنْزل من عند الله لا يحرّفون ولا يبدّلون ، أقبل الناس على الإسلام أفواجاً وأفواجاً .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر: ١ – ٣]

يجب أن يكون البلاغ صادقاً والممارسةُ صادقةً حتى تقوم الحجّة على الناس بأنَّ الإسلام هو الحلّ . وإلا سيبقى قولنا : " **الإسلام هو الحل** " شعاراً كسائر الشعارات التي تدوّي في واقعنا ولا تجد لها رصيداً في الواقع .

نحن المسلمين اليوم أخطأنا في البلاغ وأخطأنا في الممارسة والنموذج . فعلينا أن نراجع أنفسنا قبل أن نحاسب غيرنا .

من حيث البلاغ لم تبلّغ الإسلام كما أُنْزلَ على محمد ﷺ . لقد وقع تبديل وتحريف صريح غطّى عليه ضجيج كبير . لقَد حاول الكثيرون أن يعلنوا مبادئ نسبوها إلى الإسلام والإسلام منها بريء ، وكأنهم يريدون مسايرة الغرب فيما يدّعيه من ديمقراطية وحريّة متفلّتة وعدالة غير قائمة ومساواة لا تتجاوز المساواة بين الضحايا في التعذيب ، والأموات ، وقد لا تقع المساواة . إن ضغط الغرب علينا بإعلامه المدوّي وشعاراته المدويّة وأجهزته ورجاله وتابعيه خلّف آثاراً واسعة في واقع المسلمين . الأمثلة كثيرة بتغيير النصوص والأمثلة أكثر بالاجتهادات المبنية عليها . نضرب مثلاً واضحاً لنبيّن ما نرمي إليه .

يقول الأستاذ أحمد قائد الشعيبي في كتابه : " وثيقة المدينة ـ المضمون والدلالة " . أما بالنسبة لغير المسلمين فأساس المواطنة هو " الولاء للدولة الإسلامية عن طريق العهد ، لأن حق المواطنة لا يستلزم وحدة العقيدة ولا وحدة العنصر " .

ولكن الكاتب لم يذكر أنَّ حق المواطنة في الإسلام لا يحدّد الحقوق والواجبات . فالحقوق والواجبات تتحدّد بشرع الله ونصوصه الثابتة ، شرعاً عادلاً ونصوصاً عادلة ، ولو خالفت منطق الديمقراطية والعلمانية . الناس في الإسلام متساوون أمام الشرع ، يطبّق الشرع على جميع المواطنين ، كما أُنْزل من عند الله، ليأخذ كلٌّ حقَّه ، ويلتزم مسؤوليته ، وقد تختلف الحقوق والمسؤوليات ، وهي مختلفة حقاً .

ثمَّ يقول الكاتب ليثبت صحة رأيه : قال ﷺ : " لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم " . ويشير في الهامش إلى تخريج الحديث كما يلي : ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد ، الصحيح ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ط ٢ : ١٣/ ٢١٥ ، حديث : ٥٨٩٥ . وعندما تفتح صحيح ابن حبان ج١٣ ، ص / 215 : حديث ٥٨٩٥ تجد ما يلي :

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : (أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حَرُمَت علينا دماؤهم وأموالهم ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم) .

وفي تعليق المحقق الأستاذ شعيب الأرناؤوط يقول : صحيح على شرط الشيخين ، وأخرجه النسائي ٧/ ٦٧، ٨/ ١٠٩ ، وأخرجه أحمد : ٣/ ١٩٩ ، ٢٤٤ - ٢٢٥ ، والبخاري ٣٩٢ في الصلاة ... ، وأبو داود ٢٦٤١ في الجهاد ، والترمذي ٢٦٠٨ في الإيمان ، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٣ ، والخطيب في تاريخه ١٠/ ٤٦٤ ، والبيهقي ٢/ ٣ .... " !

ومع انتشار هذا الحديث الشريف الصحيح وتكراره في هذه الكتب ، لم يتردَّد المؤلّف في أن يحذف معظم الحديث ، ويقتطف آخر جملة مجزوءة ، فقلب المعنى والحكم الشرعيّ ، وبدَّل وغيَّر بصورة لا تحلُّ أبداً .

وهذه الصورة التي يعرضها الحديث الشريف بكامله تتكرر في أحاديث شريفة أخرى وفي آيات كريمة . وحسبنا أن نشير إلى الآية الكريمة (١١) من سورة التوبة :

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١]

نعم ! جعل الإسلام لأهل الكتاب أن يقيموا في دولة الإسلام ، ولهم حقوقهم كما بيَّنَّها منهاج الله ، ولهم حق ممارسة دينهم ، وحق حمايتهم ، ولكن ليس لهم ما للمسلمين ولا عليهم ما على المسلمين .

لقد فرَّق الإسلام وشرعه في الحقوق والواجبات بين المؤمن وغير المؤمن، وحدَّد بوضوح حقوق كلِّ طائفة ومسؤولياتها . وحتى في وثيقة المدينة جاء التأكيد على ذلك . ففي البند (١) : ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على

مؤمن . والبند (١٥) : وأنَّ ذمَّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس . والبند (٢) : وأنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه . والبند (٢٣) : وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مردَّه إلى الله عزَّ وجل وإلى محمد ﷺ .

ولا بدَّ أن نتذكّر أن هذه الوثيقة كانت تمثل مرحلة خاصة من مراحل الدعوة الإسلاميَّة ، فبعد أن نزل القرآن الكريم وتمّت السنة المطهرة ، أصبح الكتاب والسنة هما مرجع المؤمنين إلى يوم القيامة . ومع أن الوثيقة أعطت لليهود حقوقهم في ممارسة دينهم ، وأنهم يؤلفون مع المؤمنين أهل المدينة ، إلا أن الشرط الرئيس أنَّ الإسلام هو الذي يحكم . وما لبث اليهود أن غدروا وخانوا ونبذوا العهود ، فنزل في حقِّهم ما نزل في كتاب الله .

ويعيد هذه المقولة المجزوءة : " لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم " ، المستشار سالم البهنساوي في كتابه : " قواعد التعامل مع غير المسلمين " حيث يقول في ص : " ١٢" : " لهذا كانت القاعدة في التعامل بين المسلمين وبين غيرهم من رعايا الدولة الإسلامية هي : " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " ! ويشير في الهامش إلى المصدر " بدائع الصنائع للكاساني ج ٧ ص ١٠٠ ، وأحكام أهل الذمَّة لابن القيم تحقيق د . صبحي الصالح : ص : ٤٨ .

أعجب إذا كان الأمر كما ذكر الأستاذ البهنساوي من أنَّ القاعدة في التعامل مع غير المسلمين هي ما ذكره ، فلماذا جاءت الآيات الكريمة في كتاب الله خالية من هذا النص . ولماذا يلجأ إلى بدائع الصنائع للكاساني بدلاً من أن يلجأ إلى الكتاب والسنَّة ، ولماذا لا يذكر النصّ الكامل من تلك المراجع التي ذكرها ، حتى لا يكون هنالك خطأ كما حدث مع الأستاذ أحمد قائد الشعيبي .

ولكن الأستاذ البهنساوي يعود ويناقض نفسه في كتابه حين يذكر بعض الرسائل التي وجهها رسول الله ﷺ إلى بعض الملوك والرؤساء . ففي رسالته إلى

هرقل جاء فيها : " **من محمد رسول الله إلى صاحب الروم . إني أدعوك إلى الإسلام فإنْ أسْلَمتَ فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ....** " ! فهنا جاء النصّ واضحاً صريحاً كما جاء في الحديث الشريف وفي صحيح ابن حبان . جاء النصّ هنا يقرّر : " **فإن أسلمتَ ...** " ! وهذا مطابق لجميع الأحاديث والآيات . فما هو الهدف أو المصلحة في تغيير النصوص ، ولماذا يريد بعض المسلمين اليوم أن يخالفوا أمر الله وأمر رسوله فيدَّعون أن الإسلام ساوى في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم ؟!

والمؤسف أنه مع انتشار هذه الأفكار وتوافر دعاة لها أخذت تتردَّد على ألسنة عدد من الدعاة المسلمين في أقطار مختلفة . وقد أعلن هذه القاعدة المخالفة للكتاب والسنَّة داعية كبير في بيان عام له .

نخلص من ذلك إلى أنَّ الإسلام يفرض على كلٍّ مواطن أن يخضع لحكم الإسلام إلا فيما يتعلَّق بأمور دينهم . ويبيّن الإسلام حقوق كلِّ طائفة بصورة مفصَّلة حتى لا تختلط الأمور . ويفرض على المسلمين المضيّ في تبليغ دعوة الله إلى غير المسلمين المقيمين مع المسلمين ، والذين هم خارج دار الإسلام .

ونعتقد أن هذه هي القضيَّة التي أغفلها المسلمون الذين يدرسون هذه القضايا والذين يتابعون شؤون الإسلام .

فبالإضافة إلى أن تبليغ دين الله ، الإسلام ، إلى الناس كافَّة هو أمر من عند الله ورسوله ، أمرٌ تواترت النصوص على إثباته ، إلا إنه أمر تفرضه طبيعة الإيمان والإحسان . فالمسلم يؤمن أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من أحد ديناً غير الإسلام ، فمن مات على غير دين الإسلام هالك :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

فمن واجب المؤمن إذاً أن ينقذ الناس من هلاك محقّق ، أن يخرجهم من

الظلمات إلى النور ، من جهنَّم إلى الجنَّة ، من الضلال إلى الهدى ، فقد هلكوا إذا لم يدخلوا في الإسلام . إنها مسؤوليّة المسلم المرتبطة مع سائر المسؤوليات التي كلَّفه الله بها .

ولكن على المسلم أن يحسن تبليغ الدعوة ويكسب القلوب إلى نور الإيمان وأن يدعو ويدعو بأطيب الأساليب ، والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء . وحتى تنجح الدعوة في تحقيق هدفها الرباني يجب أن يكون الداعية متمثّلاً للإسلام ، واعياً له ، أميناً في البلاغ والتعهّد . عليه أن يدعو إلى الإسلام ، إلى الله ورسوله، لا إلى حزب أو جماعة ، أو آراء خاصة . عليه أن يبلّغ الإسلام كما أُنزل على محمد ﷺ ، ليكون المسلمون أمة واحدة ، تربطهم أكرم رابطة إيمانيَّة وأَعَزُّ من أي رابطة أخرى ، هي أُخوَّة الإيمان ، أخوّة الإسلام ، كما جاءت في الكتاب والسنَّة ، وليست الأخوة العائلية أو القومية أو الوطنيَّة . فقد صاغ الإسلام جميع هذه الروابط صياغة إيمانيَّة تنفي عنها العصبيات الجاهلية التي حرمها الإسلام ، وتجعلها روابط خير للبشرية كلها .

ونؤكد أننا لن نجد الإنسانية الصادقة ولا العدالة الأمينة ولا الحريَّة المنضبطة ، خارج الإسلام . إننا نجد خارج الإسلام عصبيات جاهلية ، وأهواء تتصارع ، ومصالح دنيوية تتصادم ، وفتناً وفساداً ، لن تستطيع الشعارات ودويُّها إخفاء فسادها وظلمها .

نعم ! الإسلام هو الحل لمشكلات الفرد والجماعة والأمة والبشرية . لا ريب في ذلك . ولكن كيف يكون هو الحلّ إذا كان الإسلام لا يُلْتَزم ، وإذا كان الإسلام يأخذ في أيدي الناس وأذهانهم عدة أشكال متضاربة ؟!

كيف يكون الإسلام هو الحلّ لمشكلات الناس إذا كان بعض المسلمين يتنازلون عن الإسلام دعوةً وشعاراً ، ويسبحون بحمد الديمقراطية الأمريكية صباح مساء ؟!

كيف يمكن أن يكون الإسلام هو الحل إذا كان بعض المسلمين يحرفون الأحاديث الشريفة ، ويؤولون الآيات على غير ما أنزلت له ؟!

ومع ذلك فالإسلام هو الحل ، الإسلام كما أُنزلَ على محمد ﷺ دون تحريف ولا فساد تأويل ! الإسلام هو الحل ما دام هنالكَ جنود صادقون مع الله إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله ! وسيظلُّ في الأرض طائفة صادقة داعية مجاهدة :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) [رواه مسلم] (١)

---

(١) مسلم : ٣٣/ ٥٣/ ١٩٢٠ .

(٣)

بين النهج والتخطيط وبين الشعار!

من الحقائق المسلم بها وجود أخطاء في واقع المسلمين ، ووجود خلل كان له أكبر الأثر فيما حلّ بنا من تفسُّخ وهوان وهزائم . تطلع الصحف بين حين وآخر تحمل مقالة لهذا الكاتب أو ذاك يعرض بعض ما تعانيه مدرسته من خلل واضطراب وانحراف ، حتى أصبح ذلك عادة نتوقَّعها في خضمِّ الأحداث الهائجة المائجة .

نعم ! لقد كثر عرض الأخطاء عرضاً سليماً أو عرضاً فيه ظنون . ولم نجد أنَّ الأمر تجاوز العرض والتفصيل فيه أو الإيجاز ، ولم نجد أن العرض حمل نهجاً لمعالجة ما يبيِّن من عللٍ وأمراض .

لقد قدّمتُ كتاباً يوجز أهم مظاهر الخلل في الساحة الإسلامية دون أن أحصر ذلك في فئة أو منطقة . وشمل الكتاب كذلك موجزاً للنهج الذي أرى فيه معالجة لمظاهر الخلل والأمراض ، وذلك بعنوان :

" واقع المسلمين أمراض وعلاج "

من الظواهر البارزة في واقع المسلمين اليوم أنّ كثيرين لا يحبّون أن يعترفوا بأخطائهم ، أو لا يحبون أن يعرفوا أخطاءهم ، ولا يحبّون أن يُنصحوا ، بل يحبّون أن يُحمدوا ولو بغير حق . كثيرون أولئك الذين يستكبرون على النصيحة وعلى كل محاولة للتذكير ، وعلى كلّ محاولة للعلاج .

من أصعب القضايا التي واجهتُها في ميدان تربية الناشئة وتدريبهم قضية معالجة الخطأ . قلما تجد من يُسْرع فيعترف بخطئه ويعتذر ويستغفر الله ويتوب إليه . قلّما تجد من يفعل ذلك . ولكن أكثر الناس يُسْرعون في تسويغ أخطائهم وتزيينها ،

ويتناسون الآيات والأحاديث في حُمَّى الجدال المقيت ، الجدال القاتل للجهد والوقت ، الجدال الذي يحضره الشيطان فيزيّن ويثير حتى يقع الطرفان أو أحدهما في الإثم . إن التدريب على هذا الموضوع ، مثل غيره من الموضوعات ، يجب أن يتم في البيت أولاً ، ثم المدرسة والمعهد ، ثم الدعوة وسائر المؤسسات .

الميزان واضح ، والخطأ بموجب الميزان واضح ، والنهي عن الجدل ثابت ومقرر في الآيات والأحاديث ، ومع ذلك كُلِّه ينفخ الشيطان في النفوس حتى تستكبر ، فلا هي تُقرّ بالخطأ ، ولا هي تعين على معالجته . وتمتدّ الأيام والسنون والأخطاء تراكم ، وتُخفَى عن الأعين ، وتطوى وتكممُ الأفواه ! حتى تأتي لحظة ينفجر فيها أحدهم فيُفلت الزمام من يده ، ويدوّي بالأخطاء ، بما صحَّ منها وبما لم يصحّ ، وتتلقّفُ بعض المصادر والصحف أو المجلات مثل ذلك ، فتذيعه بأسلوب قد يُشْعِل أُوار الخلاف . وبين هذا وذاك لا ترى دراسات إيمانية جادّة .

دعوتُ إلى ما أسميتُه " **الوقفة الإيمانيّة** " في كلمة نشرتها مجلة الأمة القطرية قبل أكثر من ثلاثين سنة . وقدمتُ بعض الدراسات عن نواحي الخلل إلى من يعنيهم الأمر . وانتقلتُ بصمت وهدوء من مكان إلى مكان لأنصح قَدر جهدي دون دويٍّ إعلامي . بعضهم يُقرّون بصحة ما أُقدّم ، ثم يتساءلون : " ولكن ما العمل ؟ ! " . ثم يُنكرون أيّ مُحاولة للعلاج ، أو يقاومونها ، وبعضهم يَغيبون في القيل والقال ويطلقُونَ الظنون والجدال دون الوصول إلى أيّ نتيجة إلا زيادة الخلافات .

لا شك أن هنالك أصابع يحرّكها الشيطان اندسَّت بين صفوف المسلمين لتفسد ولا تصلح ، في جوّ فيه قليل من العلم ، وفيه ضعفٌ في الإيمان وجهل بالواقع ، مما يفتح ثغرات للمفسدين ليتسلّلوا .

إنّ من أَهم الوسائل التي قد يتخفّى بها المفسدون ويُسْتَدرج بها المسلمون دويَّ الشعارات دويّاً يُعطِّل التفكير ، ويثير العواطف ، ويُغْفِل النهج والتخطيط ، والدراسة والبحثَ ، وردَّ الأُمور إلى منهاج الله .

لقد كان لدويّ الشعارات أثرٌ خطيرٌ في كثير من قضايانا . تدويّ الشعارات وهي تُعْلن الهدف المرجوَّ ، ثم تمضي السنون فإذا المسيرة في اتجاه ، والهدف المرجوُّ في اتجاه آخر ، وتظهر هذه الصورة من التناقض جليّة ، فيزداد دويُّ الشعارات حتى تُخفَى الصورةُ الجليّة ، ويمضي دويّ الشعارات ، شعاراً بعد شعار ، وتُخْفَى المأساةُ حيناً إلى أن يشاء الله .

إنّ دويَّ الشعارات الخالية من أيِّ نهج هو ملجأُ المفلسين الذين فاجأتهم الهزائم ، وانكشفت العورات ، حتى وجدوا في الشعارات ودويِّها ستاراً يستر وغطاءً يُخفي الحقيقة عن أعين الناس . ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما يُخفَى وما يُعلَن .

والناس بصورة عامة يُسرعون إلى قبول الشعار وحده ، والتصفيق له ، والجري وراءه ، دون أن يسألوا أين النَهج وأَين الدرب الذي يوصل إلى الهدف المعلن ، وما هي الوسائل والأساليب ، وأين العدّة والإعداد ؟ ! ودونَ أن يسألوا أين جوهر الإيمان والتوحيد ، وأين ممارسة الآيات والأحاديث ؟ ! حتى تفاجئهم الأحداث !

هذه نفسيّة " الجماهير " عبر الزمن ، ولكن هذا لا يُعفي الجماهير من الحساب بين يدي الله . ولا يُعفي أحداً من المسؤولية والحسَاب يوم القيامة ، كلّنا مسؤولون ومحاسبون ، والحياة الدنيا هي الفرصة الوَحيدة للتوبة والأوبة ، وللاستغفار والإنابة .

دويُّ الشِّعارات الخالية من النهج والتخطيط أرهق الأُمة ، ودفعها إلى انتكاسات بعد انتكاسات ، ومأساة بعد مأساة ، وادعاء النصر مع الهزيمة ، وخاصة في قضايانا العامة السياسية وغيرها .

ولا أزال أعيد وأؤكد الموعظة التي أُردّدها مع كل مناسبة ، تلك هي :
"أنه إذا التقى فريقان ، فريق له نهجه وخطته وإعداده ، وفريق لا نهج له

ولا خُطّـَة ولا إعداد ، فإنَّ الفريقَ الأول يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، ويبقى الفريق الثاني مع بذله لم يجن شيئاً . "

والغريب العجيب أننا مع كثرة الأحداث ، والمواعظ التي تحملها الأحداث ، مازلنا نمضي على نفس الأُسْلوب من الارتجال والعفويّة ، ومن عدم التبيّن ومن اعتماد الظنّ المنهيّ عنه ، ومن عدم توافر الدراسات العميقة ، كأنَّنا لا نستفيد من الأحداث والتجارب ، ولا من آيات الله البيّنات وسننه فيها .

فَلْيقف المسلم المؤمن الصادق مع ربّه ومع نفسه ، فَليَقف اليوم يستعيد أهم الأحداثَ والقضايا ، ولْيُحاولْ أن يتلمَّس أَين الخُطَّة وأَين النَّهج الذي سارت عليه تلك الأحداث والقضايا ! فَلْيَقف المسلمُ اليوم يسترجع الأحداث حدثاً حدثاً ولْينظرْ إلى أيِّ نتيجة آلت إليه الأحداث .

وقد يتساءل بعضهم ما معنى النهج والخُطة ؟ ! ما هو التخطيط ؟ ! أليس الذي يجري هو التخطيط ؟ ! ذلك أن كثيراً من الناس لا يدركون ما هو التخطيط ولا ما هو النهج ، في الوقت الذي أصبح فيه النهج والتخطيط علماً ، وقبل ذلك هو واضح في الكتاب والسنة وسيرة النبوّة الخاتمة وسيرة الخلفاء الراشدين .

في إحدى تنقّلاتي في أرض الله الواسعة لأبيّن بعض ما أراه من خلل وعيوب ، وما أراه من الارتجال والشعارات ، وما أعتقده من علاج وإصلاح ، أخذتُ أشرح أهميّة التخطيط وضرورته وخطر غيابه . كنت أشرح ذلك لقائد موجّه داعية ! وفي وسط الحديث فاجأني بسؤال فقال : تكثر من ذكر التخطيط والنهج وضرورته ، فما المقصود بالتخطيط وكيف يكون ذلك ؟ ! ظننته أول الأمر مازحاً ، ولكن وجهه كان يدلُّ على جدية سؤاله ، وعلى حقيقة جهله للتخطيط ! فتمالكتُ نفسي وقلت له : التخطيط تجريه أنت في كل أمر يُهمُّك في دنياك . إنك لو أردت السفر من هذه المدينة إلى تلك ، فإنك تُحدِّد أولاً هدف السفر وغايته ، ثم تحدّد وسيلة تحقيقه بالطائرة أم القطار أم السيارة . ثم تحدّد الوقت المناسب ، ثم

تحدّد الحاجات الضرورية للسفر من نفقات وأوراق وكتب ، ثم تحدّد المدّة التي تقضيها ولو بصورة مبدئية . وإن كنت مؤمناً صادقاً واعياً لقواعد الإيمان فإنك تخلص نيّتك في سفرك لله ، لتتأكد أن سفرك عمل صالح لا فساد فيه ، وتردّه إلى منهاج الله لتطمئن أنه لا يخرج عن منهاج الله وأنه ملتزم لقواعده . ثم تحاسب نفسك أثناء السفر وتتفقّد كل أمورك ، ثم تقوِّم عملك عند عودتك .

هذا التصوّر يجب أن يرافق عمل المؤمن كله ، وعملك يا أيها المسلم ، حتى تكون أوفيت بعهدك مع الله . هذا التصور يجب أن يكون نهج أمة ، ونهج دعوة ، ونهج داعية . وهذا أمر يحتاج إلى التدريب عليه ودراسته علماً يحتاجه كل من ينزل ميدان الحياة . وهذه مسؤوليّة الدعوة الإسلامية أن تدرّب أبناءها على النهج والتخطيط ، وعلى الإدارة والتنظيم ، وعلى محاسبة النفس والتقويم . ثمّ سألته ألم تدرسْ ذلك في دعَوتك ، ألم يدرِّبك أحد على ذلك ، ألم تُجْرِ تقويمَ عملك وردَّه إلى منهاج الله ؟ !!

وفي جولة أخرى قصدت داعية يساهم في نشاط كبير رغبت أن أنصح له. فبيّنت له ما أراه من أخطاء في المسيرة ، وأنه يغلب عليها الارتجال ، فلو دارت الشورى لكان الأمر أفضل . قال نعم ! لقد دارت الشورى ، ورُفعت الأصابع وأخذنا برأي الأكثريّة . قلت له : إن هذا الأمر متعلق بميادين متعَددة ، فكم من خبير اقتصادي ساهم في الشورى ، وكم من خبير سياسي ، وخبير في كذا وكذا ! قال : لا يوجد أناس مختصون في أيٍّ من هذه الأمور . قلت : إذن ما فائدة الشورى إذا دارت بين أناس لا خبرة لهم في الموضوع المطروح . ثم ذكرت له أن الواقع يكشف عن مظاهر الارتجال ودويّ الشعارات أكثر من مظاهر العمل المنهجي المستكمل لشروطه وإعداده ، وأن هناك خطراً من حدوث مأساة مع هذا الارتجال ! فقال : لا تخف ! ربنا كريم . وهو مع المسلمين ، وساق من الجمل العامة الشيء الكثير ، ثم انجلت الأحداث عن مآسٍ وفواجع .

وأعجب كيف لا يقف كل مسلم ليتساءل لِمَ كانت الهزائم والفواجع مع أن

المسلمين لم يبخلوا بجهد ولا مال ولا دماء ؟ ! كيف ضاعت هذه الجهود وتناثرت ولم نرجعْ منها بنصر .

وفي أحيان كثيرة يأخذ الكِبْر من النفوس ، فيحاولون أن يجعلوا من الهزيمة نصراً ، ومن المصائب فخراً ، فَلَا يقبلون نصحاً ولا رأياً . غلب الشعار والأماني والأوهام ، ودخل الخدر في الدم والعروق !

شتَّان بين مسيرة تدفعها الشعارات والارتجال ، والأماني والأوهام ، وبين مسيرة تمضي على نيَّة واعية خالصة لله ، تعرف هدفها الحقَّ والدربَ الموصل إليه ، واستكمال العدَّة والعدد ، والوسائل والأساليب ، يجمع ذلك كله خطّة واضِحة ونهج بيّن . شتان بين المسيرتين ، وبين العقليّتين ! شَتان بين الأسلوبين :

* الشعار وحده يدفع إلى الارتجال !

والنهج والتخطيط يدفعان إلى التبصّر والتبيُّن !

* الشعار وحده يثير العواطف ويعطِّل التفكير !

والنهج يحفز التفكير ويطلقه على توازن بينه وبين العاطفة !

* الشعار وحده قد يُخَدِّر النفوس !

والنهج والتخطيط يثير اليقظة والوعي !

* الشعار وحده قد يُضيع الأمانة ويدفع النفوس إلى الجري اللاهث وراء الدنيا وزينتها !

والنهج والتخطيط يحمل النيّة الواعية الخالصة لله ، النيّة التي تؤثر الآخرة على الدنيا !

* في حمى الشعارات قد يتسلَّل الذين يريدون الدنيا والسمعة ، فلا حساب ولا محاسَبة !

في النهج والتخطيط تقويم ومحاسبة ودراسات وميزان !

* في حمى الشعارات قد تغيب الإدارة الإيمانية وقواعدها الربّانيّة !

في النهج والتخطيط إدارة إيمانية ونظام، ومسؤوليات وصلاحيات، وحدود وتنسيق !

* الشعار وحده قد يدفع إلى التفرّق والتمزّق وتنافس الدنيا !

والنهج والتخطيط يجمع القوى الصادقة والعزائم الوفيّة !

عندما نتحدث عن النهج والتخطيط، والإدارة والنظام، فإننا نعني التصوّر الإيماني لذلك، التصور الذي يجعل النيّة الواعية اليقظة الخالصة لله أساس النهج والتخطيط والإدارة والنظام، لينطلق ذلك كله على أسس راسخة من الإيمان والتوحيد، والكتاب والسنّة، ووعي الواقع من خلال الكتاب والسنة .

والنيّة التي نقصدها هي النيّة التي تحدِّد هدفها الربّاني والدرب الموصل إليه، حتى لا يكون الهدف في ناحية والدرب في ناحية أُخرى . وهي النيّة التي تحدّد الوسائل والأساليب . وليكون ذلك كله ربّانياً . ولذلك نقول **إن النيّة هي النيّة الواعية اليقظة الخالصة لله التي تعرف هدفها ودربها الموصل إليه ووسائل الإعداد والأساليب** .

وأيُّ معنى للنيّة إذا لم يكن الهدف والدرب محدَّدين . وأي معنى لإخلاص النيّة لله إذا لم يكن الهَدف والدرب والوسائل والأساليب كلها ربّانيّة .

في النهج والتخطيط تتمُّ الموازنة، وتجري الأُمور على توازن دقيق، ويدور التقويم المنهجي، وتحديد الأخطاء ومعالجتها قبل أن تتراكم، وينهض النظام الإداري الإيماني ليحمل الإشراف والمراقبة، والتذكير والتوجيه، والتنسيق والتعاون، والنصح الواعي المستكمل لشروطه الإيمانيّة .

والنهج والتخطيط يحمل معه الشعار الحقَّ الذي يُنْبئ عن النهج والتخطيط وتوافره بكامل عناصرهما، ينبئ عن ذلك من خلال المسيرة الأمينة والنتائج المتحقّقة .

لا بدَّ من وجود الشعار ، فالخلل الذي نعنيه ليس في وجود الشعار ، وإنما في وجوده وحده دون توافر أيٍّ نهج أو خُطّة ، ودون توافر تحديد الهدف والدرب الموصل إلى الهدف ، ودون توافر الإمكانات والإعداد لذلك .

(٤)
الشهيـــد

كثر تداول مصطلح " الشهيد " في عصرنا الحاضر في العالم الإسلامي ، حتى أصبح يطلق على كل من يُقتل ، وكأنه حلَّ محلَّ مصطلح " القتيل " عملياً .

لكلمة الشهيد في الإسلام معنى عظيم ، ومنزلة عالية جداً عند الله ، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو وحده يعلم من يُقتل شهيداً أو غير شهيد ، ومن يستوفي شروط الشهادة في ميزان الإسلام ، وميزان الإيمان والتوحيد ومن لا يستوفيها .

ففي غزوة بدر ، في كتب السيرة ، نجد الكلمة التي ترد في السياق قاتل ، قَتَل ، قُتل وما شابه ذلك . ولم يُقَلْ عن أحد إنه شهيد أو استشهد إلا من أوحي الله بذلك لرسوله ﷺ .

فهذا عُمير بن الحُمام ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهنّ ، يقول : بخٍ بَخ ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلا أن يَقتُلني هؤلاء ، ثم قذف التمراتِ من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القومَ حتى قُتِلَ !

وعوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء قال يوم بدر : يا رسول الله ! ما يضحك الربّ من عبده ؟! قال : غمسه يده في العدوّ حاسراً ! فنزع درِعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتِل .

إنّ " **الشهادة** " قائمة على قاعدتين رئيستين مترابطتين :

أولاً : النيَّة الخالصة لله في القتال .

ثانياً : أن يكون القتال في سبيل الله مستكملاً شروط ذلك لتكون كلمة الله هي العليا .

ثالثاً : أن يُقْتَلَ لا أَن يَقْتُلَ نفسَه .

ولا يعلم أحد نيَّة من قُتلَ إلا الله وحده ، ولا يعلم أكان القتال حقّاً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العَليا أم لغير ذلك إلا الله !

ولذلك ارتبطت الشهادة وأمرها بالله سبحانه وتعالى . وما ذكر رسول الله ﷺ أنَّ أحداً مات شهيداً إلا بما أوحى الله إليه علماً ويقيناً . ولكن يمكن الدعاء لمن يُقتل من المسلمين أن يكون شهيداً أو أنه استَشْهَدَ واستشْهَدَ بصيغة المبني للمعلوم ، أي طلب الشهادة ! فهذا جائز .

ولنذكر ما جاء في سورة آل عمران عن موقعة أحد في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

ندعو الله أن يمنّ على كل من قُتل من المسلمين في حرب يريد بها نصر الله ورسوله والإسلام ، لا يريد ثأراً خاصّاً ، ولا عرضاً زائلاً ، ندعو الله أن يتقبّله شهيداً عنده . والله وحده أعلم بما في قلوب عباده .

ولنتدبر حديث رسول الله ﷺ يرويه أنس رضي الله عنه : " ما من عبد يموت له عند الله خير يَسُره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرّةً أخرى " .
[رواه الخمسة](١)

وعن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدوّ فصدق الله حتى قُتل ، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا " ورفع رأسه حتى وقعتَ قلنسوته ، قال : فما أدري أقلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبيّ ﷺ . قال : " ورجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدوّ فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدوَّ فصدق الله حتى قُتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدوَّ فصدق اللَه حتى قُتل فذلك في الدرجة الرابعة "(٢)

---

(١) الترمذي : ٢٣/ ١٣/ ١٦٤٣ .
(٢) الترمذي : ٢٣/ ١٣/ ١٦٤٤ .

والأحاديث الشريفة عن " الشهيد " ومنزلته وأجره كثيرة إلا أنها ترتبط بصدق الإيمان والنيّة ، والقتال في سبيل الله ، خالصاً لوجهه الكريم ، لا يبتغي من عرض الدنيا شيئاً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ! رجل يريد الجهاد في سبيل الله ، وهو يبتغي من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : " لا أجر له ! " . فأعْظم ذلك الناس . وقالوا للرجل : عد إلى رسول الله ﷺ ، لعلك لم تفهمه . فقال : يا رسول الله ! رجل يريد الجهاد في سبيل الله ، وهو يبتغي من عرض الدنيا ؟! فقال : " لا أجر له ! " ثم عاد الثالثة وسأل ، فقال : " لا أجر له " [1]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : سئل رسول الله (عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّة ، ويقاتل رياءً ، أيّ ذلك في سبيل الله ؟! فقال رسول الله ﷺ " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "

[رواه الخمسة][2]

فليراجع المسلم نفسه ، وليحاسبها على ميزان حق ، فإن الجهاد في سبيل الله ، والقتل في سبيل الله أمر عظيم خطير ، لأنه لو حدث فيه خلل وخطأ وفساد نيّة ، بطل العمل ولا مجال لإصلاحه بعد أن يكون قد فارق الدنيا .

والأحاديث في هذا الموضوع واسعة كلها تؤكد الحقيقة الثابتة عن إخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى ، متجرداً من أي عرض من الدنيا .

والنيّة عند المؤمن هي نيّة الوعي واليقظة لا نيّة الغفلة . فالمؤمن يقبل على عمله بنيّته الصادقة الواعية ، يعرف هدفه وغايته وما يريد بالدّقة والوضوح ، ثم يرسم الدرب الحقيقي الذي يوصل إلى الهدف . ويجب أن يكون الهدف ربّانياً ، والدرب ربّانيّاً ، والوسائل والأساليب ربّانيَّة . فالكذبُ والخداعُ اللذان حرّمهما الإسلام يفسدان النيّة فَيَبْطُلُ العمل .

---

(١) أبو داود : ٩/ ٢٥/ ٢٥١٦ .

(٢) البخاري : ٥٦/ ١٥/ ٢٨١٠ ، مسلم : ٣٢/ ٤٢/ ١٩٠٤ ، الترمذي : ٣٢/ ١٦/ ١٦٤٦ ، أبو داود : ٩/ ٢٦/ ٢٥١٧ ، النسائي : ٢٥/ ٢١/ ٣١٣٦ .

ولكن أخطر ما يفسد النيّة هو السعي إلى السمعة والشهرة وزهوة الدنيا ، يخفيها الرجل بشعارات الإسلام ، فيمدّ الله له حتى يبتليه ويُكشف أمره ، ويمحّص ، لتقوم الحجة يوم القيامة له أو عليه .

والنيّة الخالصة لله واجبة في كل عمل المؤمن حتى يقبل الله عمله ويثيبه عليه ، على أن يكون العمل خاضعاً لشرع الله ودينه مع إخلاص النيّة .

لذلك لا بد أن نراجع أنفسنا ونحاسبها ، لنتأكد من صدق النيّة وصفائها وإخلاصها ، واستقامتها على منهاج الله ، لتكون هذه المراجعة للنفس ومحاسبتها الخطوة الأولى الضرورية التي لا غناء عنها ، ومن أجل رفع الهوان عنّا ، ومن أجل السعي إلى عزّة الإيمان وإعلاء كلمة الله في الأرض :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]

لقد لجأ بعض المسلمين إلى تفجير أنفسهم بين أعدائهم بغية قتل عدد منهم . ولقد أيّد هذا العمل عدد من الأساتذة بفتاوى متعددة . وأبديتُ رأيي بتحريم ذلك للأدلة المحكمة من القرآن والسنة . وقد اعتمد بعض الإخوة على أحداث أثبت فيها المسلمون المقاتلون جرأة واخترقوا صفوف أعدائهم حتى قُتِلُوا .

إلا أنّ هذا العمل يختلف كلّية عن تفجير النفس . فتفجير المسلم نفسه بيده هو قتلٌ لنفسه بيده ، لا بيد أعدائه ، وهو ما حرّمه الإسلام .

وسنشير إلى هذا الموضوع بتفصيل أوسع في الفصل التالي بعنوان :

" فقه الاستشهاد "

لقد ظنّ بعضهم أن في تفجير المسلم نفسه باباً للنصر . وقد مضت عشرات السنين بعد عشرات السنين ، ولم نلق إلا الهزائم بعد الهزائم ، حتى حاولنا أن نجعل من الفوز بالانتخابات هو النصر الموعود ! ثم تلاشت الشعارات واحداً بعد الآخر !

(٥)

فقه الاستشهاد في سبيل الله

١- تمهيد :

نوجّه أولاً تحيّتنا إلى إخواننا المرابطين المجاهدين في سبيل الله في أرض فلسطين ، وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي وفي أرض الله الممتدّة ، وندعو الله سبحانه وتعالى لهم بالنصر فالنصر من عند الله ، وندعو لمن قُتِلَ في سبيل الله منهم أن يتقبّله الله عنده شهيداً في درجة عالية من الجنة ، وأن يهَدي القلوب إلى النهج الحق المتكامل . ونوصيهم ونوصي أنفسنا بأن نُخلص النيّة في عملنا كله لله ، وأن يملأ قلوبنا علماً بالكتاب والسنّة ، وأن نحرص عَلى أن نُخْضِع كل خطوة لدين الله وشرعه . والله أعلم بقلوب عباده وبما هم يفعلون .

دار حديث طويل حول جواز تفجير المسلم نفسه ، بأن يضع حزاماً من المتفجرات حول نفسه ، حتى إذا دخل بين الأعداء فجّر نفسه فقتل بذلك عدداً من الأعداء .

لقد تحدث عن ذلك عدد من العلماء والمفكرين والأساتذة الأفاضل ، في الصحف والمجلات ومختلف وسائل الإعلام ، وامتلأت المجالس بالحديث عن هذه القضية ، فمن مؤيد ومن منكر لمبدأ قتل الإنسان نفسه أو تفجيره لنفسه ، مع تضارب شديد في الآراء والأدلة التي تُقدَّم .

ولقد اطَّلعتُ على معظم ما كُتب في الصحف ومختلف وسائل الإعلام عن ذلك ، ورأيت تضارب الآراء وشدَة اختلافها ، وعدم توافر الحجة من الكتاب والسنّة .

ولخطورة الأمر رأيت من واجبي أن أقدّم هذه النصيحة للمسلمين الذين يمارسون عمليات تفجير المسلم نفسه ، وللمسلمين الذين يُفتون بهذا الرأي أو ذاك ، وللمسلمين عامة ، فالدين النصيحة .

٢ - ما هي القضية التي يُطلَب الرأي الشرعيُّ لها:

قبل أن نعطي أي رأي يجب أن نحدِّد القضية التي يراد لها الفتوى والرأي . هل نريد الإفتاء بجواز حمل المسلم على العدو ومقاتلته حتى يُقْتَل ؟ أو أن يخترق صفوف العدوِّ وحده حتى يُقتَل ؟ فجميع الأدلة التي طُرحت في حدود ما قرأت كانت تدور حول هذه القضية ! هذه القضية ليست موضع خلاف ، فقد توافرت الأدلة على جوازها، على قدر الحاجة إليها والضرورة لها ، ولم تعد بحاجة إلى أدلة جديدة ولا إلى جمع الأدلة وتكرارها ! كلا ! ليست هذه هي القضيّة التي نحن بصددها ، ولا هي القضية التي تدور في الواقع ، ولا هي القضية التي يدور عليها الخلاف . فالمسلم في جميع هذه الحالات لم يَقْتُلْ نفسه بيده ، وإنما قتله العدوّ.

إن القضية موضع البحث هي: هل يجوز للمسلم أن يَقْتُل نفسه بيده هو ، بتفجير نفسه أو بأيٍ وسيلة أُخرى ، لا بيد الأعداء ، من أجل أن يقتل عدداً منهم؟ إن قتل الإنسان نفسه واضح جليٌّ لغة وشرعاً . إن ذلك يعني أن يقتل الرجل نفسه بيده هو ، أو بأداة يُذهِب بها هو حياته ، وتختلف الأداة والوسيلة من عصر إلى عصر .

فإذا عرفنا القضية المطروحة وحدَّدناها ، فما هي الأسس والعوامل التي يجب اعتمادها ، ومن ثم ما هي الأدلة الشرعية من الكتاب والسنّة وسيرة النبي محمد ﷺ وحياة الصحابة رضي الله عنهم والأئمة الأعلام في تاريخنا .

٣ - الأسس التي يجب أن يقوم عليها الرأي الشرعيُّ :

أ - الكتاب والسنة مصدر الأدلة كلها . ففيهما ما يُلبِّي حاجة الواقع المتجددة مما يحتاج إلى فتوى ، ولكل ما يجدّ في حياة الناس من قضايا إلى أن تقوم الساعة . فهذه هي القاعدة التي أمرنا الله باتِّباعها والتزامها . وهي القاعدة التي التزمها الأئمة الأعلام وذكَّروا المؤمنين بوجوب التزامها . وإذا وقع عجز فإنه من الإنسان وليس من منهاج الله :

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾
[الأعراف: ٣]

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾
[الشورى: ١٠]

﴿... وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ...﴾ [المائدة: ٤٩]

ومن ذلك توفير الأحكام والأسس، والسنَّة والنهج الذي يقوم عليه الاجتهاد.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء: ٦١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩]

وفي الحديث الشريف: " **ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ.** " (١)

وآيات كريمة وأحاديث شريفة أخرى تثبِّت هذا الأساس الذي لا يختلف عليه المسلمون بعامة ولا الأئمة الأعلام.

(١) من الحديث الذي يرويه العرباض بن سارية. أخرجه: أبو داود: ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧، الترمذي: ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦، ابن ماجه: المقدمة: ٣٥.

ب- أن نحدِّد القضية بدقَّة ووضوح دون أن نقع في مغالطة تجعل القضية والفتوى لغير القضية المطروحة . وقد حددنا القضيَّة أعلاه بجلاء ووضوح .

ج- أن نحدِّد واقعياً سبب القتال ومدى توافر الخطة المتكاملة الواجب إعدادها شرعاً ، والنتيجة التي يُرجى تحقيقها و الهدف المرجوّ ، ومدى ارتباط هذه القضيَّة المطروحة بالخطَّة المتكاملة التي يجب توافرها،ومدى قدرتها على تحقيق الهدف الذي من أجله يدور القتال .

د- مدى ارتباط القضية المطروحة بمسؤوليَّة الأمة كلها ، ومدى مسؤوليَّة طاقات الأمَّة عن أسباب الضعف وعن الواقع الذي نمرُّ بـه .

هـ- في الواقع الذي نمرُّ به ، ما هي الفتوى التي يحتاجها الناس وينتظرونها نصحاً خالصاً للـه ، نصحاً يعينهم على النجاة واتباع الصراط المستقيم كما أمر الله سبحانه وتعالى .

٤ – ميـدان الاجتهـاد :

إن معنى الاجتهاد في قضية ، يعني احتمال كون الرأي صواباً واحتمال كونه خطأً ، ولذلك كان حديث رسول الله ﷺ يرويه عمرو بن العاص رضي الله عنه : " **إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، فإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر** " (١) ، فالاجتهاد إذاً ينحصر في قضايا يُحتَمَلُ فيها الخطأ والصواب ، وإذا وقع الخطأ تكون نتائجه قابلةً للمعالجة أو التحمل . فقضيّة " **من يفجِّر نفسه** " قضية لا يجوز فيها الاجتهاد ، لأن الرجل عندئذ ينتقل إلى الدار الآخرة ، وفي حالة كون الاجتهاد خطأً فتكون المصيبة كبيرة ، لا يستطيع مَنْ أفتى بها ولا مَنْ أُفتيَ له تحمّلها ولا معالجتها . فهذه القضيّة وأمثالها يجب أن تخضع إلى نصٍّ ثابت من الكتاب والسنة ، نصٍّ محكم ، لا يُختلَف فيه . ولا يُعقَل أن لا يبيّن لنا الله ورسوله ﷺ هذه القضية الخطيرة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

---

(١) رواه البخاري :٩٦/ ٢١/ ٧٣٥٢، مسلم : ٣٠/ ٦/ ١٧١٦، الترمذي:١٣/ ٢/ ١٣٢٦ أبو داود : ١٨/ ٢/ ٣٥٧٤،ابن ماجه : ٤٩/ ٣/ ٣٥٨١، صحيح الجامع الصغير وزيارته رقم : ٤٩٣,

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود: ١]

وآيات أخرى كثيرة . ولا يجوز فيها الاجتهاد لأنّ هناك نصّاً ثابتاً محكماً من كتاب الله ، ونصوصاً صحيحة من الأحاديث الشريفة . والنصوص جميعها محكمة بلسان عربيّ مبين ، لا يحتمل التأويل إلى معاني لا يحتملها النصُّ المحكم ولا تجيزه اللغة العربية .

وهنالك قضايا هي من مسؤولية المسلم نفسه ، فهو الذي سيحاسَب عليها يوم القيامة بين يدَي الله ، لا يغني عنه أحد أبدا . فلا بد أن يوجّه المسلم إلى هذه المسؤوليّة ، ليعرف هو حكمها والدليل الشرعيّ لها ، و لتطمئنّ نفسه إليه .

٥ - هل في الكتاب والسنّة نصوص تتعلق بهذه القضية المطروحة ؟ :

في كتاب الله نصٌّ ثابت محكم في سورة النساء ، ونصوص ثابتة محكمة في أحاديث رسول الله ﷺ ، يجب الرجوع إليها قبل أي شيء آخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠]

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الآية إنها محكمة ما نُسختْ ولا تُنسَخ إلى يوم القيامة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : " **من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً . ومن قتل نفسه بسُمٍّ تردّى به فسُمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها . ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم خالداً فيها أبداً .** "(١)

وعن ثابت بن الضحاك في حديث له عن الرسول ﷺ جاء فيه : " **.. ومن قتل نفسه بشيء عُذّب به يوم القيامة .....** "(٢)

---

(١) مسلم : ١/ ٤٧/ , ١٧٥
(٢) مسلم : ١/ ٤٧/ , ١٧٦

وروى أبو هريرة كذلك قصّة الرّجل الذي قال عنه الرسول ﷺ إنه من أهل النار . فلما حضروا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً حتى أُعجب به الصحابة . وعجبوا أن يقول عنه رسول ﷺ إنه من أهل النار . فلما انتهى القتال تبيّن أنه أصابته جراح فما صبر عليها فقتل نفسه (١).

وهذه نصوص ثابتة . والآية الكريمة مطلقة لم تعط أيّ استثناء ، ولم يرد في كتاب الله كله أيّ استثناء ، ولم يرد في السنّة أي استَثناء ، ولم يرد في ممارسة المسلمين في حياة النبوة الخاتمة ولا الخلفاء الراشدين ولا في التاريخ الإسلامي استثناء للآية الكريمة يُقرّه الشرع . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة: ١١٥]

ولقد أجاز الإسلام ممارسة بعض الأمور في الجهاد في سبيل الله كالمعاريض لتكون مندوحة عن الكذب ، والخدعة في الحرب بشروطها ، ووردت نصوص واضحة بهذا الاستثناء ، إلا أنه لم يرد نص يستثني بعض حالات " **قتل النفس** " ، بل جاء النصّ عاماً محكماً لا مجال لتأويله . وجاءت الأحاديث تعطي نماذج من قتل الإنسان نفسه دون أن تهدف إلى حصرها.

حتى من أراد أن يقتل نفسه لينجو من العذاب أو الألم ، فقد جاء الحديث الشريف يحرّم ذلك ، وجاءت أحداث السيرة تحرم ذلك . وقد أباح الإسلام للمسلم أن يقول كلمة الكفر إذا اضطر وهو تحت التعذيب بين أيدي الأعداء وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولم يُبِحْ له أن يقتُل نفسه أبداً .

لقد قدم المسلمون مع النبوة الخاتمة ، وفي حياة الصحابة رضي الله عنهم ، وفي مساحة واسعة من التاريخ ، نماذج متعددة من الجهاد والبذل والصبر تحت التعذيب ، فلم نجد في ذلك من قتل نفسه بيده مباشرة ، لا من أجل التخلص من العذاب ، ولا من أجل النكاية بالعدو! ولنتذكر بلالا وياسراً وكثيرين غيرهما

(١) مسلم : ١/ ٤٧، ١٧٦

رضي الله عنهم ، قدَّموا النماذج الكافية التي تضيء لنا الصور كلها، حتى لا نخلط بين من يقتل نفسه بنفسه وبين من يقتحم صفوف الأعداء فيقتله الأعداء . صورتان مختلفتان نصوصاً وحكماً وتطبيقاً ، فلا يجب الخلط بينهما .

ومن يعتبر أن الآية الكريمة من سورة النساء تحصر تحريم قتل النفس بمن قتل نفسه يأساً من الحياة ، فلا دليل له من كتاب أو سنَّة ، إلا أن يكون وهماً أو تأويلاً غير عادل أو ليّاً للنصوص . إنَّ حكمها عام لا تقييد له.

٦- تحليل بعض الأدلة التي اعتمدها بعض الأساتذة الأفاضل وبعض النصوص :

أ - ولنتدبَّر الآية الكريمة التالية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١]

فقد وصف الله سبحانه وتعالى القتال الذي يوفي به عهده (**بأن لهم الجنة**) بقوله : (**يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلُون ويُقْتَلون**) . لم يأت هذا الوصف عبثاً، وإنما جاء ليُبيِّن حقائق القتال الذي يريده الله من عباده المؤمنين . فأول شرط أن يكون القتال في سبيل الله . وهذا يعني أن يكون هنالك نهج يحمل الأهداف ، ويبيِّن السبيل الذي يحقق الأهداف ، حتى لا تكون الأهداف في ناحية والسبيل في ناحية أخرى . وثانياً : أن الآية الكريمة تخاطب المؤمنين الذين يكونون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، كما جاء وصفهم في سورة الصف وغيرها . وثالثاً : أنهم يقاتلون ، فهناك مقاتلة ومجالدة بين طرفين ، فأما المؤمنون فإنهم يَقْتُلون من الأعداء ويُقْتَلون لتؤكِّد الآية الكريمة صورة المجالدة من ناحية ، ولتبيِّن أنَّ المؤمن يُقْتَل على أثر المجالدة والمقاتلة ، لا يَقْتُل نفسه . وفي جميع الآيات والأحاديث التي تصف الجهاد في سبيل الله تأتي الصيغة مبنيةً للمجهول : يُقْتَل ، أو قُتِل ، ولا تأتي بصيغة المبني للمعلوم أبداً .

ب- وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّه يَسِيراً** ﴾ ، فإن كلمة " **ذلك** " تشمل أكل المال بالباطل وقتل النفس . فليس هنالك أكل للمال بالباطل دون عدوان وظلم ، وآخر فيه عدوان وظلم . كله عدوان وظلم . وكذلك " **قتل الإنسان نفسه** " كله عدوان وظلم . فهو عدوان على ما نهى الله عنه وتجاهل لقوله سبحانه وتعالى (**إن الله كان بكم رحيماً**) . فلا بدّ من أن نجعل التصور نابعاً من النصوص مرتبطاً بها ، فتظل جميع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مترابطة متناسقة .

وأعجب من بعض الإخوة الأفاضل الذين أجازوا " **تفجير المسلم نفسَه** " كيف لم يشيروا إلى آية النساء ولا إلى أحاديث رسول الله ﷺ ، ولم يلتفتوا إلى نصّ حرّم الله فيه قتل المسلم نفسَه .

وقد جاءت الآية الكريمة بتحريم قتل النفس مرتبطة بقضيّة أُخرى هي أشدُّ ما حرّم الله سبحانه وتعالى ، ألا وهو الربا . فقتل النفس بأي صورة من الصور محرّم تحريماً بمستوى تحريم الربا .

ج - وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّه وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَاد**﴾ . فإنه من المعروف أنها نزلت في صهيب رضي اللَه عنه حين تخلى عن مالَه في مكة مقابل أن يطلقه المشركون ليلحق برسول الله ﷺ . فكيف يمكن الاستشهاد بهذه الآية لتسويغ قتل النفس ؟

د- وقصّة الغلام الذي دلّ الكافرين على طريقة قتله ، لا تصح دليلاً على تسويغ قتل النفس . فإن الغلام لم يقْتُلْ نفسه ، وإنما قتله الكافرون . هذا من ناحية ، ومن ناحية أُخرى فإنَّ قصّة الغلام حالة خاصّة ، جرت كلها بحدوث معجزة بعد معجزة للغلام ، وإلهام بعد إلهام من الله سبحانه وتعالى . فلا يُقاس عليها من ناحية ، ولا تَصِحُّ لبناء حكم شرعي من ناحية أخرى ، ليقول أي إنسان لعدوّه

اقتلني وقل باسم الله رب الغلام ، فيسلم الناس جميعاً : كلا ! إنها حالة خاصّة جداً تقدّم لنا العبرة في عظمة الإيمان وقوة الاحتمال ووضوح الهدف . والغلام بطريقته التي ألهمه بها الله حقّق هدفه الذي كان يسعى إليه طويلاً فأسلم الناس . فهل في تفجير المسلم نفسه بلوغ للهدف المنشود وتحقيق له ؟ فهذه الحادثة ، حادثة الغلام ، لا مجال لمقارنتها بمن يقتل نفسه بنفسه .

هـ - والقول بأن بعضهم اعتبر أن المسبب مساو للمباشر في الحكم ، فقد يصدق هذا في الجنايات وليس في ساحة القتال . فلو أن جماعة تسببوا في قتل رجل بأن دفعوا أحدهم ليباشر القتل فجميعهم يؤخذ بالحكم على رأي بعضهم . وأعتقد أن فيها خلافاً أيضاً . ولكن لا تنطبق هذه القاعدة على هذه الحالة التي نحن بصددها من حالة الجهاد في سبيل الله ، فليس هناك مسبب ومباشر في ساحة القتال . فكل من ينزل ساحة القتال هو مسبب ومباشر في الوقت نفسه . ولذلك جاء النص في الآيات " **يقاتلون** " للدلالة على المشاركة .

لابد من التفريق بين أن يَقْتُل المسلم نفسه بنفسه ، وبين أن يُقتَل وهو يجالد الأعداء . وكلّ من ينزل إلى ميدان القتال ، ينزل وهو متوقّع أن يُقْتَل ، وهو مقدم على الموت في سبيل الله ، سواء في مبارزة أو مجالدة أو اقتحام جريء لصفوف الأعداء ، إلا أنه في جميع هذه الحالات لا يَقْتُل نفسه بنفسه أبدا . فلا تُعتَبر جرأة المسلم واختراقه صفوف الأعداء يجالدهم بسلاحه ويجالدونه ، حتى يُقْتَلَ ، انتحاراً ولا قتلاً لنفسه ، وهي تختلف كلّ الاختلاف عمّن يُفجِّر نفسه . ولو أجزنا ذلك لأصبح كلُّ من نزل إلى ساحة الجهاد وميدان القتال قاتلاً لنفسه ، ذلك لأنه لا ينزل أحد إلى الميدان إلا وهو باذل نفسه لله .

و- أما الاستشهاد بقصّة أنس بن النضر وقصّة البراء بن مالك رضي الله عنهما فهو استشهاد خاطئ لا دليل فيه أبداً على جواز قتل المسلم نفسه بنفسه ، ولا مشابهة بين هاتين الحادثتين وأمثالهما بمن يفَجّر نفسه . ولنتأمّل كّلاً من القصتين :

"قال انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك ، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ، في رجال من المهاجرين و الأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم . فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا قُتلَ رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتِل " .
وعن أنس بن مالك قال : لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة ....! "

نعم ! فقاتل حتى قُتل ! ولم يَقْتُلْ نفسه بالرّغم من شدّة الجراح . ولكنه جالد القوم وقاتل . فلا يُعقَل أن تُتّخذ هذه القصّة بتأويل خاطئ لتسويغ قتل المسلم نفسه بتفجيرها . شتان بين المثلين .

أما قصّة البراء بن مالك رضي الله عنه في المعركة في قتال مسيلمة الكذاب وجمعه ، فقد حمل البراء بن مالك على المشركين وحمل معه الأنصار ، وأخذ يشقّ صفوف المشركين ، يقاتل فيقتل منهم وكذلك فعل مَنْ معه من الأنصار حتى ألجؤوا مسيلمة ومن معه إلى الحديقة التي سميت حديقة الموت ، وأغلقوا أبوابها . فقال البراء رضي الله عنه ضعوني على ترس واقذفوني إلى الحديقة قريباً من بابها فإما أن أستشهد ، وأما أن أفتح لكم الباب . وكان البراء ضئيل الجسم . وكان ذلك . فنزل البراء إلى الحديقة بين الآلاف من جنود مسيلمة قرب باب الحديقة . فمازال يقاتلهم ويَقْتُل منهم حتى فتح الباب ، فتدفّق المسلمون فأنقذوه حياً وبه بضع وثمانون جراحة ، وفتح الله بذلك على المسلمين نصراً عظيماً . وقد قُتل من المشركين قريباً من عشرين ألفاً . ثمّ عُولج البراء رضي الله عنه حتى شفاهَ الله . لقد قاتل البراء و جالد المشركين قتالاً واضحاً ، ولم يَقْتُلْ نفسه ، وشتّان بين عمل البراء هذا وبين مَنْ يفجّر نفسه بنفسه دون أن يجالد الأعداء ويقاتلهم .

ز- وعند حصار القسطنطينية اندفع رجل ليشقّ صُفُوفَ النصارى . فقال بعض المسلمين ألقى بنفسه إلى التهلكة . إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٥] فقال الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ، وكان مجاهداً

مع الجيش ، فقال رضي الله عنه : إن هذه الآية نزلت فينا معشر الأنصار صحبنا الرسول ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحبّبا . فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله وكنّا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل قوله سبحانه وتعالى (الآية) . وكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد "(١)

فإذا اخترق المسلم صفّ الأعداء فقاتل و جالد فَقُتل ، فلا يُقال إنه أَلقى بنفسه إلى التهلكة ولا يقال إنه قَتَل نفسه ، ولا يقارن هذا بمَن يُفجّر نفسه ، فلا وجه للمقارنة .ونجد أن اللفظة تأتي دائما بصيغة المبني للمجهول: " قُتل " ولم تأت بصيغة : (قَتَل) نفسه ! وذلك في جميع أحاديث الجهاد في سبيل الله .

٧- اختلاف النهج والواقع بين الأحداث التي استُدِلّ بها والواقع اليوم :

بالإضافة إلى عدم وجود تشابه بين قتل المسلم نفسه وبين الأمثلة التي اعتمد عليها بعض الأساتذة الأفاضل من عمل الصحابة كأنس بن النضر والبراء بن مالك ، فهناك اختلاف آخر . ذلك أنّ الصحابيَّ ، هذا أو ذاك ، كان واحداً من أمة كلها تجاهد في سبيل الله . لم يكن هناك شخص واحد يجابه الأعداء وحده وباقي المؤمنين في الأرض غائبون عن المعركة وميدانها ، وكثيرون غائبون عن القضيّة كلها . كان أنس بن النضر جنديّاً في جيش النبوة الخاتمة ، وكان البراء جنديّاً في جيش متكامل يمثل أمّة كاملة كلها في ميدان الجهاد .

وخطأ آخر في التشبيه بين مَنْ يفجّر نفسه وبين من يقتحم صفّ الأعداء كالبراء رضي الله عنه ، أن عمل البراء كان جزءاً من خُطَّة متكاملة ، كان عملاً مرتبطاً بما قبله ، مرتبطاً بما بعده . فكان هناك خُطَّة متكاملة نابعة من منهاج الله ومن الواقع ، تقوم الأمة بتنفيذها ، وكلٌّ يؤَدِّي دوره . وكان لهذه الخطَّة والدور

(١) رواه أبو داود و الترمذي والنسائي وآخرون .

الذي يقوم به البراء هدف محدّد يؤدي إذا تحقق إلى النصر . فأين الخُطَّة وأين الهدف وأين الطريق إلى النصر ، و ما هي النتائج الفعليّة لعمليات تفجير النفس ، وإلى أين تسير الأحداث ؟!

وقضية أُخرى : إن الله سبحانه وتعالى وصف الجهاد في سبيله وفصَّل فيه أوسع تفصيل ، حتى لا يكون لأحد عذر في أيِّ مخالفة ، فكان من بين ما أمر الله به : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]

فأول القوة هي الصف الواحد الذي يرهب العدو حق الإرهاب . فلماذا يصرُّ المسلمون على أن يقاتلوا متفرِّقين ، ممزَّقين ، ولماذا لا يلحُّ الأساتذة الأفاضل بهذه القضيَّة ، ولا يلحُّ الدعاة بها ولا يبذلون الجهد اللازم لها . مضى قرابة قرن أو أكثر على قضيَّة فلسطين ، فأين الإعداد الذي أمر به الله ؟ كيف نرهب العدوَّ وهو يرانا على هذه الحالة ؟ فإذا توقع أحدهم أنَّ تفجير المسلم نفسه يرهب العدوَّ ، فإنَّ فرقتنا وضعفنا وعجزنا يذهب ما كان يتوقَّع بعضهم من إرهاب له .

وإذا قارنّا هذه الصورة ـ صورة قتل المسلم نفسه ـ بجميع صور الجهاد في سبيل الله خلال خمسة عشر قرناً ، لوجدنا مفارقات كثيرة ، ومفارقات لنصوص الكتاب والسنَّة . وأول هذه المفارقات ، حسب واقع قضية فلسطين و تجمُّع قوى اليهود والنصارى والمشركين في عدوان ظالم على أرض إسلامية مقدسة ، أنَّ الجهاد فرض على كل مسلم قادر. وأنَّ أهم الإعداد وأوله هو إعداد المسلم لهذا الأمر نفسيّاً وعسكرياً. ولقد كان كبار الصحابة رضي الله عنهم وعلماؤهم وفقهاؤهم في الصف الأول في الميدان في أمَّة واحدة. وكانوا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم صفّاً واحداً وأُمَّة واحدة . وكان جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم ينشدون أناشيد الشهادة في قلب الميدان . كانوا يتَّبعون آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ بعد أن وَعَوْها في صدورهم ، ونهضوا إلى ممارستها كما تعلَّموها في مدرسة النبوَّة . فهذا هو الإعداد الأول

الذي لا غناء عنه ، ونحن نجابه هذا التحالف الظالم . ولا أظنُّ أنَّ هذه القوى المتفرقة قادرة على مجابهة هذا التحالف الدولي ، إذا كان الهدف إنقاذ فلسطين كلِّها. أما إذا كان الهدف تنفيذ حلول جزئيَّة مخالفة للشعارات التي تطرح فذلك شيء آخر ، وقد لا يستحق تفجير المسلم نفسه .

لا بدّ من دراسة الواقع ، و دراسة النتائج التي ترتّبت عن هذه الخطوة أو تلك . فلا تُدرَس الحادثة أو القضيّة معزولة عن نتائجها . لابد من البحث عن الخُطّة المتكاملة ، والهدف الحق ، ومدى ما تحقّقه هذه الخطوة أو تلك من الخُطة والهدف عمليّاً .

نحن بحاجة ماسَّة الآن إلى مراجعة المسيرة كلها في قضيّة فلسطين وغيرها ، ومحاسبة أنفسنا ، وردّ ذلك كله إلى منهاج الله ردّاً أميناً لنعرف أخطاءنا وعيوبنا وأسباب هزائمنا ، فعسى أن يهدينا الله لنصلح من خطئنا ، ونستقيم على أمر الله وصراطه المستقيم . وعلينا أن ندرس الآن هل أفاد تفجير المسلم نفسه ، وإلى أين اتجهت القضيّة ، وأين اختفت الشعارات ؟ فالنصر يأتي من عند الله ، وعند التزام شرعه .

٨ – هل هناك سبل أخرى غير تفجير المسلم نفسه :

كان يمكن لمن يريد أن يفجّر نفسه أن يُخفي قنبلة مثلاً ، فإذا توسط الأعداء ألقاها عليهم ، فجالدهم و جالدوه حتى يُقتَل بدلاً من أن يَقْتُل نفسه ، أو يتَّبع وسائل أخرى ، فالوسائل البديلة كثيرة ، وقد شهدنا منها في الميدان ، مثل ذلك الذي ساق شاحنته ، ثم أطلقها على اليهود ، فقتلت عدداً منهم ، وأُلقيَ القبض عليه وسُجن . وهذه سيارة مفخخة هدَّمت مركزاً لليهود ، ثمَّ توالتَ حوادث تفجير السيارات دون الحاجة إلى قتل المسلم نفسه . وهذه آية من آيات الله : أنزلت أربعة طوابق من مبنى لليهود على الراقصين والراقصات في حي " تلبيوت " في القدس ، ذهب ضحيَّته العشرات ، غير الذين بقوا تحت الأنقاض. إنه درس عظيم يذكِّرنا بقدرة الله العزيز الجبَّار ، وبضرورة اتباع شرع الله دون تأويل نبحث فيه

عن مسوغات تصرفنا عن النص المحكم ، وعن الوفاء الحق بالمسؤوليَّة على المسلمين. وإنها حادثة تذكِّرنا بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٩]

وكأنَّ هذه الحادثة تقول لنا : انظروا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى واعتبروا ، فاتَّبعوا شرعه وأحسنوا التوكُّل عليه ، حتى يُنزِل عليكم النصر بعجائب قدرته .

فالوسائل البديلة كثيرة ، مع شيء من التخطيط والتدبير . ولكن يظلُّ الحلُّ الأمثل أن يقوم الجميع صفاً واحداً كما أمر الله سبحانه وتعالى . ولذلك كنا نود من الأساتذة الذين أفتوا بجواز تفجير المسلم نفسه ليقتل بعض أعدائه ، وهو وحده ، وملايين المسلمين حول الفضائيات يقتلون وقتهم ووقت الأمة بالجدل حول هذا الرأي أو ذاك ، دون أن ينهضوا إلى ما فرض الله عليهم ، أو دون أن يطالَبوا بذلك ، كنا نودُّ أن يفتوا بعدم جواز ترك المسلمين في الأرض أخاً لهم يفجِّر نفسه وهم لاهون غافلون ، وأن يعلنوا ذلك للوفاء بالأمانة في أعناقهم ، وأن يفتوا بأنَّ الله قد حرَّم الفرقة التي نحن عليها ، وأن ينصحوا النصح الضروريَّ للفرد وللجماعة وللأُمَّة في هذه المرحلة الخطيرة من حياة المسلمين ، وأن تقدم الدراسات الإيمانية الواعية .

اللهم اغفر له وارحمه وأدخله جنتك وتقبله شهيداً عندك ، شهيداً على عجزنا وغفلتنا وتقصيرنا .

ونعجب من الضجيج الإعلامي لتسويغ عملية تفجير المسلم نفسه ؟ ! ولو كان الأمر حقاً يقرُّه الإسلام لما احتاج إلى هذا الضجيج . ولكننا نخشى أن يكون ذلك لتغطية شعور داخلي بالخطأ أو العجز أو لتغطية عورات كثيرة في واقعنا اليوم ، بعد أن سقطت الشعارات واختلفت التسويغات .

٩ - أين دور المسؤوليَّـة الفرديَّـة :

أصبحت الفتاوى كثيرة هذه الأيام ، متضاربة ، تتناول قضايا تتعلق بالفرد المسلم مما هو في حدود مسؤوليته هو ، ومما سيحاسَب هو عنه يوم القيامة ، لا يفيده قول فلان وفلان ، وقد أمره الله ورسوله ﷺ أن يتفقَّه في كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ : فعن أنس وغيره عن الرسول ﷺ قال : " طلب العلم فريضة على كل مسلم "(١) . كم ستكون الفتوى أكثر فائدة لو بيّنت للمسلم واجبه الذي فرضه الله عليه ، لينهض إليه ويساهم في إنقاذ الأمة . لقد أصبح المسلم الآن يضع جهده في دراسة أي علم وينال أعلى الشهادات ، ويظل في أمور دينه معطّل التفكير لا يحمل المسؤوليّة و لا الأمانة التي وضعها الله في عنقه ، أو لا يعرفها . أو ليس من واجب مَنْ يُفْتي اليوم أن ينبّه إلى هذه الحقيقة ، حتى لا يظلّ المسلم عُمُرَه كلَّه جاهلاً معطّل التفكير لا ينهض لمسؤولياته وأمانته . إن من يفجّر نفسه ماض إلى ربّه وهو الذي سيحاسَب ، فعَليه هو أن يدرك ما حرّم الله وما أحلّ له ، دون أَن يعتمد على رأي غيره إلا بمقدار الاستشارة !

وبهذه المناسبة فمن الواجب أن نذكّر أنفسنا و المسلمين بعامة أنه لا يجوز أن نقول عن أي مسلم قُتل في معركة إنه شهيد . ولكن يمكن أن ندعو الله بأن يتقبَّله عنده شهيداً ولقد أصبح استخدام كلمة شهيد عاماً تطلق على كل قتيل ولو كان تاركاً للشعائر كلها ، أو حتى لو كان غير مسلم ، ومن الواضح في الإسلام أن الكتاب والسُّنَّة بيّنا أمر الشهيد بعامة لا بالأسماء ، وأن الرسول ﷺ نفسه لم يكن يعلم من هو شهيد من أمته إلا بمقدار ما أعلمه الله . إننا ندعو لجميع قتلى المسلمين الذين قُتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله أن يتقبَّلهم الله شهداء عنده . والأمر متعلّق بالَنيّة التي لا يعلمها إلا الله ، ولله الأمر كله وله الحكم كله .

---

(١) رواه الطبراني في الصغير والوسط والكبير ، وابن عدي في الكامل وغيرهما ، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم ٣٩١٣٠) .

١٠ - دور النية وأهميتها في النهج والتخطيط :

إن الموت في سبيل الله تتعلّق نتيجته بالنيّة التي لا يعرفها إلا الله . ولكن إذا أفصح المسلم عن نيّته ، فقد أصبح مسؤولاً عما أعلنه من نيّة .فقد يُعْلن المسلم أنه يقاتل ثأراً لابن عمه فقط أو لقريب له ، أو لأحد أفراد عائلته أو عصَبته . وهذا خطأ يحسن تفاديه . فالمسلمون سواء ، فلو أراد المسلم أن يغضب ويثأر فليثأر لكل مسلم قُتل ظلماً أو في سبيل الله ، أو فليقاتل من أجل قضيّة أكبر من الثأر لفرد بعينه . فَليُقاتل في سبيل الله على صراط مستقيم إلى هدف ربّاني محدد جليّ لا يحمل أيّ نزعة من عصبيّة جاهليّة . وليتناصح المسلمون بذلك .

والنيَّة أساس النهج والتخطيط . فبها يتحدَّد الهدف الربَّاني الرئيس ، والسبيل الذي يوصل إلى الهدف الرباني الرئيس . لقد امتلأت الساحة بالشعارات والعواطف الملتهبة دون وجود نهج أو خُطة مدروسة . فغلب على كثير من المواقف الارتجال وردود الفعل ، وقامت أعمال معزولة عما قبلها ولا ندري ما بعدها . تقوم المظاهرات الصاخبة ثم تنتهي ، وماذا بعدها ؟! فلو أحصينا المظاهرات التي قامت في العالم الإسلامي خلال قرن كامل وأحصينا النتائج التي وصلنا إليها لهالنا الأمر . لقد بذلنا دماءً كثيرة وأموالاً كثيرة خلال فترة زمنيّة غير قليلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فهل ما وصلنا إليه يتناسب مع ما بذلنا ؟ وإننا نخشى أن يستفيد أعداؤنا من جميع خطوات الارتجال وردود الفعل الآنيّة ، أو خطوات الهوى ، ولا نستفيد نحْن إلا زيادة في البلاء والنكبات والهزائم . وأعجب ما الذي يمنع المسلمين من النهج والتخطيط على أُسس ربانيَّة ، كما أمر الله ، إلا أن تكون الفرقة والتمزق وتنافس الدنيا ، مما يضاعف الإثم علينا .

وحين نقول إن النيَّة لا يعلمها إلا الله ، فإنا نَكِلُ النيّات إلى الله سبحانه وتعالى إلا إذا أُعْلنَ عنها . ولكننا في الوقت نفسه ننظَر في العمل نفسه ونردُّه إلى منهاج الله ردّاً أميَناً ، وندرس ما يحمل من أهداف ربانيَّة ، وندرس السبيل الذي

يمضي عليه ، والوسائل والأساليب ، لنرى قدرة السبيل والوسائل والأساليب على بلوغ الهدف الرباني المحدد وتحقيقه .

لذلك فصَّل الله سبحانه وتعالى قضيَّة الجهاد في سبيل الله في المنهاج الرباني تفصيلاً واسعاً ، حتى لا يقع أحد في خطأ في قضيَّة يكون مصير الإنسان بها إلى الدار الآخرة . فبيَّن الإسلام أهمية الجهاد ونهجه وشروطه وأهدافه ، ووسائله وأساليبه ، وبيَّن المكلفين به ومن يعذر ومن لا يعذر ، وعقاب المتخلفين .

لذلك نعود ونؤكِّد أن النيَّة : هي التي تطلق الدرب والنهج ، وتحدِّد الأهداف والسبيل الذي يوصل إلى الأهداف ، حتى لا يأتيَ وقت نرى فيه الأهداف في ناحية والدرب في ناحية أخرى ، ولات ساعة مندم !

والنيَّة يجب أن تكون خالصة لوجه الله ، نقيَّة من أي عصبيَّة جاهليَّة ، عصبيَّة جاهليَّة سابقة أو عصريَّة ، لا تحمل أيَّ صورة من صور تنافس الدنيا وسمعتها، ولا شبهة من شبهاتها ، ونكل النية إلى الله سبحانه وتعالى ، لا نحاسب نحن عليها إلا إذا أعلن الرجل عن نيته ولا نتَّهم ولكن نذكِّر ، فهذا واجبنا الشرعيُّ :

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميَّة ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ قال : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . "(1)

١١ – الوقفة الإيمانيَّة ومراجعة المسيرة :

ألا يستحقُّ واقعنا اليوم وقفة إيمانية نراجع فيها حساباتنا ومناهجنا ومسيرتنا ، عسى أن نصحّح خطأ وننفي الارتجال وورود الفعل الآنيّة المؤذية ؟! وعسى أن تخفّ الفتاوى قليلاً حتى تصاحبها الدراسة والرويّة !

---

(١) رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربعة . والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم:٦٤١٧ .

إن الوقفة الإيمانية ضرورة في حياة الفرد والجماعة والأُمَّة . فمن خلالها يمكن معرفة الأخطاء ومعالجتها . ومن خلالها تدور الدراسات الأمينة الواعية ، لتستأنف مسيرة أسلم نهجا وأقوى خطَّة ومن خلالها يمكن أن تلتقي القلوب المؤمنة صفاً واحداً، كما أمر الله .

وإنَّ واقعنا اليوم والهزائم المتتالية تفرض علينا ذلك . فكلُّ ما يتمُّ هو بقضاء الله وقدره، وقضاء الله حقٌّ عادل لا يظلم أبداً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤]

وآيات وأحاديث أخرى كثيرة تؤكِّد هذه القاعدة الرئيسة . فما الذي يمنع أن نقف وقفة إيمانية تجمع القلوب الخاشعة لله ؟ إلا أن تكون الفرقة والتمزُّق وسائر أمراض واقعنا اليوم ؟ !

١٢-إلى أين تتَّجه الأحداث اليوم ؟

لقد بيَّنَّا في أكثر من مناسبة أن الأحداث يمكن أن تتَّجه لتمرير أهداف خفية أو شبه خفية ، منذ أن أعلن شارون عن عزمه لدخول المسجد الأقصى . وسارت الأحداث لتزيد هذا الاحتمال قوَّة .

ولا بد من أن نسأل أنفسنا على ماذا تدور المفاوضات والاختلافات ومن ثَمَّ القتال ؟ فهل ذلك من أجل دويلة فلسطينية أعلن أصحابها أنها علمانية ، وأعلن آخرون عن تأييدهم لها ، وأعلن آخرون حينا هكذا وحينا هكذا ! هل كان ذلك كله من أجل دويلة أُعلن بوضوح أنها مجردة من الجيش والسلاح ومن التدخل بالسياسة الخارجية وغير ذلك مع الاعتراف الرسمي الدولي بدولة اليهود وحقهم في فلسطين ؟ وهل بذلك يكون القتال في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله لتكون هي العليا ؟ أمن أجل دويلة علمانيّة يُفجّر المسلم نفسه ؟!

يبدو أن اعتراف بعضهم بدولة اليهود أصبح حقيقة ، وأن ما يجري حولنا يقوم على هذا الأساس ، وأن تقدير الأمور يعتبر أن هذه حقيقة مسلّمة ، على

أساس ذلك تدور المفاوضات ، وعند الاختلاف يدور القتال ليقنع أحد الطرفين الطرف الآخر.

لقد بيَّنتُ قبل أكثر من أربعين عاماً أن القبول بدويلة فلسطينية مع الاعتراف بدولة اليهود في فلسطين ، أمر ليس في صالح المسلمين ، ولا يحلُّ من الناحية الشرعية . ثمَّ بيَّنتُ ذلك في اكثر من كتاب أو مقال أو لقاء . ولم يكن هذا رأيي وحدي ولكن الهيئة العربية العليا لفلسطين كان هذا هو رأيها أيضاً . وكذلك كان هنالك آخرون يرون الرأي نفسه . ولكن هذا الرأي طُوِيَ ، والتفَّ الكثيرون حول الرأي الآخر صراحة أو ضمناً .

وعلى أساس هذا الرأي الآخر قامت منظمة التحرير ، وقام النهج الذي سارت عليه ، بالرغم من أن ميثاقها الذي تبدل فيما بعد كان غير ذلك . وقد نالت التأييد الجارف خلال أكثر من ثلاثين عاما ، التأييد الشامل من معظم قطاعات الأمة ، التأييد الذي قادنا إلى النتيجة الحالية . والمعارضة التي ظهرت في اللحظات الأخيرة بعد تأييد طويل وتعاون كبير ظاهر ومخفي لم تكن أكثر من تنافس في الساحة ، حيث لم يكن أحد لديه نهج أو خطة لتحقيق الشعارات التي تغنّى بها هؤلاء وهؤلاء .

ونسأل ثانية وثالثة ما هو هدف القتال الحالي ، إذا لم تُستَنْفَر الأمة كلها ؟ ما هي الأهداف التي سارت القضية عليها وإليها في مسلسل التنازلات من خلال أعمال شدَّت الجماهير إليها ، وصفَّق لها الكثيرون وأيَّدها الكثيرون ، وسيق الناس من خلالها إلى الموقف الحالي ، تدور فيه المفاوضات والقتال وكأن إسرائيل حقيقة مقبولة وأن غاية ما نرجوه ونقاتل من أجله هو دويلة لا جيش لها ولا أي تدخل بالسياسة الخارجية وحكم علماني صريح معلن عنه أشد الإعلان ونال أشد التأييد ؟ فهل القتال يدور اليوم من أجل ذلك ؟ وهل نتيجته العملية الاعتراف الصريح بإسرائيل وحقها ووجودها على مستوى محلي ومستوى دولي؟ هل المسلمون الآن يعون أبعاد المعركة مع اليهود وأبعاد الموقف الحالي ؟ هل يعي المسلمون أننا

بتنازلاتنا نعطي اليهود الفرصة لتهديد العالم العربي والعالم الإسلامي ؟ إلى أين تسير الأحداث ؟

بعد حادثة تل أبيب الأخيرة ، أعلن كثيرون أنَّهم لن يسكتوا إذا اعتدى اليهود على أراضي السلطة ، وأنهم لن يوقفوا الانتفاضة إلا بعد أن ينسحب اليهود من أراضي الدولة الفلسطينية . أليس هذا اعترافاً واضحاً بدولة اليهود من جميع من صرّح بذلك ، وجميعهم صرّحوا ؟! وأين الفتوى الشرعية بالاعتراف بدولتهم ؟ أليس هذه تنازلاً عن الأهداف المعلنة ؟!

١٣ - اتساع الخطر اليهودي وامتداده :

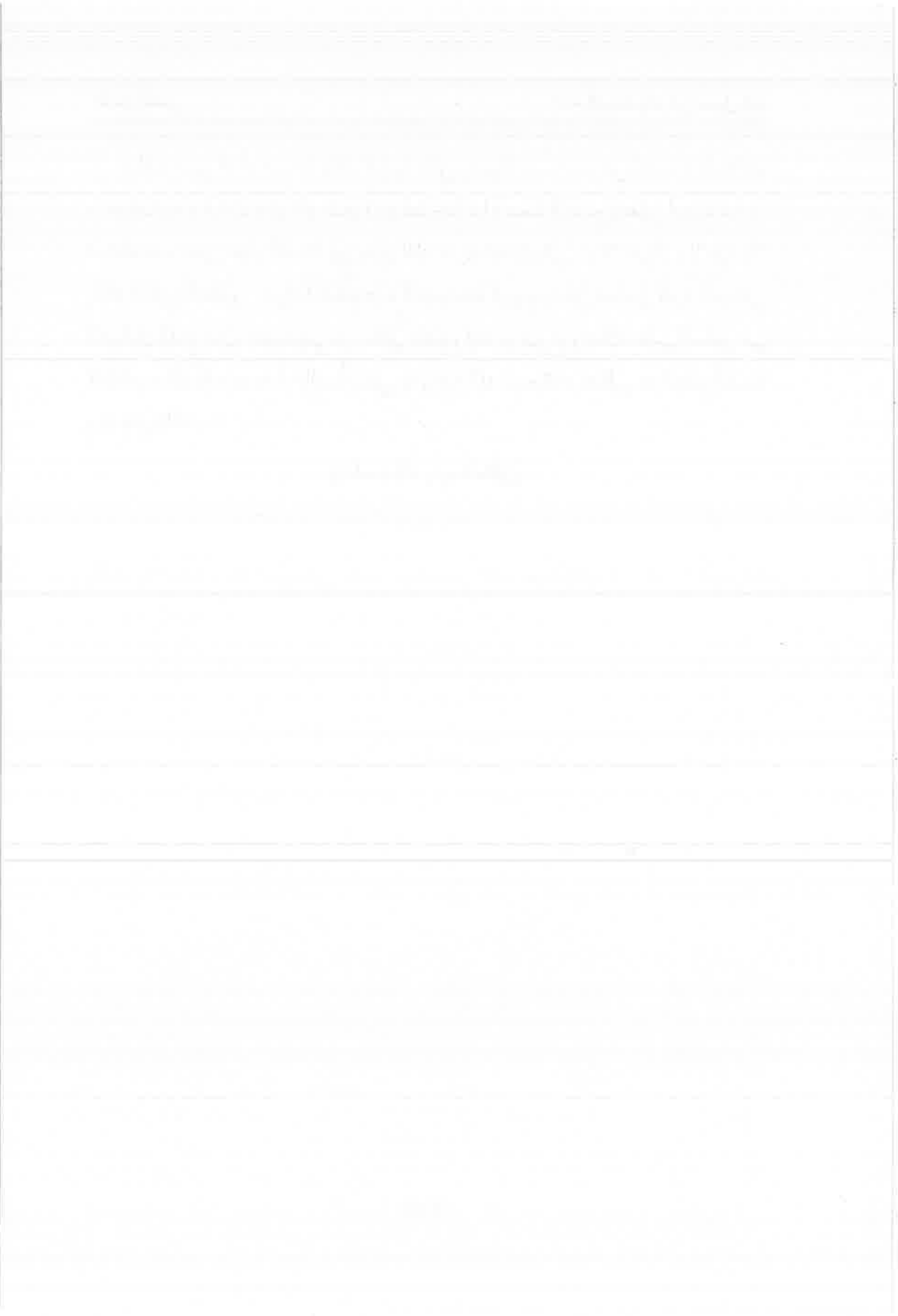
لقد وضح الآن ، بصورة تنفي الشك ، أن خطر اليهود أصبح يهدد العالم العربي والعالم الإسلامي . ولقد سبق أن أعلن اليهود عن مطامعهم ، وأعلنوا المخططات التي تمثل هذا الخطر . ولكنه الآن لم يَعُدْ مخطَّطات ، وإنما زحف مدبَّر !

ونكرر تحيّتنا لكل من جاهد في سبيل الله ، بنيَّة خالصة لله ، خاضعاً لشرع الله ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يصلح حال المسلمين جميعاً . إن المسلمين اليوم محاسبون بين يدي الله سبحانه وتعالى عن التقصير في هذه القضية وترك فئة لا تستطيع وحدها مجابهة أعتى دولة في المنطقة وأخطر مكر وكيد ، تسنده الدول الكبرى كلها ! إننا لا نُقر تفرُّق المسلمين شيعاً وأحزاباً ، ولا إدبار المسلمين عن أن يكونوا أمة واحدة ، ففي ذلك إثم عظيم جداً، دونه آثام كثيرة . وقد يغفر الله لمن قتل نفسه دون أن يعلم حُرْمة ذلك ، ولكن هل يغفر الله لمن تفرَّقوا وهانوا وأدبروا عن الجهاد في سبيل الله ؟

إن الخطر لم يَعُدْ محصوراً في فلسطين وحدها ، وإنما أصبح خطراً يهدِّد كلَّ أرض إسلامية . ولم يعد الواقع يكفيه شعارات ومواقف جزئية آنيَّة ولا بطولات فرديَّة ، وإنما يحتاج إلى يقظة شاملة ، وخُطَّة كاملة ، ونهج ممتدٍّ متكامل ، لينبع ذلك كله من منهاج الله ويرتبط به .

ولقد سبق أن أوضحنا ذلك كثيراً بكل وسيلة تيسَّرت : في كتب ومقالات وندوات ومؤتمرات ، نثراً أو شعراً ، ونصحنا ما وسعنا النصح وعلى أوسع مدى استطعناه ، حتى نعذر أنفسنا بين يدي الله سبحانه وتعالى . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وإننا نقدِّم هذه النصيحة اليوم ونحن نحمل الودَّ الصافي الصادق للمؤمنين جميعهم ، وسنظلُّ نقدم رأينا بوضوح وجلاء على أساس من الكتاب والسُّنَّة ، نصحاً خالصاً نبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى ، ولنعذر أنفسنا بين يدي الله .

والحمد لله رب العالمين



(٦)

قضية فلسطين
والدولـة الفلسطينيـة
أخطـاء في مسـار القضيـة

إن القضية الفلسطينية لم تبتدئ بنهاية الحرب العالمية الأولى كما يرى بعضهم ، بل ابتدأت قبل ذلك حين قامت الحركة " الصهيونية " وارتبطت مع السياسة الدولية على بناء وطن قومي لليهود في فلسطين . فكانت القوى الفاعلة هي السياسة الدولية والحركة الصهيونية . وأما سائر القوى فإنها كانت تحت تأثير هذه السياسة الدولية . ونستطيع أن نقول إنّ السياسة الدوليَّة كانت هي العامل المؤثر والموجِّه الأول منذ ذلك الوقت حتى اليوم ، سواءً أكان ذلك بطريق واضح مكشوف أم بطريق مخفي .

واستمرت السياسة الدولية بقواها الكبيرة مع الحركة الصهيونية هي التي تؤثر في القضية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، حيث قام الانتداب البريطاني على فلسطين ، ليكون هو والحركة الصهيونية الموجِّهين العمليَّين المباشرين لقضية فلسطين . أما الفكر القومي أو غير القومي في العالم العربي الممزّق لم يكن له التأثير الذي يتصوّره بعضهم ، **بل كان هذا الفكر نفسه تحت تأثير القوى الدولية التي جزَّأت العالم العربي وتقاسمته وأفقدته قواه ، وتسلَّلتْ إلى ساحاته وكياناته .**

لقد بدأ دور الفلسطينيين مع أول ثورة ضد الإنجليز واليهود في فلسطين في أوائل العشرينات من القرن السابق . ولم تستطع الدول العربية أن تلعب دوراً إيجابيّاً مؤثراً وهي في ظل الانتداب المسيطر عليها آنذاك . ولكن الشعوب حاولت بصورة فردية أن تعين عوناً لم يغيّر مسيرة السياسة الدولية .

لقد بذل المسلمون في فلسطين جهدهم لنقل القضية إلى العالم الإسلامي .

وعُقدت مؤتمرات لذلك في فلسطين وغيرها ، اعتباراً من سنة ١٩١٩م حيث اختلطت التصورات الإسلامية والقومية العربية والإقليمية ، فقامت مؤتمرات عربية ، ومؤتمرات إقليمية ، ثمَّ بدأت مؤتمرات إسلامية اعتباراً من سنة ١٩٢٨م حيث عُقد المؤتمر الإسلامي الأول ثم الثاني والثالث . ولكن ظلَّ للانتداب البريطاني والسياسة الدولية الدور الأول في توجيه قضية فلسطين ، وتسهيل خطوة ومنع خطوات ، ففشلت المحاولات الجادّة لنقل القضيَّة إلى العالم الإسلامي ليحمل مسؤوليته في هذه القضيَّة . ومما ساعد على هذا الفشل تَمزُّق العالم الإسلامي وضعف المسلمين الكبير .

مع سنة ١٩٤٨م تحرَّكت الجيوش العربية دون أي إعداد أو خطَّة أو نهج ، ودون أن يكون لها تأثير فعَّال في توجيه قضية فلسطين ، إلا في الحدود التي ترسمها السياسة الدولية وقوى الانتداب المسيطرة على العالم العربي . فَهُزِمَت الدول العربية وقامت دولة اليهود .

وفي حدود سنتي ١٩٥٧م ، ١٩٥٨م بدأت تنتشر فكرة الدولة الفلسطينية وفكرة تحويل القضية إلى الفلسطينيين ، وبدأ العمل في مواقع متعدِّدة لاختيار العاملين من الفلسطينيِّين ، وتكوين ما سمي بعد ذلك بالفصائل الفلسطينية .

وبدأ يبرز ياسر عرفات ومن معه ، وبدأت نواة حركة فتح تظهر وأخذ الاتجاه الفلسطيني للقضية يأخذ الصورة العمليّة .

في هذه المرحلة نصحتُ قدر جهدي لياسر عرفات وصلاح خلف وخليل الوزير وكمال عدوان وآخرين ، كما نصحت لبعض الفصائل وللحركات الإسلامية ، بأن هذا الاتجاه لا يحرر فلسطين ولا يعيدها إلى حوزة الإسلام . **ولا يُعقَلُ أن تُحرَّر فلسطين إلا بأمة مسلمة واحدة ، تنزل صفّاً واحداً إلى أرض فلسطين** . وأنه يجب أن تنصبّ الجهود كلها على تحقيق هذا الهدف الرباني ، فإن صدقت القلوب والجهود فعسى أن يفتح الله لها أبواب الفلاح والنصر .

ولقد أقمنا تنظيماً فلسطينياً إسلامياً في القاهرة لينطلق في صفوف المؤمنين يدعو إلى لقاء المؤمنين . ولكن الجهود تناثرت وتحوّلت ، وتعطل هذا التنظيم ، ليس من الأعداء ، ولكن من المسلمين أنفسهم . إلا أنني مضيتُ أدعو إلى ذلك باسم **مدرسة لقاء المؤمنين** ، لتكون قضية كل مسلم وبيت مسلم ، وحركة إسلامية ، ومجتمع مسلم ، ولتكون ذات نهج مفصّل له نظريته العامة ، ومناهجه المفصَّلة ، ونماذجه وقواعده ، وله أهدافه الربانيّة المحدّدة والوسائل إلى تحقيق هذه الأهداف ، إلا أنها مسؤولية الجميع يحاسَبون عليها بين يدي الله يوم القيامة .

وفي سنة ١٩٦٤م أعلن عبد الناصر بيانه أو تصريحه المشهور لصحيفة " **ليبرتي** " الجزائرية بأنه قد تم الاتفاق على إقامة منظمة جديدة للفلسطينيين يكون لها جيشها الخاص تموله الدول العربية ، لتنفّذ مقررات التقسيم . فالاتجاه إلى جعل قضية فلسطين بيد الفلسطينيين وحدهم أخذ صورةً رسميّة عندئذ ، ولم يكن هذا قراراً فلسطينياً ، وإنما كان قراراً عربياً ، قبله بعض الفلسطينيين ، وتولته كل وسائل الإعلام ، وقامت المنظمة محورها فتح والفصائل الأُخرى .

نعم ! يجب أن نقرَّ أنَّ هذا الاتجاه بتحويل القضية الإسلامية إلى قضيَّة عربيَّة ، ثمَّ إلى قضيَّة فلسطينيّة لتكون مسؤولية الفلسطينيين وحدهم ، مع دعم بالمال وغيره ، هو الخطأ الكبير في ميزان الإسلام، لأنَّ هذه القضية مسؤولية كل مسلم في الأرض ، وكل مسلم محاسَب بين يدي الله عن ذلك . وإن كان الفلسطينيون أخطأوا بقبول هذا الدور ، فإنَّ العرب والمسلمين أخطأوا بتبنّي هذا الدور . وكان هذا التبنِّي قراراً عربياً وإسلامياً في وقت واحد ، كما تبيّنه الوثائق والأحداث . وقد تبنَّى الجميع : فلسطينيون ، وعرب ومسلمون ، شعار " **القرار الفلسطيني المستقل** " ، ولكنه في الحقيقة لم يكن مستقلاً أبداً . ما يجري في العلن غير ما تخفيه الكواليس ، وتبنَّوْا شعار " حق تقرير المصير للفلسطينيين " الشعار الذي دعا إليه العرب والمسلمون وتحمس له الفلسطينيون .

لقد أصبحت المطالبة بدولة فلسطينية مستقلة شعاراً تعلنه المنظمة ويتبناه

الجميع بما فيهم السياسة الدولية كما تُعْلن ! وما هي هذه الدولة التي ضحَّى الفلسطينيون بالكثير من أجل إقامتها ، وأصبحت هي المطلب الرئيس لجميع الفصائل الفلسطينية ؟! دولة لا تملك أي شيء أبداً من مقومات الدولة . الماء من دولة اليهود ، الكهرباء من دولة اليهود ، العمل وكسب الرزق في دولة اليهود . تستطيع دولة اليهود أن تقتل من تشاء في أي وقت تشاء ، وتهدم من البيوت ما تشاء ، وتحجز رئيس الدولة في غرفة لمدة عامين لم يلتفت إليه أحد من العالم ، وما أنقذه إلا المرض والموت . وتستطيع أن تأخذ أحمد سعدات ومن معه ومن حوله من سجن أريحا مع تواطؤ دولي ، دون أن يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إلا الاحتجاج والاستنكار " **وتحميل إسرائيل المسؤولية عن ذلك !!** " **والمظاهرات !!**

جميع من نزل ميدان القضية الفلسطينية من الفصائل كان يبتدئ بأشدّ الشعارات حماسة للقضاء على إسرائيل وتدميرها وإزالتها ، وكذلك بعمليات عسكريّة تُكسبُ التأييد وتجمع حولها الأنصار والجماهير . ويمضي ذلك ثم يبدأ التنازل وتغييرَ الشعارات ، دون أن تجد من يعارض أو ينصح أو يقوم . ونلمس من خلال ذلك ، ومن خلال ضعف المسلمين ، أن السياسة الدولية مازال أثرها ممتداً قويّاً في جميع مراحل القضية ، وربَّما امتدّ أثرُها حتى على الفكر والشعار والموقف .

وإذا كان وضع القضية في أيدي الفلسطينيين مع القرار الفلسطيني المستقل ، وحق تقرير المصير لهم ، هو التحوّل الكبير والخطأ الأول ، فإن التحوّل الثاني كان المطالبة بدولة فلسطينية ، تحوّلاً لا يحمل شعار تحرير فلسطين ولا إزالة إسرائيل ، وربما حمل شعارات جديدة لتسويغ هذا التنازل والتحوّل تسويغاً أمام الرأي العام الفلسطيني والعربي والإسلامي ، دون أن يكون له حاجة أو دور أو تمرير في جو السياسة الدولية ، السياسة صاحبة التأثير الأكبر . ويمكن أن تساهم السياسة الدولية مع القوى الأخرى في " **عمليّة الإخراج المسرحي** " لكل تنازل وتحوّل .

حين يكون الإنسان خارج السلطة والحكم يستطيع أن يقول ما يشاء ويطلق من الشعارات ما يشاء ليكسب التأييد والأنصار . فإذا جلس على كرسي السلطة وبدأ يتعامل مع القوى الدولية ، وهو لا يملك من الإعداد والقوة والنهج ما تملكه تلك القوى ، تبدأ الشعارات يقلُّ ضجيجها شيئاً فشيئاً ، ثم يبدأ التناقض بينها ، ثمَّ يقلُّ ضجيج الصواريخ وتفجير النفس ، ثم يبدأ التراجع . كلُّ مرحلة تحتاج إلى فن في الإخراج ، لتتغير الشعارات والأهداف والمواثيق ، ولا يبخل الإعلام في المساهمة في كل مرحلة وكل إخراج .

ولقد رفضتُ فكرة الدولة الفلسطينية منذ بداية انتشارها ، وحين أخذ المسلمون يتبنَّونها في نشاطهم الخاص ومواقفهم وبياناتهم . ولقد رفضت فكرة الدولة الفلسطينية للأسباب التالية :

أولاً : هنالك واجب شرعي يفرض على كل مسلم أن ينهض لقضية فلسطين ، لتكون القضية إسلامية كما يُريدها الله ، لا مجرّد شعار . ولذلك يجب التنبيه على هذا الواجب والدعوة إليه بقوة وإلحاح ، لأننا محاسَبون بين يدي الله عن ذلك . والمسؤولية مسؤولية شرعية وواجبات والتزام ، وليست مجرّد شعار ! والموقف يوم القيامة أشدُّ هولاً من كلِّ أهوال الدنيا !

ثانياً : إذا لم يكن المسلمون قادرين على تبني القضية آنذاك ، فكان الواجب إذن الدعوة والتذكير والإعداد لجمع كلمة المؤمنين صفّاً واحداً . ولا يحلّ أن نجعل الضعف مسوّغاً للدعوة إلى ما هو غير حق ، إلى ما يزيد التمزق والهوان ، وما لا يرضي الله ، أو إلى التخلّي عن الدعوة إلى جمع كلمة المؤمنين .

ثالثاً : إن التكاتُفَ والتعاون على البناء وإعداد القوة كان أمامه فرصٌ كثيرةٌ وزمنٌ واسع ، لو صدقت النفوس وأخلصت إلى ربّها ، ونهضت إلى ما يأمرها به الله .

رابعاً : إنّ المطالبة بدولة فلسطينية على جزء صغير من فلسطين ، تمنحه لنا الدول الكبرى وإسرائيل ، هو اعتراف رسميّ بدولة اليهود ، ولو أعلنا خلاف ذلك . كيف لا يكون اعترافاً ، وقد اعترف كثير من العرب ، ونشطت العلاقات الرسمية بينهم وبين دولة اليهود ، وامتدّ نفوذ دولة اليهود إلى بعض البلدان الإسلامية ، وبدأت بعض النفوس تتقّبل ذلك ! نحن يعلو ضجيج شعاراتنا على غير نهج ولا خطّة ، واليهود والغرب بعامة يمضون بنهجهم وخططهم بهدوء ، ثم لا نشعر إلا بعد سنين طويلة أنهم بلغوا أهدافهم أو بعضها ، وأنّا فقدنا الكثير .

خامساً : إنّ أول أثر للمطالبة بدولة فلسطينية والقبول بها هو تهيئة النفوس للتعامل الواقعي مع دولة اليهود ، تعاوناً يفتح لها الحدود والقلوب ، مهما أخذ هذا من زمن . وإن شعارات الرفض وضجيجها سرعان ما تخفت وتختفي ، ولو أخذ ذلك زمناً .

سادساً : لقد كانت مساحة دولة اليهود حسب التقسيم سنة ١٩٤٨م مساحة محدَّدة ، ومنذ ذلك الوقت ، ومع القتال والانتفاضات نالت دولة اليهود مساحات كبيرة أخرى ، وما زالت تأخذ مساحات أخرى . وسبب ذلك كما بيّنا في أكثر من كتاب ومقال ، أننا نمضي بشعارات دون وجود نهج لتحقيق الشعارات ، ثم تختفي الشعارات أو تُطْوَى أو تتبدّل ، كلُّ ذلك من خلال تغطية إعلاميّة كبيرة . أما اليهود فهم يسيرون على مخطّط ونهج واضح لديهم يدعمهم فيه الكثيرون ، مع توافر القوة لتحقيق أهدافهم . وسبب آخر هو أننا حين نغير الشعارات فلا أحد يحاسب أو يعترض أو ينصح ، أما اليهود فلو خالف أحدهم عهده والتزامَه فإنه يحاسَب وقد يفقد مركزه .

سابعاً : إن المسؤولية الكبرى على الدعاة المسلمين هي تبليغ دين الله إلى الناس كافّة كما أُنزل على محمد ﷺ ، وتعهّدهم عليه ، وبناء الأجيال المؤمنة

على طريق بناء الأمة المسلمة الواحدة . وأرى أن كثيراً جداً من الدُّعاة شُغلوا عن هذا الأمر وتخلّوا عنه ، بعد أن أُلْقِيَ لهم ما يشغلهم : الانتَخابات وتنافسها ، الصراع على الدنيا فيَ ميادين تأكل الجهود والطاقات والأموال ، حتى لم يعد لعمل الدعوة الأساس الجوهري أي فسحة من الوقت . وأشدُّ ما ألهى المسلمين الفلسطينيين عن جوهر الدعوة هو السعي إلى الدولة الفلسطينية ، وما أخذت من جهود وصراعات ، كان أولى أن تنصرف إلى تبليغ الفصائل دين الله وتعهدهم عليه ، والمضيّ في المقاومة بدلاً من التنافس على الدنيا ، والتعاون الجاد على بناء الأمة المسلمة الواحدة . ونرى كذلك أن السعي وراء الدولة الفلسطينية دربٌ مليء بالوحول ، فما حاجة المسلمين إلى التورّط في هذه الوحول ؟!

ثامناً : هذه الدولة التي يدور عليها الصراع ، ويُبذل من أجلها الأنفس والدماء وعمليات تفجير المسلم نفسه ، وتهديم العمائر على أهلها ، واغتيال الناس ، هذه الدولة تقوم على أرض لا تملك أيّ شيء من مقومات الدولة : الماء والكهرباء من دولة اليهود ، كثير من عائلات الفلسطينيين ينالون رزقهم من عملهم عند اليهود ، اليهود تقتل من تشاء في أي وقت تشاء ، تفتح المعابر أو تغلقها ، تخنق الدولة أو تريحها ، وبصورة موجزة هي دولة ستظل تحت رحمة إسرائيل والدول المانحة ، فلا تستطيع أن تعيش دونهم .

تاسعاً : لقد كان السعي إلى هذه الدولة باب فتنة واضحة . لقد أصبح الشعار لدى الجميع شعار الديمقراطية ، وأصبح النصر الذي تقام له المهرجانات والاحتفالات هو النجاح في الانتخابات وليس تحرير فلسطين . وأصبحت المهرجانات تُسمّى " **عرس الديمقراطية** " ! وحتى في البيانات الرسمية والأهداف المعلنة لَا نجد للإسلام نَصيباً . إنَّ الفتنة أصبحت واسعة .

عاشراً : أن قبول الفلسطينيين أن يتولوا القضية بأنفسهم كان الخطأ الكبير الأول في مسار القضية . ذلك لأنهم لا يملكون القدرة ولا الإمكانات للقضاء على إسرائيل ، خاصة وأن الدول العربية بأجمعها ، كما تبيّن ، لم تخض معركة عسكرية مع اليهود إلا معركة ١٩٤٨م التي هزم فيها العرب ، وحرب ١٩٦٧م التي هزم فيها العرب . فلماذا دُفِع الفلسطينيون وحدهم لمجابهة إسرائيل ؟!

أحد عشر : المعركة ليست مع اليهود وحدهم ، فأمريكا وأوروبا وروسيا والصين معهم في صف متساند . والفلسطينيون وراءهم أمّة ممزّقة وشعوب متفرّقة .

ثاني عشر : منذ بداية القضية حتى اليوم ، كان العامل الأقوى المؤثر هو السياسة الدولية ، أي الدول الكبرى . ومنذ بدايتها حتى اليوم ، لم يُعدَّ المسلمون الإعداد الذي أمرهم به الله ، وربما ازدادوا ضعفاً وهواناً . ولو بُذلت الجهود الإيمانيّة الصادقة المنهجيّة لبناء الأمة المسلمة الواحدة ، فربما كنا الآن في وضع أفضل من أن نُشغل فيما لا جدوى منه ، وربما كنا أقرب للتقوى ولرضاء الله سبحانه وتعالى . وكان أهم دور للسياسة الدولية استدراج المسلمين إلى مخططهم وأهدافهم ، فيرفضونها أولاً ، ثم يصمتون ، ثم يرغبون ، ثم يَدْعُون إليها ويتبعونها . ونرى ذلك واضحاً في فكرة الدولة الفلسطينية .

كان رفضي لفكرة الدولة الفلسطينية مبكراً منذ أن أعلن هذا الاتجاه ، وكان مستمرّاً مع جميع المراحل التي كانت تدلُّ على سلامة تصوّري وسلامة ردّه إلى منهاج الله . وكان واضحاً مصدر هذه الفكرة منذ البداية .

ومازال رأيي اليوم ، كما كان سابقاً ، بل زدتُ إيماناً بصحته بعد أن تبيّن أن هذه السنين التي مضت زادت المسلمين تمزُّقاً وضعفاً ، وزادت مساحة دولة اليهود ، وضاقت مساحة دولة فلسطين التي يُجاهد من أجلها ، وزاد واقع قطاع غزة

والضفّة اضطراباً ومشكلات ، وزادت العصبيات الجاهلية ، والخنق الاقتصادي ، والافتقار إلى قوّة الإعداد والنهج والخطة الفاعلة .

وكان من أبرز مظاهر مراحل السنوات السابقة في قضية فلسطين منذ قيام اتجاه تسليمها للفلسطينيين ، أن العمل كان يلقى التأييد والتشجيع دون أن يلقى النصح الأمين والتذكير . ومازال هذا الأسلوب ماضياً حتى اليوم بين المسلمين . فقد يصْدر بيانٌ يدعو إلى تأييد هذا الموقف أو ذاك دون ردّه إلى منهاج الله ، ودون كلمة نصح للعودة عن الخطأ والانحراف ، ودون التذكير بوجوب مضيّ الدعوة إلى الله ورسوله وتبليغ دين الله إلى الناس كافة كما أُنزل على محمد ﷺ وتعهّدهم عليه ، وعلى طريق جمع كلمة المؤمنين الصادقين على الحق وبناء الأمة المسلمة الواحدة .

إن واقع قطاع غزة الآن مليء بالمشكلات المعقّدة . وقد خلّف التاريخ السابق للقطاع منذ أكثر من نصف قرن عصبيات جاهلية : عائلية وحزبية وشخصية وقومية ، عصبيات أدت إلى مصادمات دموية بين الناس أنفسهم ، وأدت إلى صراعات شديدة ولم تستطع الحركة الإسلامية خلال السنين الماضية كلها أن تبني هذا المجتمع على أسس ربانيّة إيمانيّة تخلو من هذه العصبيات والأهواء ، حتى تفشّى في المجتمع الجرائم والتفلّت وضياع الأمن . وقد عجزت القوى نفسها عن توفير أسباب الأمن ، وربّما ساهم النزاع بين القوى في عدم استتباب الأمن ، بالرغم من مصطلحات : الوحدة الوطنية ، مصلحة شعبنا ، مصلحة الفلسطينيين ، حتى كادت المصطلحات والشعارات تخلو من كلمة الإسلام ودعوة الإسلام وشرع الإسلام ، بل غلبت ، حتى على المسلمين أنفسهم ، مصطلحات الديمقراطية وأعراسها ونصرها ! وغَلَبَتْ العصبيات الجاهليّة والحزبيّة والإقليمية !

وغلبت مصطلحات كثيرة دون توفير خطة إيمانيّة أو نهج إيماني ليحدّد الدرب الواضح والأهداف المتماسكة . وغلبت مصطلحات أخرى يمكن تمريرها في المجتمعات الفلسطينية والعربيّة ، ولكن يصعب تمريرها في الساحة الدوليّة .

الآن لا بد أن يُطرح سؤال محدّد واضح : ماذا نريد الآن وما هو الهدف الواضح ؟! وما هي الإمكانات لتحقيق الشعار والهدف ؟! وما هي الخطة والنهج ؟!

أشعر أن القضيّة لم تجد الكلمة الناصحة الأمينة بقدر ما وجدت التشجيع والتأييد والهتافات والمظاهرات ، دون وقفة تقويم ومحاسبة . واليوم أقرأ لهذا وذاك ، ولبعض الأساتذة ، كلمات التشجيع والتأييد دون أن أجد كلمة نصح واعية تعين في هذا الموقف الصعب .

وأشعر كذلك أن من يتكلمون ويؤيدون ويشجعون ينطلق كلامهم من أرائك الراحة والاسترخاء ، كأن القضيّة هي قضية الفلسطينيين وحدهم ، لا قضية كل مسلم .

إن هذه القناعة النفسية ، العميقة في داخل النفس ، نتجت عن التاريخ السابق للقضية ، وما مرّت بها من مراحل . لم يعد لدى بعض المسلمين اليوم ، ما يُشْعِرُهَم بأن هذه القضيّة قضيّتهم ومسؤوليتهم ، وسيحاسَب الجميع على ذلك بين يدي العزيز الجبار !

إن موقف العاملين في القضيّة أنفسهم ، ركّزوا هذه النفسية ومدّوا جذورها ، حين قبلوا بتحمّل المسؤولية وحدهم ، ومضوا في طريق صعب يمارسون هذه المسؤولية ، ويكتفون بالعون المادي ، فلا يمدون يدهم ولا يطلبون العون ، إلا حين يشعرون بالحرج والحاجة وعظم المسؤولية والخطر الداهم .

وكنت أودُّ لو أن الجهود تنصبُّ كلُّها على بناء الأمة المسلمة الواحدة ، ولقاء المؤمنين المتقين الصادقين الذين يريدون الله ورسوله والدار الآخرة لا الدنيا ، في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص ، كما أمر الله سبحانه وتعالى ، لينْزل هذا الصفّ الواحد على نهج وإعداد إلى ميدان فلسطين : صفّاً واحداً ، وأُمّةً مسلمة واحدة ، فيتحقّق وعد الله ونصره ، كما جاء في كتاب الله آيات كثيرة مبشرة ومنذرة :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]

وكذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف: ٤]

وكذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٦، ٤٧]

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

ولا بد أن يأتي يوم يتحقّق فيه هذا اللقاء، وتتحقّق فيه هذه الأخوة الإيمانية بين المسلمين جميعاً، عندئذ يتنزّل النصر من عند الله، ويتحقق حديث رسول ﷺ : فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " **لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر . فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهوديٌّ خلفي ، فتعال فاقتله . إلا الغرقد فإنه شجر اليهود** " [رواه مسلم][1]

فتدبَّرْ هذا الحديث، واسمع فيه قوله : يا مسلم ! يا عبد الله !، لا يقول يا فلسطيني، يا مصري، يا سوري، .... ! ولا يقول يا غزِّي، يا نابلسي ! ...! فقط : يا مسلم ! يا عبد الله !

(١) مسلم : ٥٢/ ١٨/ ٢٩٢٢.

فحين يلتقي المسلم بالمسلم في رباط أخوة الإيمان ، لا تقطعه العائلية والقبلية والحزبية ، وسائر العصبيات الجاهلية ، عندما يتمّ هذا اللقاء ، وتقوم أمة الإسلام كما يريدها الله ورسوله ، عندئذ يمكن تحرير فلسطين وإعادتها إلى دار الإسلام ، التي تكون قائمة داراً واحدةً وأمةً واحدةً !

وأجمع رأيي هذا ، بعد أن بَيّنتُهُ بالحجّة والبيّنة من الكتاب والسنّة ، وبعد أن فصّلته في كتب عدة نشرتُها ، أجمع رأيي في بيت واحد من الشعر :

إذا لم تقمْ في الأرض أُمَّة أحمدٍ فكلُّ الذي يجري على الساح ضائع(١)

ولا بد أن نؤكد في هذه المناسبة أن الحزبية التي جعلت الولاء لها مزّقت المسلمين ، مع العوامل الممزّقة الأخرى ، وفتّتتْ قواهم ، بعثرتهم ، وبعثرت جهودهم على غير جدوى .

وأرجو أن تكون كلمتي هنا كلمةَ نُصْح إضافةً إلى ما سبق أن قدّمته من نصح ، فكلُّه على نسق واحد ، ينطلق من تصوّر واحد ، نابع من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن الكتاب والسنة ، ومن مدرسة النبوّة الخاتمة الممتدة مع الزمن كله .

وحين ننصح لأحد فإننا ننصح أولاً أنفسنا ، وأهم ما ننصح به لأنفسنا وغيرنا أمور أساسية أوجزها بما يلي :

أولاً : يجب ردّ الأمور كلِّها صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله وحده ردّاً أميناً ، كلٌّ في حدود وسعه ومسؤوليته ، ومن ذلك يمكن أَن يصدر الاجتهاد .

ثانياً : يمكن الاستعانة برأي الأئمة السابقين ما دامت البيّنة لديهم متوافرة من الكتاب والسنة .

ثالثاً : محاسبة النفس بصورة مستمرّة ، حتى يتأكد المسلم من إخلاص نيته وصدق علمه وسلامة حجّته وبيّنته وسلامة دربه على صراط مستقيم .

---

(١) من قصيدة : رسالة من المسجد الأقصى إلى المسلمين - ديوان عبر وعبرات - للمؤلف .

ومن هذا المنطلق ننصح كذلك لبعض المجتهدين الذين أعلنوا رأيهم سواءً أكان في موضوع قتل النفس بتفجيرها ، أو بما يؤيدون أو ينكرون من أمور تتعلّق في ساحة الجهاد ، ننصح لهؤلاء المسلمين أن دورهم الحقيقي هناك في الساحة يجاهدون فيَقْتلون ويُقْتلون في سبيل الله . إن مجرّد إصدار بيان تشجيع أو نقد لا يسقط المسؤوليّة التي فرضها الله على المسلمين ، على كل مسلم قادر .

ولقد كان العلماء والفقهاء والدعاة في الصف الأول في ميدان الجهاد في سبيل الله أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، إلا من عذر الله .

الساحة ليست لقوم دون آخرين . الساحة لأمة الإسلام كلها ، وكلنا مسؤولون ومحاسبون بين يدي الله . ونؤكد أن فلسطين ليست للفلسطينيين وحدهم ، إنها للإسلام ولأمة الإسلام .

فمتى ينزل المسلمون إلى ساحاتها : فتياناً وشباباً وكهولاً وشيوخاً ، متعلمين ، وعالمين ، علماء وأئمة ودعاة ، حاملين في قلوبهم منهاج الله إيماناً وعلماً ، صفّاً واحداً ، فعسى أن يُنَزِّل الله نصره حينئذ !

لا بدّ أن نذكر بأنه لا يمكن أن نفصل قضية فلسطين عن قضايا العالم الإسلامي . إنها قضايا متداخلة مترابطة لتكوِّن قضيّة واحدة هي قضية الإسلام أولاً وأخيراً . ولا يُعْقَل أن نعالج قضايا الإسلام واحدة واحدة بصورة منفصلة ، فلا الواقع يسمح بذلك ، ولا الإمكانات تعين على ذلك ، ولا الزمن يوفر هذه الفرص ، وسيزيد هذا الأسلوب تمزيق المسلمين أكثر مما يوفّر فرصة جمعهم . وهذا الأسلوب سيجعل بعض الجبهات تضطر إلى التنازل الفكريّ إلى الحداثة والديمقراطية والعلمانية ، أو إلى التنازلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما نرى في واقعنا اليوم .

إنّ الإسلام يحتاج اليوم إلى انطلاقة صافية صادقة تؤثر الآخرة على الدنيا ، تحمل النهج والخطة التي تجمع ، والإعداد الذي يبني ، تتخلّى عن جميع أشكال

العصبيات الجاهلية ، تدرك المعنى الحق لـ " **سبيل الله** " ، تمضي إليه على صراط مستقيم ، يملأ قلوبها صفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، والقدرة على ممارسته في الواقع ممارسة إيمانيّة صادقة ، لتقوم الأُمة المسلمة الواحدة صفّاً واحداً ، ولتكون كلمة الله هي العليا .

إنها مسؤولية الجميع أن يدعوا إلى ذلك أو يُعينوا ويدفعوا على نهج محدَّد وخُطَّة مدروسة يلتزمها الجميع ، خُطَّة تنفي أسباب الفرقة ونوازع العصبيات الجاهلَية : العائليّة والقبلية والإقليمية والقومية والحزبيّة ، لتحلَّ أُخوّةُ الإيمان التي أمر الله بها بدلاً من العصبيات الجاهلية التي حرَّمها الله ورسوله .

ونعتقد أن من أهم أسباب هذه الانحرافات ، عجزَ المسلمين عن مجابهة الواقع وأحداثه بالكتاب والسنة ، بمنهاج الله كما أُنْزلَ على محمد ﷺ ، منهاج الله الذي أنزله الله ليكونَ الحقَّ الممتدَّ مع الزمن كلِّه والواقع كلِّه والأمكنة كلها ليقدِّم الحلولَ لكلّ مشكلات الإنسان إلى يوم القيامة ، وكان من أثر عجز المسلمين بسبب جهلهم وتمزّقهم أن ذهبوا إلى ضلال الاشتراكية والديمقراطية والعلمانيّة والحداثة ، فزاد تفرُّقهم وتمزُّقهم ، وازدادوا فتَناً ووهناً ، والهَدْيُ الحقّ بين أيديهم ، فرغبوا عنه ، فجهلوه فتفرَّقوا شيعاً كل حزبٍ بما لديهم فرحون .

وخلاصة ذلك أنّ أعداء الله استطاعوا أن يُلْقُوا بين المسلمين قضايا وأفكاراً وممارسات استدرج إليها المسلمون فأُشْغلوا به إشغالاً كبيراً ، وصرفتهم عن جوهر قضاياهم الرئيسة ، وعن المهمّة الأولى والقضيّة الأخطر : الدعوة والبلاغ والبيان لدين الله إلى الناس كافة ، كما أُنزل على محمد ﷺ ، وتعهُّدهم عليه ، كما أمرهم الله ، ليمضوا بذلك على صراط مستقيم بيّنه الله وفصّله .

شُغلوا بالتعدّدية والحزبيّة ، وشُغلوا بالانتخابات وغيرها ، وشُغلوا بكثير من البدَع التي قَتَلوا فيها أوقاتهم وأموالَهم وجهودهم ، ومع طول المدَة التي شُغلوا فيها بذلك ، وبروز الأضرار والخسائر والهزائم والهوان والتخلّف ، مع ذلك كله

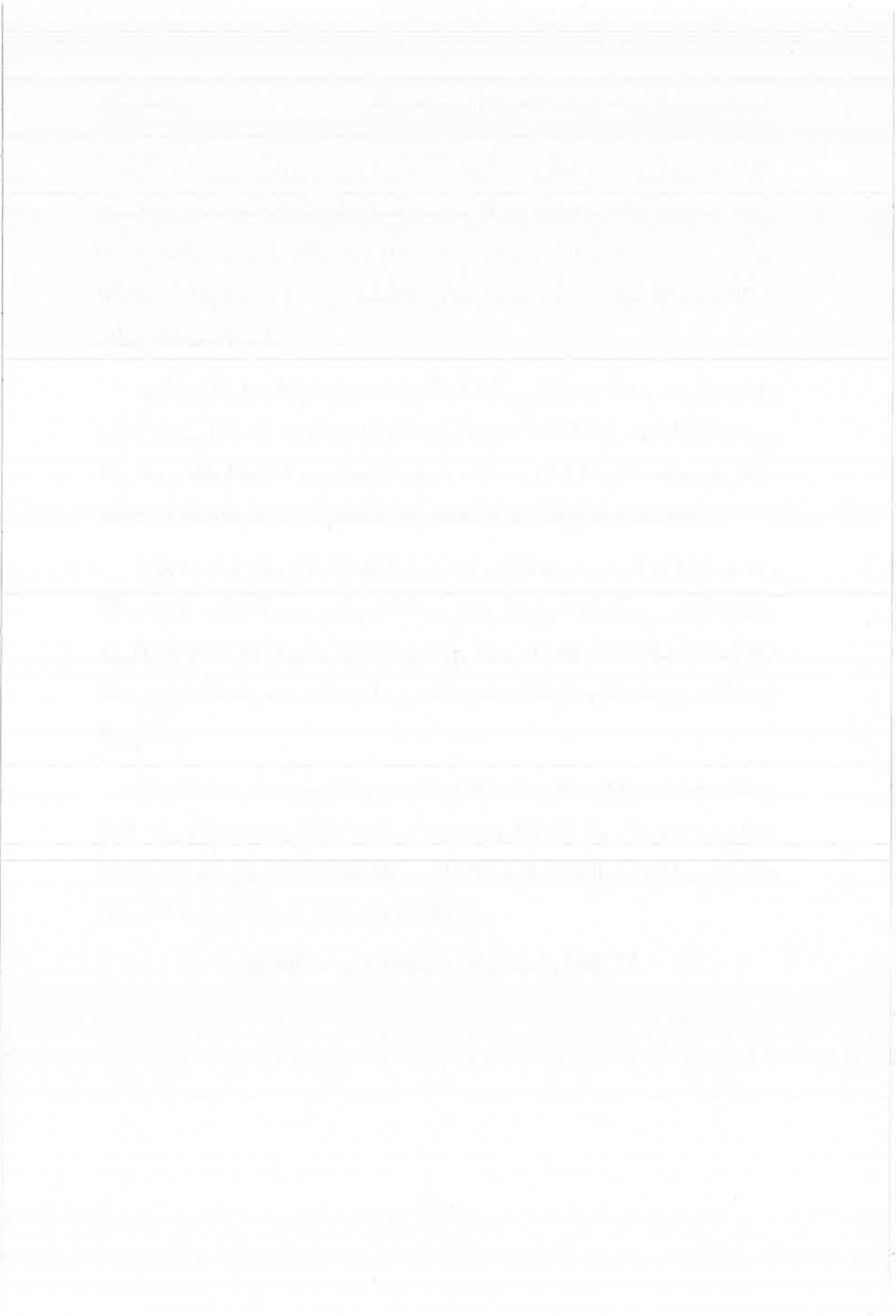
فمازال الكثيرون غارقين في وحول الانحرافات والبدع ، حتى لم يعد هناك اهتمام أو وقت لمعالجة الخلل الواضح والمرض البيّن ، وتراكم الخلل والمرض حتى أصبح هنالك من يرى الخلل صواباً والمرض عافيةً ، وماتت النصيحة وسُدَّت الآذان وتفاقم السوء ، حتى جعلنا من الهزيمة نصراً نقيم لها الاحتفالات والمهرجانات والأعراس .

من أبرز الظواهر التي انتشرت على ألسنة الجميع قولهم : أن تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة . ويعنون بذلك حتى حدود " ١٩٦٧م " ، وكأنَّ الأراضي التي تقوم عليها دولة اليهود ليست أرضاً محتلة ، وكأننا اعترفنا بحقّهم في هذه الأرض ، وتنازلنا عنها ، ولم يعد لنا حقٌّ بالمطالبة بها . فأين تحرير فلسطين ؟!

واقع فلسطين اليوم كما كان قبل سنين سابقة من حيث الإمكانات ، حين كانت تطلق منظمةُ التحرير وغيرها : تحريرَ كامل التراب الفلسطيني . والإمكانات هي الإمكانات ، فإذا لم يكونوا قادرين على تحرير فلسطين آنذاك فَلِمَ أطلقوا هذا التصريح أو الشّعار ، وماذا أعدُّوا من خطّة وإعداد لتنفيذه وتحقيقهَ ، وماذا أعدُّوا اليوم ؟!

أمام المسلمين قضيّتهم الكبرى ، قضيّة الإسلام والدعوة إليه وتبليغه الناس كافة حتى يُنقذوهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن النار وعذاب جهنّم إلى الجنّة ، بإذن الله ، وبناء الأمة المسلمة الواحدة ! وبِحَلِّ هذه القضيَّة الكبرى تُحَلُّ سائر القضايا والمشكلات .

فهل هنالك مهّمة أعظم من هذه المهمة وأخطر ؟!



(٧)

مع قضية المرأة المسلمة والنشاط السياسي !

للمرأة قضايا تثار في كلٍّ مجتمع مضطرب الموازين منحرف القيم أو جاهليٍّ أو ملحد ، كان للمرأة قضيّة في العصر الجاهليّ في الجزيرة العربيَّة ، وفي اليونان وفي رومًا في عصور الانحلال والتفلّت . ولها قضيّة كُبْرى في الحضارة الغربيّة التي سحقت المرأة وسرقت شرفها وحطّمت كرامتها ورمتها في فتنة الدنيا ووحول فسادها ، مخدّرة لا تُحسُّ بحقيقة شقائها ، خدّرتها الشهوة المتفلّتة، أو الجري اللاهث وراء لقمة العيش ، أو زهوة المراكز والمناصب والمسؤوليات.

ولكن لم يكن للمرأة مشكلة في عصر النبوة الخاتمة ، ولا في عصر الخلفاء الراشدين ، ولا في أيّ عصر ساد فيه حكم الكتاب والسنَّة وكانت كلمة الله فيه هي العليا .

ولكننا اليوم نعاني من هذه القضيَّة ، قضيّة المرأة بعامة ومشاركتها في العمل السياسي بخاصة في الآونة الأخيرة : ونرى البعض يطلق مثل هذا الحكم :

" الإسلام لم يُفرِّق بين المرأة والرجل في ممارسة الحقوق السياسية فهما على قدم سواء " .

حكم عام يطلق يكاد يوحي بأنه مستقى من نصّ من الكتاب والسنة ، أو أنه يمثل ممارسة واضحة في التاريخ الإسلامي منذ عهد النبوّة .

إنّ هذا النصّ العام المطلق على هذه الصورة الجازمة والتي يطلقها بعض العلماء المعاصرين دون أي قيود ، لا تصحّ إلا بتوافر نصّ ثابت من الكتاب والسنة ، أو بتوافر ممارسة واقعية ممتدّة في المجتمع الإسلامي الملتزم بالكتاب والسنة ، والذي تكون فيه كلمة الله هي العليا . ولكننا لا نجد في الكتاب والسنّة أيّ نصّ يجيز هذا الحكم العام المطلق الخالي من أي قيود ، ولا نجد كذلك أيّ ممارسة عمليّة

ممتدّة له في حياة المسلمين والمجتمع الإسلامي الملتزم منذ عهد النبوة الخاتمة محمد ﷺ ، وحياة الخلفاء الراشدين ، وسائر فترات التاريخ التي التزم فيها المجتمعُ الإسلامَ . نساء النبيّ ﷺ لم يمارسن النشاط السياسيّ مساويات للرجال على قدم سواء ، ولا نساء الخلفاء الراشدين ، ولا نساء العصور التي تلت، ولا نجد هذه الدعوة التي يطلقها بعض العلماء إلا في العصور الحديثة المتأخرة التي انحسر فيها تطبيق الإسلام ، وغزا الفكر الغربي ديار المسلمين .

وإذا كان رسول الله ﷺ شكا إلى زوجه أم سلمة ما حدث من أصحابه في الحديبية ، فأشارت عليه برأي استحسنه وأخذ به ، فهذه حالة طبيعية في جوّ الأسرة المسلمة أن يُفرغ الرجل إلى زوجته بعض همومه ، وأن يستشيرها في ذلك ، وأن يستمع إلى رأيها ، فإن وجد فيه خيراً أخذ به ، وإن لم يجدْ تركه . هذه حادثة نتعلم منها أدب الحياة الزوجيّة في الإسلام ، ونتأسّى برسول الله ﷺ ونسائه في ذلك ، دون أن نعتبر ذلك نشاطاً سياسياً لنخرج منها بحكم عام مطلق ينطبق على جميع النساء في جميع العصور والأماكن في النشاط السياسي .

وأم سلمة بعد ذلك لم يُعرَف عنها أنها شاركت في النشاط السياسيّ مساوية للرجال على قدم سواء ، وكذلك سائر النساء لم يعرف عنهن هذه المشاركة المساوية للرجال في المجتمع المسلم . فهذه حادثة تكاد تكون فريدة لا تصلح لإطلاق حكم عام .

وحين أنزل الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله ﷺ قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]

لم يكن الأمر أن نساء النبي ﷺ يتطلّعن إلى الزينة والحليّ والمتع الدنيوية ، كما هو حال نساء الملوك والرؤساء حسب ما ذكر بعضهم. لقد كنّ يدركن وهن

في مدرسة النبوة أن الإسلام نهج آخر ، ولكن حياة النبيّ ﷺ كان فيها شدة وتقشف وزهد لم يكن في سائر بيوت المؤمنين ، فأردن المساواة مع مستوى غيرهنّ من المؤمنات ، لا مستوى الملوك والرؤساء .

وعندما ندرس هذه الآيات وما يتعلّق بنساء النبيّ ﷺ ، فإنما ندرسه ليس من منطلق الرغبات الدنيوية الظاهرة في حياة الملوك ، وإنما ندرسه منطلقين من القاعدة الرئيسة التي نصّ عليها القرآن الكريم من أنهنّ أُمهات المؤمنين ، لهن هذه الحرمة العظيمة والمنزلة العظيمة . فجاءت هذه الآيات الكريمة لتذكر المسلمين ونساء النبيّ ﷺ والنساء المؤمنات بعامة أن هناك نهجين مختلفين للحياة في ميزان الإسلام : نهج الدار الآخرة وما يشمله من قواعد وأسس ونظام ، ونهج الدنيا وما يموج فيه من أهواء وشهوات . نهجان مختلفان :

نهجان قد ميّز الرحمن بينهما نهج الضلال ونهج الحقّ والرشَدِ

لا يجمع الله نهج المؤمنين على نهج الفساد ولا حقّاً على فَنَدِ

ولقد وعَت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن هذا التذكير ، فاخترْن الله ورسوله والدار الآخرة ، ليكُنّ بذلك القدوة للنساء المؤمنات أبد الدهر . ولا يتعارض هذا مع بقاء الطباع الخاصّة بالنساء ، الطباع التي فطرن عليها يهذّبها الإسلام ويصونها من الانحراف .

ولقد خلق الله المرأة لتكون امرأةً ، وخلق الرجل ليكون رجلاً ، وجعل سبحانه وتعالى بحكمته تكويناً للمرأة في جسمها ونفسيّتها ، وجعل للرجل تكويناً متميزاً في جسمه ونفسيّته ، ومازال العلم يكتشف الفوارق التي تظهر بين الرجال والنساء . وعلى ضوء ذلك ، جعل الله للرجل مسؤوليات وواجبات وحقوقاً ، وللمرأة مسؤوليات وواجبات وحقوقاً ، لتكون المرأة شريكة للرجل لا مساويةً له ، حتى يتكامل العمل في المجتمع الإسلامي ، حين يوفي كلٌّ منهما بمسؤولياته وقد عرف كلٌّ منهما حدوده كما بيّنها الله لهم جميعاً .

وهناك حقوق مشتركة بين الرجل والمرأة . فالبيت المسلم هو ميدان التعاون في ظلال المودّة والسكن والرحمة ، دون أن يتحوّل الرجل إلى امرأة أو المرأة إلى رجل . ومن حق المرأة أن تتعلم لأنَّ طلب العلم فريضة على كل مسلم، رجلاً كان أو امرأة " : **طلب العلم فريضة على كل مسلم** " ،[1] ومن حقّها وواجبها أن تكون مدرِّسة للنساء ، وطبيبة للنساء ، وفي كل نشاط مارسته النساء المؤمنات في مجتمعات يحكمها منهاج الله وكلمة الله فيها هي العليا ، دون أن يتشبّهن بالرجال :

فعن ابن عباس رضي عنه عن الرسول ﷺ قال : " **لعنَ الله المتشبّهات من النساء بالرجال ، والمتشبّهين من الرجال بالنساء** "[2].

وعن عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ قال : " **لعنَ الله الرَّجُلَةَ من النساء** ".[3]

وأمثلة كثيرة لا مجال لحصرها هنا تبيّن أن للإسلام نهجاً مختلفاً عن نهج الاشتراكية والعلمانية والديمقراطية ، وتبيّن بالنصوص والتطبيق كما أسلفنا أن المرأة ليست مساوية للرجل في النشاط السياسي في الإسلام ، إلا إذا نزعنا إلى نهج آخر أخذت تدوّي به الدنيا ، وأخذنا نبحث عن مسوّغات له في دين الله .

ومن أهم ما أمر به الإسلامُ المرأة متميّزاً بذلك من غيره طاعتها لزوجها ، حتى قال رسول الله ﷺ :

(لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدّي

---

(١) عن أنس وغيره من الصحابة . صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : ٣٩١٣ أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، صحيح الجامع الصغير وزيادته : ٥١٠٠ .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٥٠٩٦ ، المشكاة : رقم ٤٤٧٠ .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها ، وعن عبد الله بن أوفى ، ومعاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، رضي الله عنهم ، في روايات متعددة كلها تتفق مع النصّ المذكور . أخرجه الإمام أحمد : الفتح الرباني : ١٦/ ٢٢٧ ، وأخرجه ابن ماجه وابن حبان . وفي صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم ٥٢٩٥.

المرأة حقَّ الله عزّ وجلّ عليها كلَّه حتى تؤدّي حقَّ زوجها عليها كله ، ...) [١] إلى آخر الحديث .

فعندما ندرس المرأة وحقوقها ومسؤولياتها في الإسلام فيجب أن ننطلق من حماية الأسرة ورعاية الأطفال وتربيتهم ، فالأسرة والبيت المسلم هو ركن المجتمع الإسلامي وأساسه ، وهو المدرسة الأولى التي تبني للأمة أجيالها ، لا تتركهم للخادمات وغيرهن .

في الإسلام لابد من عرض التصوّر الكامل المترابط لنشاط المرأة ، دون أن نأخذ جُزْءاً وندع أجزاءً ، ونركز على أمر لم يركّز عليه الإسلام ولم يبرزه لا في نصوصه ولا في ميدان الممارسة . فالحياة الإسلامية متكاملة مترابطة في نهج الإسلام ، لا تتناثر قطعاً معزولة بعضها عن بعض .

ولا يمنع شيء أن يخرج من بين النساء المؤمنات عالمات مبدعات شاعرات ، مفتيات موهوبات . ولكن هذا كله ليس هو الذي يحدّد دور المرأة في الإسلام ، فالذي يحدّده شرع الله بنصوصه الواضحة دون تأويل وبالممارسة الممتدّة الواضحة . والمرأة حين تكون عالمة أو فقيهة أو أديبة ، فهي أحرى أن تصبح أكثر تمسّكاً بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ... فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ... ﴾ [النساء: ٣٤]

ومما يثير العجب حقّاً أن الرجل الشيوعي جوربا تشوف ، أدرك خطورة غياب المرأة عن بيتها وواجباتها فيه ، وواجباتها التي ليس لها بديل . فلنستمع إلى ما يقوله :

" ... ولكن في غمرة مشكلاتنا اليوميّة الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المتميّزة المختلفة بدورها أماً وربّة أسرة ، كما كدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل عنها مربّية للأطفال " .

(١) جورباتشوف : البيروستراكيا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع ، ص : ١٦٦ ترجمة أحمد شومان .

ويتابع فيقول : " **... فلم يعد لدى المرأة العاملة في البناء وفي الإنتاج وفي قطاع الخدمات وحقل العلم والإبداع ، ما يكفي من الوقت للاهتمام بشؤون الحياة اليومية ، كإدارة المنزل وتربية الأطفال ، وحتى مجرّد الراحة المنزليّة . وقد تبيّن أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والشباب ، وفي قضايا خلقية واجتماعية وتربويّة وحتى إنتاجية ، إنما يتعلّق بضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية ...** "(1)

في دراستهم للمجتمع وللصناعة والإنتاج ، انطلقوا كما نرى ، ولو متأخرين ، من البيت ، من الأسرة ، من دور المرأة في البيت ، الدور الذي لا بديل له . ونحن المسلمين ، وقد فصّل لنا الإسلام نظام حياتنا منطلقاً من تحديد مسؤوليات الفرد ، الرجل والمرأة ، ثم البيت والأسرة ، تركنا ذلك وقفزنا لنبحث في حق المرأة أن تكون وزيرة أو عضواً في البرلمان أو رئيسة دولة ، أو رئيسة شركة ، ونضع من أَجل ذلك قانونا عاماً مطلقاً دون قيود " :**الإسلام لم يفرّق بين المرأة والرجل في ممارسة الحقوق السياسية !** " وحسبُنا تطبيق الصحابة والخلفاء الراشدين ، فهل كانت المرأة مساوية للرجل في الحقوق السياسية ؟! أم أن الصحابة والخلفاء الراشدين أخطأوا ولم يدركوا هذه الحقوق فظلموا المرأة وحرموها من حقوقها ؟!

لا نقول إنّ المرأة عامة ، أو أن النساء كلهن لا يصلحن للمهمات الكبيرة بحكم كونهنّ نساء . لا نقول هذا . ولكن نقول إن الله الذي خلق الرجل والمرأة حدّد مسؤوليات الرجل والمرأة ، ومارس المسلمون ذلك في عهد النبيّ ﷺ ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، وفي عصور كثيرة أخرى .

وقد يكون بعض النساء أكبر موهبة أو طاقة من بعض الرجال ، فهل هذا يعني أن تنزل المرأة معتركاً مختلفاً فيه أجواء كثيرة ، وتترك قواعد الإسلام تأسّياً بنساء غير مؤمنات ، أو مجتمعات غير ملتزمة بالإسلام .

---

(1) مسلم ٣٢/ ٤٧/ ٨٠٠، وأبو داود ٩/ ٣٤/ ٢٥٣١ .

وغفر الله لمن قال ، كما نشرته إحدى الصحف : أن الرسول ﷺ " لو كان يعلم أنه سيظهر بين النساء أمثال جولدا مائير ، أنديراغاندي ، تاتشر ، ما قال حديثه الشريف : (**ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**) . فالمؤسف أنَّ من الناس من يعتبر أنَّ هؤلاء النساء أفلح بهنّ قومهن . عجباً كل العجب ! هل أصبح الكفر وزينة الدنيا ومتاعها هو ميزان الفلاح ! وأين قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)** ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥]

نعْمَ البيت الواسع والسرر المريحة للرجل الصالح . ونعمت القوّة والسلاح والصَناعة للمؤمنين .

إننا نعتقد أنه لا يصح أن نستشهد بمجتمعات غير ملتزمة بالإسلام لنخرج بقواعد شرعية في الإسلام .

أما حديث رسول الله : ﷺ (**ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**) ، فالحديث يرويه أحمد بن حنبل وأبو داود وابن ماجه والترمذي . ويأتي الحديث بألفاظ مختلفة ولكنها تجمع على المعنى والنص . وإنّ مناسبة الحديث ونصّ الحديث باللغة العربيّة يفيد العموم ولا يفيد الخصوص . ولا يعجز الرسول ﷺ أن يخصّ ذلك بأهل فارس لو أراد التخصيص . ولكن كلمة قوم نكرة تفيد العموم ، وامرأة نكرة تفيد العموم ، فلا حاجة لنا إلى تأويل الحديث بما لا تحتمل اللغة ، وربما لا مصلحة لنا في هذا التأويل .

وبما أنَّ المرأة مطالبة بعبادة الله وإقامة دينه ، فإنها كذلك مكلفة مثلها مثل الرجل بتقويم المجتمع وإصلاحه ! ولكنّ الله سبحانه وتعالى جعل للرجل تكاليف في ذلك ليست للمرأة ، وجعل للمرأة تكاليف ليست للرجل . وذلك حتى في أركان العبادة ـ في الشعائر ـ فصلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في

المسجد ، وصلاة الرجل في المسجد خير من صلاته في البيت . والجهاد فرض على الرجال في ميدان القتال ، وليس فرضاً على المرأة ، وجهاد المرأة هو في بيتها ورعايته ورعاية زوجها :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ! أنا وافدة النساء إليك ! هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون . ونحن النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك ؟! فقال رسول الله ﷺ : **(أبلغي من لقيتِ من النساء أنَّ طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكنّ يفعله)** .

وعن أنس رضي الله عنه قال : " **كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار ليسقين الماء ويداوين الجرحى** "[(١)]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : **(ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " وفيه : " ... والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم)** [(٢)]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله أعلى النساء جهاد ؟! قال: **(نعم ! عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة)**[(٣)]

وبصورة عامة فإن الإسلام جعل الميدان الأول للمرأة البيت بنص الآيات والأحاديث والممارسة والتطبيق ، وجعل ميدان الرجل الأول خارج البيت ، ويبقى للمرأة دور خارج البيت غير مساوٍ للرجل ، وللرجل دور في البيت غير مساوٍ لدور المرأة .

ولا بد أن نؤكد أن للإسلام نهجاً متميّزاً غير نهج العلمانية والديمقراطية ومناهج الغرب في عمل المرأة والرجل . نهجان كما ذكرنا مختلفان .

---

(١) البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ مسلم ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩، الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥
(٢) أحمد وابن ماجه .
(٣) أبوداود ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧ ، الترمذي ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦، ابن ماجه : المقدمة ٣٥ .

نحن نمرّ بمرحلة فيها عواصف غربية وأمواج تكاد تكتسح . ما بالنا نريد أن نخرج المرأة المسلمة من مكانها الكريم الذي وضعها الإسلام فيه ، لنجاري الغرب في ديمقراطيته وعلمانيته . ونكاد نخجل من اتهام العلمانية لنا وادعائها بأن الإسلام حجر على المرأة . إن أفضل ردّ عليهم لا يكون بأن ندفع المرأة المسلمة إلى بعض مظاهر الغرب لندفع عن أنفسنا ادّعاءهم . إن أفضل ردّ أن نقول لهم **إن الإسلام أكرم المرأة وأعزها وحفظ لها شرفها وطهرها ، وأنتم أضعتم المرأة وأضعتم كرامتها ، ثمَّ نعرض الإسلامَ كما هو وكما أُنزل على محمد ﷺ ، وكما مارسه المسلمون في عهد النبوة والخلفاء الراشدين .**

المرأة المسلمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في أجواء النساء ، حيث لا يستطيع الرجل أن ينشط هناك إلا في أجواء الاختلاط التي لم يعرفها الإسلام لا في نصوصه ولا في ممارساته . وللمرأة المسلمة أنشطة كثيرة تقوم بها دون أن تلجَ في أجواء لم يصنعها الإسلام . المنافقات يقمن بإفساد المجتمع مع المنافقين جنباً إلى جنب سواء بسواء كما نرى في واقع البشرية اليوم . أما المؤمنات فيصلحن في المجتمع بالدور الذي بيّنه الله لهنّ ، غير مساويات للرجال ولا ملاصقات لهن . دور بيّنه الله للنساء وللرجال لا نجده في الديمقراطية ولا في العلمانية ، ولا في تاريخ الغرب كله .

نعم ! إن أول من صدّق رسول الله ﷺ كانت زوجه خديجة رضي الله عنها. ولكنها بتصديقها لرسول الله ﷺ التزمت حدودها في رسالته ، فلم تنطلق خديجة رضي الله عنها في أجواء النشاط السياسي أو ميادين القتال أو مجالس الرجال . وكذلك كانت سميّة أول شهيدة في الإسلام رضي الله عنها ، وكانت قبل استشهادها ملتزمة حدود الإسلام .والنساء اللواتي قاتلن في أُحد أو حنين ، كان ذلك في لحظات طارئة عصيبة لا تمثل القاعدة الدائمة الرئيسة للمرأة في الإسلام ، كما بيناها قبل قليل ، فلم نَرَهنّ بعد ذلك في مجالس الرجال أو ميادين السياسة سواء بسواء كالرجال ، وإنما كنّ أول من التزم حدودهن التي بينها لهنّ الله ورسوله ﷺ .

المرأة التي قامت تردّ على عمر رضي الله عنه في المسجد ، كانت في مكان تعبد الله فيه وتتعلم ، هي وعدد من النساء لا يختلطن بالرجال . وهو جو يختلف عن المجالس النيابية اليوم ، وكانت في مجتمع يختلف عن مجتمعاتنا اليوم . وهذه المرأة نفسها لو عُرض عليها الأجواء المعاصرة لأبت المشاركة فيها ، وكثير من المسلمات اليوم يأبَيْن المشاركة في الأجواء الحديثة .

وأتساءل عن السبب الذي يدعو بعضهم إلى الحرص على إدخال المرأة المجالس النيابية العصرية ! لقد أصبح لدينا تجربة غنيّة في المجالس النيابية تزيد عن القرن ، فلننظر ماذا قدّمت للأمة المسلمة ، هل ساعدت على جمعها أم على تمزيقها ، وهل ساهمت في نصر أم ساهمت في هزائم ، وهل هذه المجالس التي نريد أن نقحم المرأة المسلمة فيها هي صناعة الإسلام وبناؤه ، أم أنها مثل أمور أخرى غيرها استوردناها من الغرب مع الحداثة والشعر المتفلّت المنثور وغيره من بضاعة الديمقراطية والعلمانية ؟!

وبصورة عامة ، فإنّ هذا الموضوع : مساواة المرأة بالرجل كما يقول بعضهم : " **لقد قرّر الإسلام مساواة المرأة بالرجل** " ! هكذا في تعميم شامل ، شاع هذا الشعار في العالم الإسلامي ، وأصبح له جنود ودعاة ودول تدعو إليه . وكذلك: " **مساواة المرأة بالرجل في ممارسة الحقوق السياسية** " ، هذا كله موضوع طرق حديثاً مع تسلل الأفكار الغربية إلى المجتمعات الإسلامية ، مع تسلل الديمقراطية والعلمانية ، كما تسلّلت قبل ذلك الاشتراكية .

هنالك عوامل كثيرة يجب أن تدرس وتراعى عند دراسة نزول المرأة إلى ميدان العمل السياسي الذي يفرض الاختلاط في أجواء قد لا يحكمها الإسلام من ناحية ، ولا تحكمها طبيعة العمل نفسه . والاختلاط مهما وضعنا له من ضوابط ، فقد أثبتت التجربة الطويلة في الغرب وفي الشرق إلى انفلات الأمور وإلى التورط في علاقات غير كريمة .

وكـذلك فنحن لسنا بحاجـة لنزول المرأة إلى الميـادين ، ففي الرجال عندنا فائض ، والرجال بحاجة إلى أن تـدرس حقوقهم السياسية التي منحهم إياها الإسلام .

إن نزول المرأة إلى الميدان السياسي ذو مزالق خطيرة ، فعندما يُطلق هذا ويباح ، فهل معظم النساء اللواتي سيمارسن هذا العمل نساء ملتزمات بقواعد الإسلام كلّه و بالحجاب و باللباس عامة .

إنَّ إطلاق هذا الأمر ونحن لم نَبْنِ الرجل ولا المرأة ، والتفلّت في مجتمعاتنا واضح جليّ ومتزايد في الرجال والنساء ، دون أن ينفي هذا وجود بعض النساء الملتزمات والرجال الملتزمين ، إنَّ إطلاق هذا الأمر قد يقود إلى فتنة يصعب السيطرة عليها .

وإني لأتساءل : لأيّ مجتمع تصدر مثل هذه الآراء ؟! ، لأيّ رجل وأي امرأة ؟! هل المجالس النيابية الحاليّة تصلح ميداناً للمرأة المسلمة لتمارس النشاط السياسي ؟! أين هو المجتمع الذي يطبّق شرع الله كاملاً ، ليطلق فيه مثل هذه الأمور ، وهل هذه المجالس مجالس يسودها شرع الله ؟!

وميادين العمل المباح للنساء واسعة جداً وكافية لهن ، وكلها منضبطة بقواعد الإسلام مثل المدرسات والطبيبات ، وكل عمل ليس فيه باب من أبواب الفتنة أو الاختلاط ، مع توافر جميع الشروط الشرعية الأخرى عند مزاولة هذه الأنشطة .

لا بدّ من الاستفادة مما حلَّ بأقوام آخرين حين انطلقت المرأة في المجتمع في هذا الميدان أو ذاك . وإذا نزلت ميدان السياسة فما الذي يمنعها أن تنزل إلى المصانع وسائر الميادين الأخرى ، كما نراها في العالم الغربي .

وكذلك أتساءل لماذا هذه الضجّة الكبيرة عن المرأة وحقوقها ، ألا تنظرون إلى الرجل وحقوقه . في عالمنا اليوم فَقَدَ كثير من الرجال حقوقهم ، فلماذا تكون الضجّة على حقوق المرأة وحدها ، ففي ذلك ظلم للمرأة وللرجل .

والإسلام في نهجه جعل الحقوق والواجبات متوازنة في الحياة كلها من خلال منهاج رباني أصدق من سائر المناهج وأوفى وأعدل .

وأخيراً أقول : قبل أن نطلق مثل هذه الآراء اليوم ، فلنبن الرجل ولنبن المرأة ولنبن المجتمع المسلم .

فلنبنِ الأمة ، فلنبنِ الرجل والمرأة والبيت المسلم والمجتمع المسلم الملتزم ، ولنبنِ الأمة المسلمة الواحدة الملتزمة بالكتاب والسنة . حيث تكون كلمة الله هي العليا، فيكون هذا المجتمع أقدر على تحديد دور الرجل والمرأة .

إلى ذلك يجب أن تتجه الجهود متكاتفة بدلاً من أن تتمزَّق في قضايا جزئية لا تساعد إلا على تمزيق الأمة : أيها العلماء والفقهاء والدعاة والمسلمون أقيموا الإسلام حقّ الإقامة أولاً في نفوسكم رجالاً ونساءً ، وأقيموه في الأرض ، كما يأمركم الله سبحانه وتعالى ، وبلّغوه الناس وتعهّدوهم عليه ، ثمَّ انظروا في حقوق المرأة والرجل تجدوها بيّنة جليّة لا تحتاج إلى فتوى ، كما وجدها أصحاب رسول الله ﷺ والمؤمنون المتقون في العصور كلِّها !

(٨)
نظرية المؤامرة
والمؤامرة الكبرى !

حوادث متلاحقة ، واضطرابات متعاقبة ، ومداولات وتهديدات ، ومظاهرات وصراخ ، وصواريخ ودويها ، وعمائر تنهار يُدفن تحت أنقاضها رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، ومجازر تتدفَّق فيها الدماء ، وجماجم وأشلاء ، ومؤتمرات ، وجوعى ومرضى ، وثكالى وأيتام ، ودموع تتفجَّر من الأحزان ، ولهو ورقصٌ وأغان وألحان ، وبطون خاوية وبطون متخمة ، وفقرٌ مدقع وثراء طاغٍ !

كلٌّ هذا وأكثر منه يطالعنا كلَّ صباحٍ ، وتمضي المشاهد مع يومنا ، ونغفو ليلاً ولا تغفو الأحداث ! لماذا هذا كلّه ؟! ومَنْ وراء ذلك ؟! وإلى أين نسير ؟!

لا شكَّ أنّ كلَّ ما يجري يمضي على سنن لله ثابتة في هذه الحياة الدنيا ، وعلى قضاء نافذ وقدر غالب . ولكنه قضاء حقٌّ عادل لا يظلم أبداً . إنه يمضي ابتلاءً من الله وتمحيصاً لعباده ، حتى تقوم الحجة لهم يوم القيامة أو تقوم عليهم .

وليس هذا القضاء الربَّاني الحق هو الذي ندرسه في هذه الكلمة ، ولكننا نريد أن ندرس دور الإنسان وهو يمرُّ في هذا الابتلاء ! يمرُّ الإنسان في هذا الابتلاء وهو غاف ، قد نَسيَ الموت والآخرة والحساب ، يمضي وقد غلبه الكبر والغرور ، والظلّم والاستكبار ، إلا المتقين الصادقين العالمين ، الذين يخشون الله ويرجون الدار الآخرة ، وقليلٌ ما هم !

يرى بعضهم أنَّ وراء هذه الأحداث كلها أو بعضها ما يسمونه " **المؤامرة** " ، وآخرون يرفضون " **نظرية المؤامرة** " ، ويرفضون في الوقت نفسه دور القضاء والقدر ، ويعزلون الدنيا عن الآخرة !

فما هي المؤامرة ونظرية المؤامرة ؟! إنَّ رئيس الولايات المتحدة " بوش " ، وهو رأس المؤامرات اليوم في الأرض ومدبِّرها الأول ، يدَّعي رفض " **نظرية المؤامرة** "

ويعتبر أنها وسيلة لدى المسلمين يعلنونها ليسوِّغوا بها الإرهاب أو ما يسمِّيه " بوش " الإرهاب . ولا نرى إلا أن بوش وأمثاله من المتآمرين يريدون أن يُخفوا حقيقة تآمرهم على شعوب الأرض بإلقاء التهم على غيرهم ، وتزييف الحقائق ، وإلغاء موازين العدالة والحق الذي قامت عليه السموات والأرض .

من الناس من ينكر وجود شيء اسمه " المؤامرة " ، وربما يستهزئون بمن يشير إلى وجود مؤامرة . نعم من الخطأ أن ندخل المؤامرة في كل صغيرة ، ولكنه من الخطأ الفادح أن نلغي وجود المؤامرة ونظرية المؤامرة . فالمؤامرة يثبت وجودها بالدليل والحجة من ناحية ، وبالإيحاءات والأسباب الجادة من ناحية أخرى .

عجباً كل العجب ! أضياع فلسطين على هذه الصورة التي تتكاتف فيها جميع القوى الدولية على إنشاء دولة لليهود وطرد شعب فلسطين المسلم ليتيه في الأرض ، ظلماً وعدواناً ، ثمَّ نقول إنَّ هذا تمَّ دون وجود مؤامرة ؟!

كلا ! فهناك مؤامرة حقيقية دبِّرت في ظلمة الليل ووضح النهار أدَّت إلى هذه الكارثة العظيمة !

أتُغزى أفغانستان بجيوش دولية متحالفة تقودها أمريكا فيحتلونها ويدمّرونها ويثيرون الأحقاد بين أهلها ، ويأتون بأناس من رجالهم ليتسلموا زمام الحكم ، أيتمُّ هذا دون مؤامرة ؟!

أتغزى العراق بحشود من دول متحالفة تقودها أمريكا ، فيدمِّرونها ، ويستبيحون أعَراض نسائها ، ويَقتلون رجالها ونساءها وشيوخها وأطفالها في السجون وخارج السجون ، وتنهب ثرواتها وينهب تاريخها ، ويقتل علماؤها ، أيتمُّ هذا كله دون مؤامرة ؟!

أينتفض العالم كله لجريمة اغتيال الرئيس الحريري في لبنان ، مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة ، وأمريكا ، وإنكلترا وفرنسا وألمانيا ، ثمَّ تتدخل أمريكا في كلِّ شؤون لبنان ، وتُطْرَد سوريا من لبنان بعد أن أقام جيشها وأجهزة مخابراتها

عشرات السنين بعلم هذه القوى ورغبتها وتأييدها ، أيتمُّ هذا كلُّه دون أن يضم في ثناياه عدداً غير قليل من المؤامرات ؟!

لقد ذُبح مئات الألوف من المسلمين في مختلف ديار المسلمين ، وتتابعت المجازر سنين طويلة في العالم الإسلامي ، فما أثار ذلك تلك القوى ، إلا بعد أن جفَّت الدماء واستقرت الجثث والأشلاء تحت التراب ، لتبدأ محاولات مسرحية للتحقيق والمحاكمات ، أيتم هذا كله دون مؤامرات ؟! **وقُتِلَ " كيندي " في أمريكا ، فما قامت لجان دوليَّة للتحقيق ، وقتل آخرون ، أفي لبنان فقط تقوم قائمة الدول الكبرى كلها ومجلس الأمن ، أليس هنالك شيء مخفيّ ؟!**

يصل حاكم هناك وهناك إلى سدة الحكم بدعم واضح وتأييد من الدول الكبرى ، ثمَّ إذا خرج قليلاً عن الخط الأحمر المرسوم له ، حيكت المؤامرات لإنزاله والإطاحة به ، ولطرده حتى لا يكاد يجد بلداً يؤويه ! في وصوله مؤامرة وفي حكمه مؤامرة وفي الإطاحة به مؤامرة ، مثل شاه إيران !

عزمت أمريكا وحلفاؤها على غزو العراق ، دون أن يوافق مجلس الأمن ، وبمعارضة شعوب الأرض ، وقيام مظاهرات صاخبة في أنحاء شتى من المعمورة ، ثم تضرب أمريكا وحلفاؤها بكل ذلك عرض الحائط ، ثم تنهار جميع المسوِّغات التي ادَّعتها أمريكا لاحتلال العراق ، وأهمها وجود أسلحة الدمار الشامل التي ثبت عدم وجودها ، ويمضي هذا الغزو ليضمَّ مؤامرات ومؤامرات .

شعارات دوَّت بها أمريكا وحلفاؤها من ديمقراطية وحريَّة ، ليدَّعوا أنهم دعاة الديمقراطية والحرية ، فإذا ذلك يصبح تدميراً وقتلاً وسجوناً وإبادة واستباحة كلِّ المحرمات ، أليس ذلك مؤامرة يغلفها الكذب والخداع ؟! أليست هذه مؤامرة مكشوفة مفضوحة لا تخفيها شعارات الديمقراطية المزخرفة ولا شعارات الحريّة المزيّفة !

إنَّ أطماع المجرمين في الأرض أصبحت مكشوفة لا تغيب حقيقتُها إلا عن

نائمٍ أو غافٍ أو تائهٍ مضلَّل ! وإن هذه الأطماع وما تثيره من صراع لا يمكن أن تمضي إلا بالمؤامرة بعد المؤامرة ، لتسويغ العدوان والإجرام ، ونهب الثروات وإذلال الشعوب ؟!

وإنا لنلمس ذلك جليّاً فيما يدور في العالم الإسلامي منذ زمن غير قليل ، ومن خلال تاريخ طويل وصراع طويل حتى سقطت الخلافة الإسلامية ! فهل يمكن أن تسقط الخلافة الإسلامية إلا بمؤامرات تخترق الأمة وتنشر الانحلال والوهن ، والأفكار المنحرفة ، ثمَّ بالضربة القاضية ؟! هل يمكن أن يقسَّم العالم الإسلامي ويمزَّق إلا من خلال مؤامرة واسعة ؟!

فمن يرى أنَّ هذا كله يتمُّ دون مؤامرات ، فهو إما جزء من منفِّذي هذه المؤامرات ومن المتعاونين معها ، حتى يخفوا الحقيقة عن الناس ، وحتى تمرّ المؤامرات بيسر ، وإما أنه غافٍ لا يدري ما يدور حوله !

إنَّ مدَّعي النبوّة اليوم ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، جورج دبليو بوش ، لا شك أنه يقود أكبر عدد من المؤامرات في العالم وأوسعها ، وخاصَّة حين يعلن ويقول ، كما نشرت الصحف : " **إنَّ ما يحرِّكني هو تكليف من الله . كان الله يقول لي : جورج ! اذهب وأَنْهِ الطغيان في العراق ! وقد فعلتُ ! والآن مرّة أخرى أشعر بكلمات الله وهي تصل إليَّ وتقول ......** " !

لقد استغفل العالم وهو يعلن ذلك . عندما قرَّر غزو العراق لم يدَّعِ هذه النبوّة ، وإنما ادعى وجود خطر يهدد أمريكا من أسلحة الدمار الشامل في العراق! لقد كذب أولاً وكذب أخيراً وما زال يمضي على الكذب والخداع ! وهل يُعقل أن تكون الأعمال الوحشية من تدمير وقتل وإبادة واقتحام البيوت على النساء ، والاغتصاب والتعذيب المروّع والتفنّن فيه ، هل يُعقل أن يكون ذلك كله دون وجود مؤامرة ، أم أنه من وحي الشياطين ، شياطين الإنس والجن ؟! وهل يُعقل أن يكون من وحي الله على بوش ؟!

لقد عرف العالم كثيراً من المجرمين الذين يكذبون ويخدعون ، ولكن " بوش " حاز قصب السبق في ذلك ، وتجاوز كل الحدود في كذبه هو وبلير والعصابة التي تآمرت معهم . ألا يدرك " بوش " ومن معه أن أبسط قواعد المنطق أنه لو كان أمراً إلهياً فلماذا تخلَّى عنه الإله في العراق ، فلاقى العنت ، وتعثَّرت خطواته ، وقامت المظاهرات في مناطق متعددة وفي أمريكا نفسها تتهم " بوش " و" بلير " بالكذب والخداع ! ومنهم من هبَّ ليدعو إلى التحقيق معهما أو محاكمتهما!

أيُعقَل أن لا يكون في قلب هذا الكذب والخداع مؤامرة أو مؤامرات ؟! فما هي المؤامرة في هذه الميادين إذن ؟!

ولا ننسى تصريح بوش عند حادثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م ، عندما قال ما معناه : " بدأت الحروب الصليبية " . وإن عاد ليخفِّف من أثر هذا التصريح ، ولكنها حقيقة يعتقدها ، ويعمل لها ، ولكن لم يكن يؤذن له أن يكشف الأوراق آنذاك .

المؤامرة هي حقيقة الكذب والخداع والخيانة . هي الخيط الذي يجمع ذلك كله . فإذا لم يكن هنالك كذب وخداع وخيانة ، لم يعد هنالك مسوّغ للمؤامرة ، بل الصدق والوضوح والأمانة . ففي أجواء الجرائم لا غناء عن المؤامرات ، تخفيها الشعارات الكاذبة والزخرف الخادع ، وتصبح الشعارات تخديراً يمثل أول خطوة أو مرحلة من المؤامرة .

حقيقة المؤامرة على الإسلام والمسلمين ابتدأت مع اللحظة الأولى لبعثة النبوة الخاتمة محمد ﷺ، حين تحرَّكت قوى الكفر في قريش ، وفي اليهود ، وأخذت المؤامرات تتوالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

ويشتد المكر كيداً وخداعاً تكاد تزول منه الجبال لشدّته ولهوله :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦]

وتمتد المؤامرات، ويلتقي شياطينها ومجرموها في تحالف شديد المكر، حين التقى الكفر الصريح وأهل الكتاب من اليهود، في استكبار وعتوّ، وحاصروا المدينة المنوّرة، معقل الإسلام، وحصن المسلمين والنبوّة الخاتمة، في غزوة الأحزاب، يريدون استئصال شأفة الإسلام. فردَّ الله كيدهم في نحورهم وهزمهم وأذلَّهم! فقد كان في قلب المدينة أمة صدقت الله فأنزل الله نصره عليهم.

ومنذ ذلك الوقت والمؤامرات تتوالى على الإسلام والمسلمين، حتى تجمعت قوى الفتنة والفساد في الحروب الصليبية، حين جمعوا جموعهم، ووثَّقوا حسب ظنّهم مؤامراتهم، في مرحلة كان المسلمون ممزَّقين، حتى بعث الله قوى الإيمان في الأمة، يقودها نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، فأعزّهم الله بصدقهم وصفاء نيّتهم وحسن إعدادهم وتدبيرهم.

وأعتقد أنَّ هذه القوى استفادت من صراعها مع الإسلام في تاريخ طويل، فجمعت تجاربها وخبرتها، ثمَّ أخذت تُحكِمُ خطتها ومؤامراتها من خلال تحالف مخفيّ. فلمَّا هجمت البرتغال على " ملقا " سنة ١٥٠٩م، واستأنفت الهجوم سنة ١٥١١، كان الشعار الأول كما قاله قائد الحملة: " **إنَّ الأمر الأول هو الخدمة الكبرى للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد وتخمد نار هذه الطائفة المحمدية إلى الأبد** " . كما يقول بوش اليوم مما ذكرناه قبل قليل، ومع استخدام لفظة الديمقراطية والحريَّة بدلاً من لفظة طرد المسلمين. ثمَّ يكشف قائد الحملة البرتغالي في بقية خطابه حقيقة الهدف الدنيوي ألا وهو السيطرة على ثروة الهند التي كان يسيطر عليها المسلمون. والثروة المقصودة اليوم هي البترول في العراق وغيره الذي يسعى بوش إلى السيطرة عليه. ولما انتصر البرتغال في معركة " ملقا " أقامت روما قدَّاس شكر سنة ١٥١٥م، وقال بعضهم إن هذا الانتصار

سيسهل " استعادة القدس " ، كأنّها كانت لهم ! وهذا وهمٌ يعيش به اليهود والنصارى . إذن كان ذلك نهجاً عاماً جمع روما والبرتغال وغيرهما ، يبدأ بشعار دينيٍّ كالذي أعلنه بوش والذي أعلنه القائد البرتغالي وكالذي يعلنه كلّ متاجر بالدين . وكذلك التقت هذه القوى في تآمرها المنظم على المسلمين في الأندلس حتى سقطت دولتهم وحتى طردوا وشرّدوا مع مذابح وحرق وقتل وإبادة التراث العلمي والفكري في حقد شديد .

واستمرّ الكيد على الإسلام ، حتى بلغ ذروته في جهود متكاتفة تحمل المكر الشديد بأنواعه المختلفة ، في محاولات متتالية للقضاء على الخلافة الإسلامية في استانبول ، وعلى العالم الإسلامي وعلى الإسلام ، فأحاطوا بها من جميع نواحيها، وأخذوا ينشرون الفتن بعد الفتن ، ووجدوا التجاوب الكبير من الكثيرين ، والتقت قوى داخلية وخارجية تعمل كلها على إسقاط الخلافة . وكان من أهم أجزاء المؤامرة وأكثرها وضوحاً هو وعد بلفور والتصميم المشترك على إقامة الكيان اليهودي الصهيوني في فلسطين ، ليكون هذا الكيان ركيزة رئيسة في الحرب على العالم الإسلامي وتمزيقه . فسقطت الخلافة الإسلامية ، ومُزِّق العالم الإسلامي أقطاراً وشعوباً وعصبيات . وما زالت " المؤامرة " ماضيةً بكل وسائلها مكراً وكيداً وخداعاً واستدراجاً ، ماضيةً تدمّر كلَّ شيء أمامها ، كأنها عاصفة مروّعة ، ماضيةٌ تتدفق معها دماء المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام ، وتتطاير أشلاؤهم في أرض واسعة وفضاء واسع .

ومن هذا التاريخ الطويل الذي استغرق قروناً ، ندرك التصميم الشديد من هذه القوى على المثابرة في حربها ضد الإسلام دون هوادة ، وندرك كذلك أنهم استفادوا من خبراتهم المختلفة في حروبهم مع الإسلام كما ذكرنا سابقاً، وندرك كذلك أنَّ أهمَّ أسباب انتصارهم هو تمزّق المسلمين أهواءً ومصالح ابتعدوا بها عن جوهر الإسلام وحقيقة العبادة والتوحيد والتزام منهج الله ، فسقطوا في شَرَك بعد شَرَك ، وثارت الأهواء وضجّت العصبيات ، وغلب الوهن والاسترخاء ، وحُبُّ الدنيا عن الآخرة ، وضجّت الشعارات تدفع الناس من هزيمة إلى هزيمة !

ولا بدَّ من وقفة هنا لندرك ما هي أسباب هذا الإصرار الشديد من هذه القوى على محاربة الإسلام ، وأسباب امتداد هذا الإصرار قروناً طويلة امتدت منذ أن بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً للعالمين إلى يومنا هذا وستمتد إلى يوم القيامة!

إنَّ هذه القوى وصلت إلى نتيجة آمنت بها واعتقدتها وأصبحت منطلقها ونهجها في العالم الإسلامي ، وكان ذلك نتيجة لصراعها الطويل مع الإسلام وتجاربها الواسعة . إنها وجدت أنه يسهل التفاهم والمساومة والتنازلات مع كل معتقدات الأمم بطريقة أو بأخرى إلا مع الإسلام الذي أُنزل على محمد ﷺ ، وإلا مع الذين آمنوا بهذا الدين العظيم ، والذين لا ينحرفون عنه ولا يساومون عليه ولا يتنازلون ، الذين آمنوا وأسلموا لله رب العالمين ، فعرفوا دربهم على صراط مستقيم ، وعرفوا أهدافهم الربانية ، فأعدُّوا ووضعوا الخطة والنهج ، ومضوا وهم على ربهم يتوكلون ، وقد استكملوا أسباب التوكل الصادق مع الله ، فنصرهم الله ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]

أما وقد استقرَّت هذه الحقيقة في قلوبهم ، ورأوا أن مثل هذا الإيمان وهذه الأمة المسلمة الواحدة ، وهذا الصف الواحد ، يقف حائلاً قوياً ضد أطماعهم وشهواتهم في نهب الشعوب وثرواتها ، وضد الظلم والعدوان الذي يتبع ذلك ، فلا بدَّ إذن من وضع خطة لشقِّ الطريق إلى أطماعهم التي لا تنتهي ، والتي رأينا جنونها وشدّتها في الحروب الصليبية ، وحروب " مالقا " جنوب شرق آسيا ، والأندلس ، والتي نراها في جنون أطماعهم في واقعنا اليوم ، وكلها تتجه إلى العالم الإسلامي الذي يسمونه كلَّ مرة باسم يظنون أنه يسوِّغ أطماعهم وجرائمهم . ففي مرحلة الدولة العثمانية الإسلامية كانوا يسمونها : " **المسألة الشرقية** " ، واليوم يسمونها منطقة " **الشرق الأوسط** " ذلك ليخفوا حقيقة نيّاتهم التي تتجه إلى العالم الإسلامي وثرواته وقوّته ، ليضعفوه ويدفعوه إلى الرضوخ والاستسلام !

إنه ابتلاء شديد من الله يمضي على سنن ربَّانيَّة ثابتة . فقد بعث الله هذه القوى ليبتلي بها المسلمين ، ولتكشف حقيقة النفوس ، ولتقوم الحجة على كلِّ إنسان يقوم القيامة أو تقوم له ، وليُعْرفَ الظالمون منهم والصادقون :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]

من أجل ذلك ، ومن قناعتهم أن الإسلام الذي أُنزل على محمد ﷺ لا يُساوَم ولا ينحرف ولا يتنازل ، كان محور خطتهم لشق طريقهم إلى العالم الإسلامي وثرواته أن يوهنوه ، باتباع سبل شتى .

وعند حرب الخليج الثانية نقلت وسائل الإعلام تصريحاً مدوّياً لبوش الأب يقول فيه : " إن لنا ثلاثة أهداف في غزو العراق : تغيير منطقة الشرق الأوسط إلى ما يلائم مصلحة أمريكا ، البترول ، وإسرائيل ! " . ويبدو أنَّ هذه الأهداف ما زالت تعمل في الواقع وفي غزو العراق الأخير ، وفي مخططات الغرب كله .

يقول نيكسون ، رئيس الولايات المتحدة السابق في كتابه " نصر بلا حرب " : " تَهُبُّ في منطقة الشرق الأوسط عاصفة دينية لا نستطيع أن نقف في وجهها ، ولكننا نستطيع أن نحرفها " . فسلكوا من أجل ذلك خطوات محدَّدة ومراحل مدروسة تمثل **حقيقة المؤامرة الكبرى** على العالم الإسلامي ، ونوجز هذه الخطوات والمراحل بنقاط :

١- غزو العالم الإسلامي بفتنة الشهوات والفحشاء والانحلال الخلقي ، وتشجيع الزنا واللواط تحت شعار الحرية الفردية ، والمناداة بحُريَّة المرأة وانطلاقها بهواها ورغباتها ، ونزع الحجاب عنها ونزع الحياء، والاستعانة من أجل ذلك بكل الوسائل الإعلامية من فضائيات ومجلات ، ودعاة يتبنّون ذلك ، وينشرون مختلف أنواع الفساد بين المسلمين .

٢- غزو العالم الإسلامي بالمبادئ والأفكار المخالفة للإسلام ، يتولاها مفكرون وعلماء، ووسائل الإعلام والكتب المتدفقة ، لتنشر الاشتراكية والشيوعية حيناً ، وحيناً الحداثة ومذاهبها ، وحيناً العلمانية والديمقراطية ، ونشر القوميات والإقليميات وكل نوازع العصبيات الجاهلية .

٣- تكوين قوى داخلية في قلب العالم الإسلامي تدين بالولاء لهم ، يأتمرون بأمرهم وينحون نحوهم ، ويكونون عاملاً مساعداً في تنفيذ مخططاتهم .

٤- تجهيل المسلمين باللغة العربية ودفع شعوب كثيرة إلى التخلّي عن اللغة العربية ، واستبدال لغاتهم القومية أو الإنجليزية أو الفرنسية باللغة العربية .

٥- تجهيل المسلمين للقرآن والسنَّة تجهيلاً يدعمه التجهيل باللغة العربية .

٦- من خلال تلك الخطوات يقوم الغزو العسكري يُغذِّي كلَّ المحاولات السابقة ويستفيد مما تمَّ تحقيقه منها ، ويضرب الضربة المدمّرة ، إلا أن يشاء الله ، فيبطل عملهم ورأيهم وخطتهم .

وكان من أثر ذلك ومن أهم نتائجه تمزيق العالم الإسلامي أقطاراً وشعوباً يموج فيها الفساد والاضطراب الفكري والاجتماعي والجهل . وكان من أهم آثار ذلك أيضاً إضعاف العالم الإسلامي اقتصادياً حين أصبحت ثرواته نهباً للقوى الأجنبية ، وحين ضعفت الجهود في بناء السلاح وأسباب القوة والإعداد الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى ، وحين ضعفت الجهود في بناء الإنسان كما بُنِيَ في مدرسة محمد ﷺ ، ولبناء الأجيال المؤمنة التي يُنْزِل الله نصره عليها ، وصاحب ذلك كله سقوط الخلافة الإسلامية كضربة موجِعة للعالم الإسلامي الواهي المتخلف ، فزاد التمزيق ، وتناثر المسلمون مذاهب شتى أهواء ومصالح . وأصبح الكثيرون يطلبون الدنيا ويتنافسون عليها ، ونسوا الله والدار الآخرة ، وأصبح تحدِّي الإسلام أمراً يُجْهر به ، ومخالفته جائزة مباحة ، وأخذ بعضهم يسارعون في الأعداء يبتغون العزَّة عندهم ، فأصبحت الحرب على الإسلام يشارك فيها طوائف كانت تنتسب إلى الإسلام ، قوى داخلية تمعن في توهين المسلمين وتمزيقهم ، وانطلقت الشعارات مدويّة بذلك لا يصدها شيء ، وأصبح تدمير بعض بلاد المسلمين واقعاً حقيقياً ، واستباحة الثروات والقتل في عمليات إبادة جماعية واقعاً مشاهداً ، وتشريد المسلمين ليكون منهم أكبر نسبة من اللاجئين في العالم .

لقد نجحت هذه القوى المعادية للإسلام في تحقيق هذه النتائج من خلال زمن غير قصير ، ومن خلال الإصرار والمثابرة ، والتخطيط الماديِّ المحكم حسب

تصوراتهم ، فسقطت فلسطين من يد المسلمين ليكون لليهود دولة تصبح ركيزة أساسية في **المؤامرة الكبرى** على العالم الإسلامي .

وما كان لتخطيط هؤلاء أن ينجح لولا وجود خلل كبير في واقع المسلمين ، خلل فتح منافذ وأبواباً يتسلّل منها أعداء الله بسُهولة ويسر ، ويضربون يميناً وشمالاً ! وانحرف الكثيرون وقُصِّفت رماحهم ، وتداعت عليهم الأمم حلفاً بعد حلف ، حلفاً من أجل فلسطين ، وحلفاً من أجل أفغانستان ، وحلفاً من أجل العراق، والحلف هو الحلف في كلٍّ حالة ، هو الحلف الذي حاول غزو المدينة المنورة في معركة الأحزاب في أيام رسول الله ﷺ كما ذكرنا قبل قليل ، المعركة التي تتجدَّد مع التاريخ ، الحلف هو الحلف ولكن الذين هم داخل الحصار أو الغزو تغيَّروا ، فكانت الفواجع والمآسي والنُّذر المدويَّة من عند الله تصبّ علينا !

فالمسلمون اليوم في مأساة مروَّعة ، تغتالهم **المؤامرة الكبرى** والحلف الأكبر ، ولكنَّ الله برحمته جعل باب النجاة مفتوحاً أبداً لمن أراد النجاة حقّاً ، لا يدخله أحد إلا إذا استكمل شروط الدخول ، وأوفى بالعهد مع الله ، وصدق النيَّة والإيمان والنهج :

"اللهم لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك"

ومن الناس من يحسب أن النجاة ليست باللجوء إلى الله وإنما باللجوء إلى القوى المادية الكبرى في الأرض ، ونسوا أن هذه القوى قد تنهار قريباً وينهار معها مواليها ، أو أن تتخلى هذه القوى عن بعض مواليها في لحظة مفاجئة تدمرهم تدميراً، كما يشهد الواقع بذلك كله .

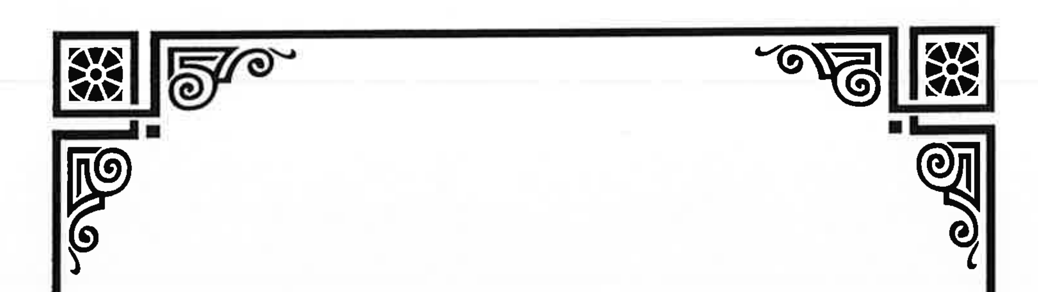
ولكن هذا الأمر يتطلب من أجل اللجوء إلى الله والنجاة من عقابه في الدنيا والآخرة ، قيام لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ، لقاء المؤمنين المتقين الصادقين على نهج حقٍّ نابع من الكتاب والسنَّة ومدرسة النبوة الخاتمة ، ليكون هذا النهج قاعدة للقاء المؤمنين ، تتكاتف فيه الجهود لبناء الجيل المؤمن الذي يمكن أن يُنزل الله نصره عليه .

إنَّ واقع المسلمين اليوم ، بالرغم من كلِّ الشعارات المدويَّة ، والحناجر التي بُحَّت ، وهزِّ السواعد والزنود والأيدي ، بالرغم من كلِّ ذلك ، فقد جلب الهزيمة بعد الهزيمة . وإذا استمرَّ واقعنا على ما هو عليه فسيزداد الابتلاء نُذُراً من عند الله ، ثمَّ يُنْزل الله عقابه الحق .

لا بدَّ أن يعي المسلمون والدعاة والحركات الإسلامية كلها دون استثناء وجوبَ الوقوف وقفة إيمانيَّة ، ومراجعة المسيرة ، وتحديد الأخطاء والانحرافات عن منهاج الله ، ثمَّ متابعة التفكير إلى بناء النهج الذي يجمع المؤمنين في لقاء يمضي على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه ، لا بدَّ من ذلك قبل أن يُنزل الله عقاباً لا مردَّ له .

وإننا ، إذ نقدِّم هذا النهج ، نهج لقاء المؤمنين ، بدراساته المفصَّلة ، ليشمل النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، والمناهج التطبيقية ، والنماذج العملية ، والنظام الإداري ، وأُسس التدريب ، ليكون ذلك كله نابعاً من الكتاب والسنَّة ومن مدرسة محمد ﷺ ، عسى أن يكون النهج الشامل الجامع بإذن الله ، يعالج الأخطاء والخلل، ويصدق التربية والبناء والإعداد .

والحمد لله ربِّ العالمين



الباب الخامس

لهم ما للمسلمين ؟!

١- لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ؟!

٢ - العالم الإسلامي بين الغزو العسكري والغزو الفكري .

٣ - أسلمة العلمنة أم علمنة الإسلام .









(١)

" لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ؟! "

لقد كثر في الآونة الأخيرة على لسان عدد من الدعاة المسلمين ترديد مصطلحات وأفكار ينسبونها إلى الإسلام ، ثُمَّ إذا هي تنتشر بسرعة عجيبة في بعض وسائل الإعلام من صحافة أو فضائيات أو مجلات أو كتب . ثمَّ يصدر على ضوء ذلك فتاوى وآراء ظاهرة الانحراف عن الإسلام ، متناقضة مع آراء سابقة وفتاوى ماضية .

كثرت في هذه الآونة مصطلحات : الوطن ، المواطنة ، حقوق المواطن ، الآخر ، الاعتراف بالآخر ، الإنسانية ، وأمثال ذلك مما يصعب حصره . نعم! يجب على المسلم أن يحرص على مصلحة وطنه المسلم ومصلحة كل أرض إسلامية . ولكن هذا الحرص يجب أن ينطلق من دين الله ، من الإسلام ، من دين جميع الرسل والأنبياء ، من منهاج الله كما أُنْزِلَ على رسول الله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

ولا بدَّ أن يقدِّم المسلم ، حين يعطي رأيه في هذه القضيَّة أو تلك ، حجّته ودليله من منهاج الله ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربيَّة ـ ، ومن الواقع الذي يُرَدُّ إلى منهاج الله ردّاً أميناً عن إيمان صافٍ وعلمٍ سليم بمنهاج الله وبالواقع .

ولا بدَّ كذلك حين يستشهد بآية أو بحديث أن لا يؤوِّله تأويلاً خاصّاً ليوائم دعواه ورأيه وهواه ، بل يلتزم المعنى الذي تقرّه اللغة العربية وقواعد الإيمان والتوحيد ، وسائر آيات الكتاب ، وسائر أحاديث الرسول ﷺ ، ذلك لأن معاني الآيات والأحاديث لا تتعارض ، وإذا بدا تعارض فذلك منا نحن البشر وليس من منهاج الله . فالمعاني في منهاج الله كلها مترابطة متناسقة في قلوب المؤمنين الخاشعين المتقين العالمين .

وإن جميع القضايا التي أخذ بعض الدعاة وغير الدعاة يحرصون على نشرها

والاهتمام بها ، حرص الإسلام على دراستها وصياغتها صياغة ربَّانيَّة تنفي عنها العصبيات الجاهلية ، وتنفي عنها عوامل التمزيق والصراع والإفساد في الأرض . فالعائلية هي في الإسلام صلة رحم لها قواعدها وأصولها ، وكذلك الوطنيَّة والوطن ومصالح ذلك ، جعل الإسلام منها أخوة إيمان تلتزم شرع الله كله، وعدالة واضحة تعطي كل فئة حقوقها كما شرعها الله لا كما تُريد بعض القوى في الأرض أن تشرِّع لها .

أخذ الكثيرون يتغنَّون " بالآخر " ويطالبون بالاعتراف به وبحقوقه ، ولقد حرتُ وأنا أبحث عن هذا الآخر الذي لا ينال حقوقه ، أو أنه مظلوم ، أو أنه غير معترف به ، فلم أجد أحداً ينطبق عليه هذا الوصف إلا المسلم الذي أصبح يطارد في شرق الأرض وغربها . إذا أرخى لحيته أصبح متطرِّفاً متعنِّتاً ، وإذا حافظ على الصلوات في المسجد أصبح مغالياً أو إرهابيّاً ، وإذا ذكَّر بآية أو حديث أصبح شاذاً مثيراً للفتن ، وإذا لبست المرأة المسلمة الحجاب أصبحت شاذة محاربةً تغلق أمامها الأبواب .

لماذا التغنِّي " بالآخر " وبحقوقه ، ليت هذا " الآخر " يحترم أبسط حقوق المسلم . يُرادُ من المسلم أن يتخلَّى عن دينه حتى يصبح في عرف المنحرفين إنساناً سويّاً !

ويتغنَّون " بالإنسانيَّة " ! يتغنَّون بها بصورة توحي بأنها ليست في الإسلام ، ولا في مبادئه ، يوحون بأنها في الديمقراطية ، في العلمانية ، في الماسونية! وينادون بأن الإنسانية هي وحدها التي تجمع الناس ، ولكن على أيِّ مبادئ وعلى أيِّ مناهج ؟! كلمات عامة عائمة لا تحدِّد حقوقاً ولا ترسم نهجاً ولا تشقُّ طريقاً ولا تعالج أمراضاً أو خللاً .

" الإنسانيَّة " بأصدق معانيها هي في الإسلام وحده ، في شرع الله ، في الإيمان والتوحيد . فإذا انفصلتْ عن الإسلام تَنْفصل عن دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وأصبحت نهباً للشهوات والمصالح وعواصفها ، لا ضابط لها أبداً

إلا جنون القوة والسيطرة ، ثم الصراع الذي يُلغي كل معاني الإنسانية ! وهذا هو الواقع أمامنا ، وهذا هو التاريخ معروضاً بين أيدينا .

حسبنا الإسلام ، دين الله ، دين جميع الرسل والأنبياء ، فهو وحده الذي يوفِّر للبشريَّة كلها أكمل معاني الإنسانية ، وأعلى معاني العدالة ، وأصدق آفاق الحريَّة، ولينال كلٌّ حقوقَه حسب شرع الله ، لا حسب شرع الديمقراطية والعلمانية والاشتراكية ، حيث تموت هناك العدالة والحريَّة والإنسانيَّة إلا في أجواء التخدير، والمساواة بالظلم والفقر ، والفاحشة ، والفجور ، لا ضابط إلا سلطان القوة والبطش والتخدير وما ينتج عنها من قوانين وضعيَّة .

لقد وقع بعض الدعاة ، بعد أن سحرتهم حضارة الغرب وزخارفها الكاذبة وخدَّرتهم ، وقعوا في شركها وبين أنيابها ومخالبها . فلم يكتفوا بأن يتولّوا الدعوة إلى العلمانية حيناً ، وإلى الديمقراطية حيناً آخر ، وإلى الاشتراكية حيناً آخر ، وإلى كل " فتنة " جديدة تأتي من الغرب الساحر بخدره وسَكَره ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فأخذوا يُؤَوِّلون بعض الآيات والأحاديث تأويلاً واضح الفساد ، تأويلاً تدفعه الأهواء الهائجة والرغبات بين الناس ، وكثير من الناس لا يعلمون دينهم وهم مسلمون ، يأخذون الدين مما قال هذا ومما قال ذاك ، يأخذونه من البشر الذين لا يُتبعونه بالدليل من الكتاب والسنَّة بصورة أمينة صادقة .

فتنتشر آراء كثيرة بين الناس ، تفتنهم عن صفاء دينهم وسلامة تصورهم وفطرتهم . ولقد جمعت نماذج من ذلك قدر استطاعتي ورددت عليها في كتابي بعنوان : " **الانحراف** " ! وكنت أظنُّ أني غطَّيت مساحة كبيرة نسبياً ، حتى فوجئت بآراء جديدة تموج بها بعض الأقلام وبعض الأفواه والألسنة . تموج بها وتزخرفها بألفاظ من الزينة المغرية ، كألفاظ الإنسانيّة ، الأخوة الإنسانيَّة ، والمصلحة ، العدالة ، حريَّة الإنسان ، والوطنيَّة ، والقوميَّة ، شعارات متفلتة من أيِّ ضوابط ، تُغري النفوس فتقبل عليها فلا تجد نهجاً ولا شرعاً ولا ضوابط .

لقد اختلطت مصطلحات الوطنية والقومية والعروبة بالإسلام ، حتى كادت تطغى على كلمة الإسلام ، أو تحلُّ محلها على ألسنة بعض الدعاة . ولذلك فقد حصر بعضِ الدعاة نظرتهم في الإصلاح إلى إصلاح وطنهم ، وأخذوا يعلنون ذلك، ويحدِّدون حقوق المواطن على أساس المواطنة بغض النظر عن شريعة الله ، حتى جعل بعضهم رابط المواطنة أخوة في المواطنة وطويت أخوة الإيمان ، وأخذوا بشرع الغرب والعلمانية في ذلك دون شرع الله . وقالوا بلسان عربيٍّ مبين: " إنّ لهم أي لغير المسلمين ما لنا (أي للمسلمين) وعليهم ما علينا " . وظننت بادئ الأمر أنها هفوة عالم يمكن أن تزول . ولكن رأيت أن هذا القول : " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " أَخذ يمتدُّ ويُردِّده دعاة مسلمون هنا وهناك ، وينسبونه إلى الله ورسوله ظلماً وبهتاناً .

ثمَّ فوجئت بكتاب يقول فيه مؤلفه : " **أما بالنسبة لغير المسلمين فأساس المواطنة هو " الولاء " للدولة الإسلامية عن طريق العهد ، لأن حق المواطنة لا يستلزم وحدة العقيدة ولا وحدة العنصر ، قال رسول الله ﷺ : " لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم " ! وهذا الدليل يتوافق مع ما نصَّ عليه دستور المدينة الذي قرَّر المواطنة المتساوية لليهود وغيرهم مع المسلمين تحت لواء الدولة الإسلاميَّة ، يعيشون ...... ".ثمَّ يقول : " الثاني : مبدأ التسامح مع أهل الأديان السماوية الأخرى ، وذلك بأن جعل لهم الإسلام من الحقوق وأوجب عليهم من الواجبات عين ما للمسلمين وما عليهم ، وليس أعدل ممن يساويك بنفسه في المنفعة والعدل والحكم " !**

ويحيل الكتاب نصَّ الحديث الذي نسبه إلى الرسول ﷺ إلى " صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط٢ ، ثم ذكر الصفحة والمجلد ورقم الحديث .

ومن هنا ، ومن مثل هذه الكتابات انتشر هذا التعبير عن غير المسلمين في ظل الدولة المسلمة : " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " ! وكلٌّ من درس القرآن الكريم والسنة والتاريخ يدرك أنه يستحيل أن يقول الرسول ﷺ هذا الحديث أو مثله .

ولكن هذه الجملة : " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " انتشرت في وسائل الإعلام وعلى ألسنة الدعاة وكثير من المسلمين ليبيّنوا أن الإسلام عادل ومنصف حسب ما يريد الغرب وحسب موازين الديمقراطية والعلمانيَّة ، ولكنهم بادعائهم هذا نفوا العدالة عن الإسلام ، وبدَّلوا في شرع الله الذي به تقوم العدالة بأعلى درجاتها ، و به وحده تقوم الإنسانية ، و به تقوم الحريَّة .

ولقد ورد هذا النص : " **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** " في بيان أصدره داعية مسلم بصدد حديثه عن أُخوّة بين المسلمين وغير المسلمين في بلده فامتدَّ تطبيق هذا النص إلى أبعد مما ذهب إليه مؤلف الكتاب الذي أشرنا إليه سابقاً ، إذ بُنيت هنا أخوة بين المسلم وغير المسلم مما لم يحدث في التاريخ الإسلامي كله ، ولا في فقهه ولا في عدالته وحريّته ! فكيف تكون أخوة المسلم مع غير المسلم ، والله ورسوله حدَّدا معنى الأخوّة ومجالات استخدامها ، فالله سبحانه وتعالى يقول : " **إنَّما المؤمنون إخوة** " ! والرسول ﷺ يقرر في أحاديث كثيرة : " **المسلم أخو المسلم** .... ! فكيف نشأت هذه المصطلحات والأفكار ؟!

إنني أشعر أن هذه المصطلحات وهذه التصورات تكاد توحي بدين جديد غير ما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، دين ينطلق من أفكار بشريَّة ومصادر بشريَّة وإعلام بشري سقط فيه بعض المسلمين .

ولإيضاح ذلك نبيّن أولاً بطلان الحديث : " **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** " ، فبهذه الصورة هو حديث غير صحيح ، باطل رواية وسنداً ومعنى . ولكنه جزء من حديث صحيح للرسول ﷺ ، أُغْفلَ معظمه ، واقتطعت منه هذه الجملة وعزلت عن بقيَّة الحديث ، فتغيَّر المعنى كليَّة . فلنستمع إلى نصِّ الحديث بكامله من المرجع الذي أشار إليه مؤلف الكتاب السابق ذكره : صحيح ابن حبان تحقيق الأستاذ شعيب الأرناؤوط ص ٢١٥ ، ج ١٣ ، رقم ٥٨٩٥ :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**أُمرتُ أن أقاتل**

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلُّوا صلاتنا، فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالُهم ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم). وجاء في الشرح أنه صحيح على شرط الشيخين وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٣ ، وأخرجه النسائي وأحمد وأبو داود والترمذي والخطيب في تاريخه، والبيهقي ...! وذلك يعني أن من دخل في الإسلام مهما كان جنسه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وهذا هو معنى الآية الكريمة في سورة التوبة :

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ١١]

فالحديث إذن معروف في كتب السنة ، معروف بكامل نصّه ، فكيف أغفل الكاتب معظم الحديث والشروط الواردة الحاسمة فيه وأخذ بالجملة الأخيرة ، وبنى عليها قضايا وقضايا كمبدأ التسامح والوطنية والإنسانية وسائر ما استخلصه الكاتب من الحديث الشريف الذي أخذ بآخر جملة فقط منه ، وغيَّر نصَّها !

ويزيد الأمر عجباً حين نرى كثيراً من الدعاة ينادون بهذا الشعار غير الصحيح : " **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** " ، أو ينادون بما يُبْنى على هذا النصِّ المجزوء من أفكار باطلة ، وافتراء على الله ورسوله ، وتحريف في دينه تدفع إليه ضغوط الواقع كما دفعت اليهود والنصارى إلى أن يُحرِّفوا في التوراة والإنجيل !

ولم يسمِّ الإسلام مذهب اليهود والنصارى ديناً جديداً أو دينا سماوياً كما ذهب إليه الكاتب ، فالدين عند الله واحد هو الإسلام فقط ، دين جميع الأنبياء والرسل ، ودين موسى وعيسى عليهم السلام جميعاً . إنما سماهم الإسلام " أهل الكتاب " ، وبيَّن حقوقهم وواجباتهم بالتفصيل على أعلى درجة من العدالة والحق ، لأنه تشريع من عند الله ، وليس من عند البشر . فليس هنالك أديان سماوية أبداً إلا دين واحد هو الإسلام . وهل يعقل أن يبعث الله لخلقه أدياناً مختلفة يتصارع

الناس عليها صراعاً قد يذهب بالإيمان ، والله يريد من جميع خلقه أن يدينوا بدين واحد ، وأن يؤمنوا برب واحد وإله واحد إيماناً واحداً !

لقد عرض نيكسون في كتابه " الفرصة السانحة " موقف أمريكا من الإسلام والحركات الإسلامية . وقسَّم المسلمين إلى ثلاث فئات : الأصوليون والرجعيون والتقدميون . وقال : " يجب علينا أن نعاون التقدميين في العالم العربي . ففي ذلك مصلحتهم ومصلحتنا ، فهم محتاجون لأن يعطوا أنصارهم أيديولوجيَّة بديلاً لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين وانغلاق الرجعيين " . إن مفتاح السياسة الأمريكية يكمن في التعاون الاستراتيجي مع المسلمين التقدميّين فقط " .

نودُّ أن نقول لنيكسون إن هذا التقسيم لا يعرفه الإسلام ، إن الإسلام يقسم الناس بنصِّ كتاب الله إلى : مؤمنين ، منافقين ، أهل كتاب ، كافرين . ولكل قسم من هؤلاء تعريفهم المفصَّل . وإذا كان من يسميهم بالتقدميين يحتاجون إلى أيديولوجية بديلاً عن أيديولوجية الأصوليين والرجعيين ، فلا بدَّ أن نوضح له أن للمسلمين المؤمنين جميعاً أيديولوجيَّة واحدة هي الوحيُ المنزَّل على رسول الله محمد ﷺ بلسان عربي مبين ، فكراً وتشريعاً ونهجاً متكاملاً للحياة كلها ، لكل عصر ومكان .

ولكننا هنا نتساءل هل ما نجده في واقع المسلمين اليوم من اضطراب وتناقض وانحراف في الفكر والفتوى والمواقف هو بعض آثار تلك الأيديولوجية التي توفِّرها أمريكا للمعتدلين من المسلمين ؟!

لسنا بحاجة إلى ديمقراطية أمريكا ولا إلى علمانيتها المتناقضة ، فحسبنا ما أنعم الله علينا من دين كامل ونعمة تامة . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن واقع المسلمين اليوم لا يمثّل الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وحياً من عند الله . فواجبنا إذن أن ننهض لالتزام ما يأتي وحياً من عند الله ، بدلا مما يأتي " وحياً" من عند أمريكا .

ولا ننكر أن المسلمين اليوم متخلفون في واقعهم عن متطلبات الإسلام . فلم ينهضوا لبناء نظام إداريّ ربَّانيٍّ نابع من منهاج الله والواقع الذي يُردُّ إلى منهاج الله ، ولم ينهضوا لبناء نظام اقتصادي إسلامي يطبقون فيه شرع الله ، بل اتبعوا النظام الرأسمالي بقضه وقضيضه ، ولم يلتزموا النهج الربَّاني في التربية والبناء للإنسان ، بل غرَّتهم مناهج الغرب وأصبح لها دعاة من المسلمين . لقد عالجنا تخلفنا وضعفنا باستجداء الغرب ومناهجه وأيديولوجيته في شتى ميادين الحياة ، حتى في الكلمة والأدب والشعر !

إن الباب مفتوح دائماً لمن يريد أن يبدع في مناهج إيمانية في شتى ميادين الحياة ! فهل من مدَّكر ؟!

ولن يجد اليهود ولا النصارى ولا غيرهم عدالة ورحمة أصدق مما وجدوه في ظلِّ الإسلام وحكمه ، وإن كانوا قابلوا ذلك بغير ما لقوه ! فهل قابلوا الإحسان بالإحسان ؟!

ونودُّ من المسلمين أن يبحثوا عن العدالة والمساواة والإنسانية مع إخوانهم المسلمين الذين أمر الله أن يرتبطوا جميعاً بأخوّة الإيمان عاطفة ومسؤوليات وحقوقاً ، مثلما ينادون بالعدالة مع الآخر ! وسوف يُحاسَب المسلمون بين يدي الله عن مدى وفائهم بأخوة الإيمان فيما بينهم ، وسوف يحاسبون أيضاً عن مدى وفائهم بالقسط والعدالة مع غير المسلمين على أساس من شرع الله .

(٢)

العالم الإسلامي
بين الغزو العسكري والغزو الفكري

يتعرَّض العالم الإسلامي إلى غزو واسع من العالم الغربي منذ زمن غير قليل ، إلا أنه في هذه المرحلة أخذ صورةً جديدةً فيها جرأةٌ على الإسلام والمسلمين ، واستخفاف بهم وتحدٍّ لهم . وجمعت هذه الصورة الجديدة قسْوة الغزو العسكري ووحشيّته وامتداد الغزو الفكري واتساع أثره وفتنته .

إنَّ وحشيّة الغزو العسكريّ في فلسطين وأفغانستان والعراق ومناطق أخرى ظاهرة للعيان . والعالم الإسلامي يقف أمامها مشلول القوى خائر العزائم غير قادر على صدِّها ، بين ضجيج الشعارات واضطراب الخطوات وتمزُّق المحاولات، فنزل بالمسلمين من الهزائم ما لم يشهده تاريخ المسلمين أبداً .

ولا نقول إنَّ هذا الغزو جاء مفاجئاً ، إلا للغافلين النائمين ، يستيقظون على هوله وسرعته . لقد جاء هذا الغزو على سنن لله ماضية عادلة حقٍّ لأن الله لا يظلم أحداً ولا يظلم شيئاً . وفي الوقت نفسه جاء على خطّة مدروسة ونهج معدٍّ لدى الغرب . ونعتقد أن ملامح هذه الخطة بدأت تظهر مع أوائل القرن السادس عشر في هجمة على جنوب شرق آسيا ، حين انطلقت البرتغال إلى " مالاقا " ، وحين قال قائد الحملة يخاطب جنوده : " **.... وأؤكد لكم إذا استطعنا تخليص مالاقا فستنهار القاهرة ... وبعدها مكة نهائيّاً ...** " ! وعندما سقطت " مالاقا " أقامت روما قدّاس شكر ! وخطب أحدهم أمام ليو العاشر فقال : " **إنَّ هذا النصر سيسهِّل استعادة القدس** " ! وامتدَّ الغزو مع القرون إلى شمال أفريقيا وإلى عدن ومصر والسودان والبحرين ومسقط والكويت ، والقوقاز وطشقند وسمرقند وبخارى وأوزبكستان . وتقسم العالم الإسلامي إلى قطع متناثرة في تاريخ يحمل من المآسي الشيء الكثير .

وفي هذه المرحلة الطويلة ، صادف أن انطلق هذا الغزو العسكري والمسلمون في بداية وهن وضعف آخذ بالازدياد ، لا يستيقظون من مأساة إلا على مآسي جديدة متلاحقة .

ورافق هذا الغزو كذلك غزو فكريّ مدروس ، تتسلل معه الفتنة في ديار المسلمين ، تكتسب كلَّ يوم جنوداً لها من المنتسبين إلى الإسلام . وكما فشل المسلمون في صدِّ الغزو العسكري ، فشلوا كذلك في صدّ الغزو الفكري ، حتى عمَّ العالم الإسلامي حركاتٌ منظمة تجاهر بحرب الإسلام ، وحركات تتخفَّى وراء زخارف لتنفث سمومها ، وحركات هجمت على نصوص الكتاب والسنَّة تفسد تأويلها وتنشر فتاويها وتلبس على الناس دينهم ، وتلقي بينهم قضايا تشغلهم عن مجابهة الخطر الحقيقي الذي يُهدِّد الأمة كلِّها .

وتعاون الغزوان العسكري والفكري في إضعاف الأمة وتمزيقها وشلِّ قواها، ونشر الفتنة بعد الفتنة .

إنك تجد اليوم من يعلن أنه لا يرضى بتدخل الدول الأجنبية في شؤون دولهم ، دون أن ينتبه إلى أن هذه الدول الأجنبية قد اخترقت الأمة بفكرها وزخارفها ، وأصبح لها موالون ودعاة مؤيدون ، ودون أن ينتبه إلى أنه هو من الداعين للفكر الغربي والحياة الغربية ولو تحت شعار الإسلام .

يُفترض أنَّ من يدعو إلى الإسلام ، ويعلن عن نفسه أنه داعية مسلم أن يلتزم هو بالإسلام ديناً وفكراً ومنهج حياة ، وأن تتناسق مصطلحاته مع نصوص دين الله وشرعه. لقد اختلطت مصطلحات الوطنية والإقليمية والقومية مع مصطلحات الإسلام ، دون أن تبيّن حدود كل مصطلح ومفهومه وتطبيقه .

فالإسلام يصوغ جميع هذه المصطلحات صياغة جديدة لترتبط كلها من خلال تشريعه : العائلية والرحم ، الوطنية والإقليمية ، والقومية مع قواعد الإسلام، ومن خلال تشريع ربَّانيّ يجمع البشريّة كلَّها في ظلاله وتتناسق الروابط كلها من خلاله كذلك ، لتأخذ كل واحدة من هذه الروابط معنى وحدوداً من

شرع الله ، حتى لا تتحوّل أيٌّ منها إلى عصبيّة جاهليّة حرّمها الإسلام ، ودون أن يدَّعي أحد أن أيّاً منها يمثّل شرعاً جديداً أو منهج حياة جديداً ، ويظل في الإسلام بين جميع هؤلاء أخوّة واحدة هي أخوّة الإيمان التي شرعها الله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾
[الحجرات: ١٠]

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : **(المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمَّى والسهر)**

[رواه أحمد ومسلم ، صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم ٦٦٦٧]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال :

(المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه . التقوى هاهنا ـ وأشار إلى القلب ـ بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم)

[واه الترمذي . صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : ٦٧٠٦]

وأحاديث أخرى كثيرة تحدّد حقوق الأخوة الإيمانية وواجباتها ، وتنظم علاقاتها في منهج متماسك ، لتكون هي الرابطة الربَّانيَّة الوحيدة التي تجمع الناس كلّهم على الحقّ .

ولقد حرص الغرب على إثارة العصبيات الجاهلية بين المسلمين ، واستجاب كثيرون من الناس عامة ومن الدعاة وغيرهم ، حتى تمزَّقت أخوة الإيمان بين المسلمين ، وحتى سهُل على المسلم أن يتقارب مع غير المسلم وينأى عن أخيه المسلم ، وتوالت الدعوات إلى الاعتراف بالآخر والتقرُّب إلى الآخر وإقامة الحوار والسلم مع الآخر ، وتناسوا المسلم وحقوقه ، ووجوب الحوار بين المسلمين أولاً لإعادة الرابطة الربَّانيَّة بينهم **أُخوَّة الإيمان** .

ويرى بعضهم مع دعوة الإصلاح الحالية أنَّها مطلب وطنيّ وقومي وإسلاميّ .

ولكن خلط هذه المصطلحات على هذه الصورة يُغيّب الطريق والهدف والوسيلة إلى الإصلاح . فالإسلام وحده يقدم منهجاً كاملاً مترابطاً للإصلاح ، منهجاً لا نجده مع الشعارات المختلطة . والإسلام يقدم الوسيلة والهدف ويحدّد الرابطة ، وبغير ذلك يصبح الإسلام شعاراً وتصبح الممارسة العمليّة أهواءَ ومصالحَ وعواطفَ ، فتتمزَّق الأمّة ، ويصبح لكلّ بلد إسلام خاص به لينحرف به إلى مصالح دنيوية مخالفة لشرع الله ، ويصبح هنا أخوّة جديدة وهناك أخوّة ثانية وأخوة ثالثة ، وأخوّة وطنية على غير ما شرع الله ، وأخوّة مع النصارى أو اليهود أو غيرهم ، حسب الحاجة وتحت شعار الإسلام .

وقد ينادي بعض الدعاة المسلمين بأنَّ الإصلاح يجب أن يبدأ بالإصلاح السياسي ! فإذا بدأ بذلك فإلى أين ينتهي . ولقد قامت دعوات ومحاولات لبدء الإصلاح بالإصلاح السياسي ، وقامت انقلابات وثورات ، فإلى أين انتهت وماذا حققت من إصلاح ؟!

وقد تجد الداعية المسلم يدعو إلى المصالحة الوطنية كأساس لعمليّة الإصلاح الشامل ، وأساس لتحديد العلاقات والحقوق والواجبات ، طارحاً عرض الحائط بكل نصوص الكتاب والسنَّة ، منطلقاً من الدعوة الغربيّة العلمانيّة الديمقراطيّة ، حتى جعل من الإسلام مجرَّد شعار لا رصيد له في الواقع . والأسوأ من ذلك أن يفتري بعضهم على الإسلام فيخفي أخوّة الإسلام ويدَّعي أن الإسلام يدعو إلى الأخوّة الوطنيّة والأخوّة القومية والأخوة الإنسانيّة ، فجمع الماسونية والعلمانية وغيرها في خليط غير متماسك . وكان أحرى بالمسلمين أن يعلنوا أنَّ الإسلام صاغ جميع هذه العلاقات صياغة إيمانيّة ، ونظّم لكلّ حدودها ودورها في منهاج ربَّاني متكامل .

ونشير هنا إلى أنَّ محمداً ﷺ حين بُعثَ نبيّاً ورسولاً كان يحيط به من أعداء الداخل والخارج ما هو أشدّ مما نلاقي نحنَ اليوم . فلم يكن منهج الإصلاح الذي دعا إليه منهج وحدة مع قريش أو أيّ فئة في الأرض ، ولم يكن منهجاً وطنياً ولا

قومياً ، وإنما كان منهجاً ربَّانيّاً ودعوة ربَّانيّة يدعو إليها قومه قريشاً دون مساومات على دين ودعوة ، ويدعو أهل المدينة وأهل الجزيرة العربيّة ، ويدعو إليها الناس كافَّة ، ليصلح بها حال قومه وحال العرب كلهم وحال البشريّة جمعاء. هذه هي دعوة الإسلام ، ولا نرى أنه يحلّ لأحد من الناس إذا انتسب إلى الإسلام داعية أن يخالف نهج الإسلام ، أو يبدّل فيه ويحرِّف ، ويجعل مخالفته وانحرافه كلّه تحت شعار الإسلام !

إنَّ موقف المسلم الداعية لا يتحدّد بطلب التعاون مع غير المسلم فحسب ، ولكنه يتحدّد ـ وهو داعية ـ بأن يبلّغ رسالة الله إلى الناس كافّة ويتعهّدهم عليها كما أمره الله سبحانه وتعالى في الكتاب والسنَّة ، ويبني علاقاته وهو داعية على أساس الدعوة والبلاغ والتعهّد ، ليوفي بالعهد والأمانة والعبادة التي خَلَقه الله للوفاء بها . ومن خلال ذلك ينشأ التعاون على أساس من شرع الله الذي فصّل ذلك .

كيف يمكن للداعية المسلم أن يدعو إلى الإصلاح على أساس الإسلام ، ثم يدعو الفئات التي تحارب الإسلام أو لا تؤمن به لتتعاون معه على نصرة الإسلام ومنهاجه في الإصلاح ؟! لماذا هذا التناقض الواضح ؟!

لقد مضى على العمل الإسلامي زمن غير قصير ، ولاقى من الفشل الشيء الكثير ، حتى توافرت لديه تجارب كثيرة ، لو وقف عندها ودرسها ودرس الأخطاء التي وقع فيها ، ووضع منهجاً عملياً لمعالجة هذه الأخطاء ، لو فعل ذلك لاستقام له الدرب ، وخلص من التناقضات ، وكان أقرب للتقوى .

هذا ينادي إلى الإصلاح الإنساني المصري ، وذلك ينادي إلى الإصلاح الأردني وآخر في بلد آخر ، على مناهج تحمل التناقض فيما بينها ، فلماذا لا تكون الدعوة كما يريدها الإسلام دعوة إلى إصلاح الإنسان على منهج يصلح لكل إنسان ، لكل وطنيّة وقوميّة . فالمشكلات واحدةٌ والحلول متضاربة .

ونحار بين اضطراب المصطلحات وتناقضها فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين الإسلام من ناحية أخرى . فإذا كان كل داعية يؤكِّد تمسّكه بدستور بلاده ، وبالنظام الجمهوري والديمقراطي والبرلماني ، فأين النظام الإسلامي ؟! **أليس للإسلام نظام للإصلاح والحكم ؟! فما هو أيها الدعاة ؟!**

كلما طلع مصطلح أو فكر من الغرب هَرَعْنا إليه واحتضنَّاه لنثبت أنه من الإسلام والإسلام منه براء . ألم نجعل الاشتراكية من الإسلام ، ولما جاءت الديمقراطية بدَّلنا وجعلناها من الإسلام ، وانتشر الدعاة المسلمون في الأرض يدعون إلى الديمقراطية ، ولما ظهرت الحداثة تسابقت الأقلام لنثبت أن الحداثة عربيّة أو إسلاميّة ، ولما جاءت العلمانية وامتدت في ديار المسلمين لم يتردّد بعض الدعاة المسلمين في مؤتمر إسلامي عام أن يعلنوا أنَّ العلمانية مساوية للإسلام في مقصودها ، وأن يقول داعية : لا نملك إلا أن نندمج مع النسيج الثقافي والديني في ذلك المجتمع الغربي !

عجباً كل العجب ! أليس هذا نوعاً من إعلان الإفلاس والهوان ؟!

نسرع ونهرول لتقليد الغرب في اللباس والطعام والشراب ، وفي الفكر والأدب والشعر ، وفي حفلات الرقص ، وإطلاق حريّة المرأة على أسس علمانيّة ديمقراطيّة فاقعة في لونها ، ولم ننشط مثل هذا النشاط في بناء العلوم التطبيقية والصناعة والسلاح وسائر أسباب القوّة ! نقلّد الغرب في كلِّ شيء إلا في النافع من ميادين الحياة ، حتى كأنَّ الإبداع عندنا هو التقليد ثم التقليد !

فلا عجبَ بعد ذلك أن نجد من يقول : " **إنَّ الإصلاح الشامل لا يتحقّق إلا من خلال الديمقراطية التي نؤمن بها ونلتزم بأصولها ، وندعو الأحزاب والقوى السياسية الأخرى إلى تأييدها كميثاق وطني** " ! فلا بدّ أن نسأل الداعية المسلم أين الإسلام ؟! ولا بدَّ أن نذكّر الداعية المسلم بأنَّ أصول الديمقراطية التي يلتزمها هي الوثنيّة اليونانيّة ، ولا بدَّ أن نتساءل أليس هذا الصوت

وهذه التعبيرات هي التي يدعو إليها بوش ؟! ولا بدّ أن نذكّر الداعية المسلم بأنّ الديمقراطية التي يتحدَّث عنها هي بنت العلمانيّة أو هي العلمانيّة !

وإذا كان ادعاء بعض المسلمين أنهم يريدون الديمقراطية لأن فيها حريةً وعدالةً ومساواةً ، فنسألهم حينئذ : أوليس في الإسلام حريّة وعدالة ومساواة ؟! ولا شك أنَّ في الإسلام ذلك كلّهً وأكثر منه ، ولكنكم فشلتم في تطبيق حريّة الإسلام وعدالته ومساواته ، فستفشلون في تطبيقها في ظلِّ الديمقراطية كما فشل أصحابها في تحقيق هذه الزخارف . إنَّ هذه الشعارات هي زخارف مخدِّرة في الديمقراطية ، ولكنّها حقائق وأسس في الإسلام !

ويتبع هذه الشعارات قول بعضهم: " **يجب الإقرار التام بأنَّ الشعب هو مصدر السلطات جميعها** " ! أين الإسلام الذي يحدّد السلطات بشرعٍ من عند الله؟! إنَّ هذا المبدأ هو مبدأ ديمقراطي وثني نادت به الوثنية اليونانية وامتدّ منها إلى العلمانية الغربيّة وإلى الديمقراطيّة . ومن هذا المبدأ أجاز الشعب ، وهو مصدر السلطات ، الزنا واللواط والخمر وأنواع الفاحشة كلها وكثيراً من أنواع الفتنة والفساد والظلم الظاهر والمخفي . وكيف ينادي داعية مسلم وهو يعلم أن الشعب في معظمه يجهل الإسلام ، وأن فئات كثيرة فيه تحارب الإسلام ، فأي شعب وأيّ سلطات ؟!

ولقد نادى كثيرون بحريّة الاعتقاد للناس . إنَّ هذا المطلب لا يمثل مشكلة المسلم أو قضيته . ذلك لأن حريّة الاعتقاد فطريّة ، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف: ٢٩]

إنَّ قضيَّة المسلم أن يدعو إلى الإسلام دعوة جليّة واضحة : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ.... ﴾ ! فالقضيّة إذن إبلاغ الحق ، دين الله ، الإسلام . وبعد ذلك فمن آمن

فله جزاء ومن كفر فله جزاء آخر . فليست القضيّة كما هي في الديمقراطية أن نترك الناس يعتقدون كما يشاؤون ، يؤمنون أو يكفرون ، دون أن يجدوا من يدعوهم إلى الحقّ ، إلى النجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، ودون أن يذكرهم بأن لكل موقف جزاءً عادلاً .

فهذه فتنة كبيرة ، فالناس كلهم مصيرهم إلى جنّة أو إلى نار ، والداعية المسلم مسؤول أن يدعو ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقذهم من عذاب الآخرة الذي هو حق أكيد في شرع الله لمن لم يؤمن ، ولكنّها قضيّة متروكة في الديمقراطية والعلمانيّة ! ولقد بعث الله الأمة المسلمة لتكون خير أمة أخرجت للناس ، لأنها تدعو وتبلّغ رسالة الله وتتعهّدهم وتنقذ الناس !

ويتكرر بين الناس مصطلح : " **الأديان السماوية التوحيدية** " ! وهذا مصطلح متناقض بعيد التناقض ، فالله سبحانه وتعالى لا إله إلا هو ، ما كان ليرسل لعباده أدياناً مختلفة يتصارعون عليها ، ثم يحاسبهم يوم القيامة ! إن وحدانية الله سبحانه وتعالى وعدالته ورحمته بعباده تأبى ذلك . فالله أرسل لعباده رسلاً يبلّغون ديناً واحداً ، ديناً سماوياً توحيدياً واحداً هو الإسلام : إنه دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام جميعاً ، كما نصّ على ذلك كتاب الله ، وخُتموا بمحمد ﷺ :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩]

وعندما ينتقل هذا المصطلح إلى بعض الدعاة المسلمين لينضم إلى سائر المصطلحات التي سبق ذكرها والتي أخذ يتبنّاها هؤلاء الدعاة ، ندرك عندئذ شدَّة أثر الغزو الفكري وامتداده في العالم الإسلامي .

ولقد حِرتُ في قول داعية مسلم : " **.... الذي ينبثق من إسلامنا كدين ونظام حياة شامل وكامل ...** " ، وفي الوقت نفسه يدعو إلى المفاهيم التي سبق أن ذكرناها ! فإذا كان الإسلام ديناً ونظامَ حياة شاملاً ، فلماذا مفاهيم العلمانية

والمفاهيم الغربية ؟! لماذا هذا التناقض ، ولماذا التمسك حيناً بالاشتراكية وحيناً بالعلمانية وحيناً بالديمقراطية ، كأننا نتسوّل الأفكار ومن هنا وهناك ؟!

ويضع بعضهم قاعدة جديدة ينسبها إلى الإسلام للتعاون بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول : " **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** " ! أيّ أنّ لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد سبقت دراستنا لهذه الشعارات في فصل سابق.

والإسلام يأمر بالقسط والعدل مع الناس كافّة ، وعلى ذلك قام شرعه ، ولكن القسط والعدل كما فصّله الإسلام لا يشمل الموالاة والخضوع والتبعية .

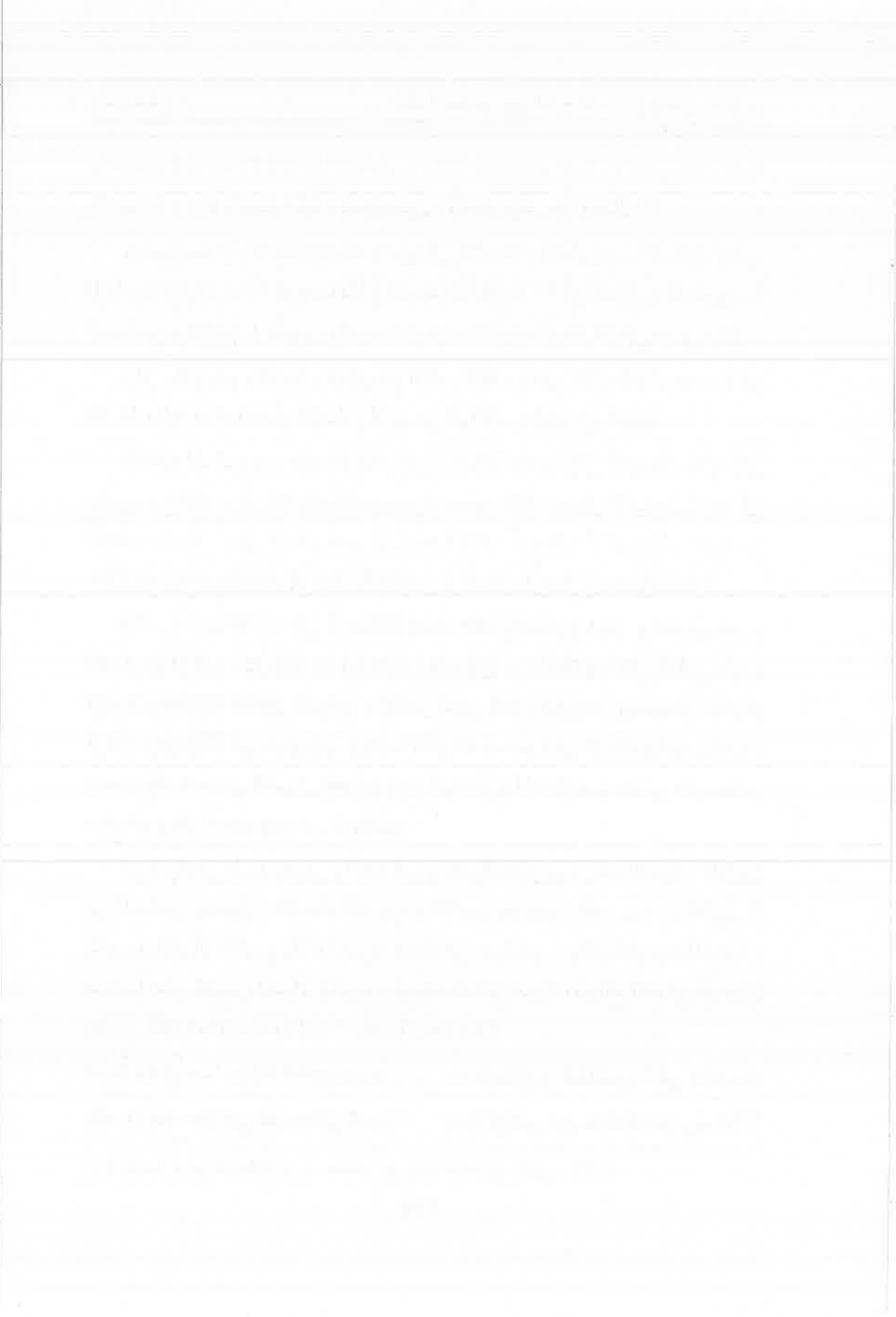
الداعية المسلم يجب عليه أن يدعو إلى وحدة المسلمين وإلى أخوة الإسلام وإلى تطبيق شرع الله ، وإلى الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ وبسائر الأنبياء كما جاء في الكتاب والسنَّة . وغير المسلم يدعو إلى وحدة عائلية أو وطنية أو قومية أو حزبية من خلال عصبيات جاهلية ، تمزّق الأمة والناس فرَقاً وشيعاً يُصارع بعضها بعضاً !

وأخيراً نشدُّ الانتباه إلى أنّ **ممالأة أعداء الله والتنازل لهم ، وتغيير شرع الله إرضاءً لهم ، كلُّ ذلك لن يجعلهم يغيرون من خُطّتهم المقرّرة في حرب الإسلام، ولكننا نخسر شيئين : نخسر نصر الله وتأييده ، ونخسر احترام أولئك وهيبتنا في عيونهم . وكلّما تنازلنا أمعنوا في الإيذاء والجرأة به . وحسبك تدنيس القرآن الكريم بعد أن تنازل المسلمون حتى عن بعض ديارهم وأعراضهم وبعض ثرواتهم .**

لم نُقمْ نحنُ المسلمين في واقعنا اليوم للقرآن الكريم منزلته الأمينة . الملايين من المسلَمين يجهلون القرآن الكريم ، والملايين يجهلون العربيّة ، والملايين لا يتدبّرون القرآن الكريم ولا يمارسونه عملياً في حياتهم . ورأى الغرب ذلك فينا ، فتجرأً على تدنيس القرآن الكريم . لم يعد لنا في ميزان الواقع الدولي أيّ وزن حقيقي لكثرة ما تهاونا وتنازلنا ، وقلّدنا وخضعنا :

أمّةُ الحقِّ ما دهاك فأصْبَحْـ ـتِ شظايا تناثرتْ في النِّجادِ
كلُّما رُمْتِ ملتقى كُنْتِ في السا حَةِ أوهْى من حفنة من رمادِ[1]

(١) ملحمة أرض الرسالات : د. عدنان علي رضا النحوي ، (ص : ١٣٤) .



(٣)
أسلمة العلمنة
أم علمنة الإسلام ؟!

كانت العلمانية من أهمِّ نتائج الصراع بين الكنيسة والسلطة الزمنية في الغرب ، الصراع الذي انتهى بهزيمة الكنيسة . وقد كان سبب هزيمتها أنها لم تكن تحمل رسالة عيسى عليه السلام ، وأن نشاطها وطقوسها وقواعدها كلها مستحدثة من الوثنية اليونانية والرومانية . وقد تدخلت الكنيسة في أمور لم تأت رسالة عيسى عليه السلام لها . تاريخ طويل من الصراع بين النصرانية التي انتقَلت إلى روما وبين الأباطرة الوثنيين . ولما حدث التعاون مع بعض الأباطرة كان تأثير الوثنية في النصرانية كبيراً جداً ، ولم تعد النصرانية هي التي جاء بها عيسى عليه السلام .

أمَّا الإسلام فهو دين الله ، ودين جميع الرسل ، جاء في الرسالة الخاتمة وحياً على النبي الخاتم محمد ﷺ منهجاً ربانياً متكاملاً للبشرية كلها حتى تقوم الساعة ، منهجاً لجميع شؤون الحياة ، يقوم كله على أساس **الحقيقة الكبرى في الكون والحياة** ، الحقيقة التي هي أخطر قضية في حياة كل إنسان ، الحقيقة التي ينبع منها الدين كله والمنهاج الرباني كله ، المنهاجِ الذي يربط الدنيا بالآخرة ، والمشهد بالغيب ، وليكون النظامَ الشاملَ الكاملَ لجميع شؤون الحياة : شعائر ودعوةً وتربيةً وجهاداً وسياسةً واقتصاداً وحكماً ودولةً وغير ذلك من ميادين الحياة الفردية أو حياة الجماعة والأمة المسلمة ، أو حياة الشعوب والبشرية .

ومع ضعف المسلمين وغياب النهج والتخطيط للدعوة الإسلامية ، ووقوع الصدام بين بعض الجماعات الإسلامية والدولة ، خُيِّل إلى بعضهم أنَّ هذا الصراع يشبه صراع الكنيسة مع السلطة الزمنية . ولما هُزِمت بعض الحركات الإسلامية وفشلت في تحقيق أهدافها ، أخذ البعض يدعو إلىَ أن تتحول الحركات الإسلامية إلى حركات علمانية تدعو إلى فصل الدين عن الدنيا ، والسلطة والحكم عن الإسلام ، اقتداء بأوروبا !

لقد تسللت المذاهب الأوروبية والغربية عامة تسلّلاً خفيّاً ، وغزت غزواً علنيّاً وأقبلت طوفاناً إعلاميّاً ، استطاع ذلك كله أن يزعزع ثقة بعض المسلمين بدينهم وبشمول رسالته وامتدادها . وزاد من هذه الهزيمة جهل ملايين المسلمين بدينهم ، وجهلهم بالقرآن والسنة واللغة العربية ، حتى غاب المصدر الحقيقي للإسلام ، عن واقع المسلمين ، وأصبح الإسلام في أحسن حالاته لدى العديد من المسلمين ثقافة عامة (ثقافة إسلامية) يلتقطها من هنا وهناك ، من مصادر بشرية متضاربة مختلفة . فزادت الفرقة بين المسلمين ، وتمزَّقوا شيعاً وأحزاباً .

وانصرفت جهود كثيرة عن الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الكتاب والسنة ، إلى الإيمان والتوحيد ، انصرفت عن هذا وذاك إلى الدعوة إلى قائد أو زعيم ، وقد تعدّدت القادة التي يدعو كل فريق إليها ، فزاد التمزّق ، وجابهت الأمة الأحداث الجسام بالمظاهرات التي تنتهي بعد حين ، فلا يجدون سبيلاً لعمل آخر ، ثم يُلقون المسؤولية على هذا وذاك ، على غيرهم ، على العدو ، وعلى أنماط مختلفة ، دون أن يقف أحدهم لينظر في نفسه ويرى أنه المسؤول الأول ، وأن أعذاره مخالفة للكتاب والسنة .

إن الخلل الواضح في عمليّة البناء ، أدّى بالكثيرين إلى أن يكون حرصهم الأول على قضايا الدنيا : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبيّة والتربوية ، معزولة عن التصور الحقّ للدار الآخرة ، وعن الإيمان والتوحيد ، إلا من حيث الشعارات وضجيجها . ثم أخذت النظرة تتركّز شيئاً فشيئاً على هذه القضايا الدنيّوية لتزداد عزلتها عن التصور الإيماني ، ثمّ تفكُّ ارتباطها به تصوراً وفكراً ، وحماسةً وعاطفةً ، ونهجاً وممارسةً ، ثم لتغيب الشعارات شيئاً فشيئاً ، ثم يتجه النشاط كله إلى الساحة العلمانية بشعاراتها المختلفة .

فبعضهم حافظوا على الشعار العام ، وتبنّوا الفكر العلماني حقيقة وممارسة ! وآخرون أكّدوا شعار الإسلام والتزامهم به ، إلا أنهم لم يتّبعوا نهجاً إيمانياً ربّانياً ، بل اتبعوا في ميدان الممارسة ميدان الوطنية حيناً ، وميدان الإقليمية حيناً آخر ،

وميدان القومية حيناً آخر ، ثم ظهر من يجرؤ على تحريف الإسلام وتشريعه وآياته وأحاديثه ، ليثبتوا بذلك باطلهم دون حياء أو خشية من الله، من يوم الحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا قوى كبيرة ولا صَغيرة ، ولا علمانية الغرب ولا وثنيته !

لم يجد هؤلاء من المسلمين النصح والردعَ وكشفَ مغالطاتهم إلا من العدد القليل ، وبقى عامة المسلمين مؤيّدين أو حائرين أو غافلين !

هل كنا خلال هذه المسيرة الطويلة ندعو حقّاً إلى صدق الإيمان وصفاء التوحيد ، إلى الله ورسوله ، إلى حقائق الإسلام ، إلى الكتاب والسنّة ؟!

ليت الدعاة يعودون إلى أنفسهم لينظروا فيما كانوا يدعون الناس إليه ، وعلى ماذا كانوا يتعهّدونهم ، وما هي النتائج التي وصلوا إليها ؟!!

فلنكن صادقين صريحين مع أنفسنا وأُمتنا ، فإن الله يعلم ما تخفي الصدور جميعها !

انتظر المسلمون وانتظر الناس جميعاً كي يروا حضارة الإيمان وعظمة الإسلام تتمثل في الواقع البشري . وانتظروا طويلاً ، وكلٌّ يقول أنا سأبني وأنهض وأقدّم للبشرية حضارة الإسلام وعظمته ، ثم لم يجدوا إلا التلاوم ، وكلٌّ يحاول أن يبرّئ ذمته ويتهم الآخرين ، أو يتهم الأعداء الذين منعوه من أن يعمل ! انتظروا ونظروا فما وجدوا إلا الحضارة الماديّة العلمانيّة بشعاراتها المختلفة : الاشتراكية، والشيوعية ، والديمقراطية ، والعلمانية ، والحداثة ، فهُرِع هذا إلى الاشتراكية ، وذلك إلى الشيوعية ، والآخر إلى الديمقراطية ، وغاصَ الكثيرون في العلمانية والحداثة !

غاصوا وأرادوا ، كي يبرِّئوا ذمتهم ، أن يعلنوا الاشتراكية الإسلامية ، والديمقراطية الإسلامية ، والعلمانيّة الإسلامية ، والحداثة الإسلامية . حاولوا أن يُلصقوا كلمة الإسلام في هذه المبادئ ليتستّروا وراءها ، ولكنها أبتْ عليهم ، و ظلّت على أصلها ترفض الانتماء إلى غيرها . وكأن هذه المبادئ تقول : إذا أنتم

فشلتم أن تصلوا إلى حضارة الإيمان والتوحيد ، وإلى الانتماء العمليّ إليها ، فلا تختفوا وراءَنا لتُخفوا عجزكم ! إذا فقدتم أنتم أصالتكم ، فنحن سنظل على أصلنا علمانيين ، حداثيين ، اشتراكيين ، ديمقراطيين شيوعيين !

إن هزيمتنا في نفوسنا كبيرةٌ جداً ! كلُّ يوم يطلع علينا بمثل جديد من نماذج الهزيمة النفسية والتراجع ، وتبدّل الشعارات !

و بعد احتلال العراق بأيام خرجت نداءات صاخبة من الشيعة تندّد بأمريكا وتطالب بحكم الإسلام . وما هي إلا أيام حتى خرج زعيم منهم يقول : نوافق على فصل الدين عن الدولة ! إذا فُصل الدين عن الدولة فماذا يبقى في الدولة من الإسلام ؟! شعار طُرِح قبل أكثر من قرن ليضربوا به الإسلام ، زخرفوه وزيّنوه بكل زينة العلمانية حتى أصبح رجال ينادونَ به في ديار الإسلام .

من يدعو إلى ذلك لا يفقه الدين ولا يفقه الدولة ، وإنما يردّد ما زيّنه له شياطين الإنس والجن .

وعندما خطب أحد الأئمة في مسجد أبي حنيفة في العراق، هزّ شعور الناس ضد أمريكا ، ودفع مئات الألوف لتخرج مندّدة بأمريكا . وما هي إلا أيام حتى عاد وصرّح مرّة أخرى أنه لا بد من خروج أمريكا من العراق ، ولكن ليس الآن ، فلتبق الآن ... ! ثم جاء تصريح آخر منه يقول فيه : " **الكل متفقون على بناء العراق ، وأن الأمريكان محتلون ، وأننا فقدنا إرادتنا وقرارنا .... ولا أظن أنهم ينزلون إلى درك المستعمر** " ! .

وداعية يقول : " يجب أن نتعامل من خلال إسلام مُنفتح ، وفيّ لمصادره الأولى ، ويندمج مع النسيج الثقافي والديني الغربي " . وآخر يقول : " لا فرق بين العلمانية ومقصود الشريعة الإسلامية وأن نندمج مع النسيج الغربي الأوروبي " ، وآخر يقول : " المواطنون من مسلمين وغير مسلمين (نصارى ويهود وكافرين) لهم نفس الحقوق كالمسلم سواء بسواء . ولهم نشر مبادئهم والدعوة إليها ،

والمشاركة في الحكم ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا . كيف يكون ذلك ؟! علينا الأركان الخمسة وليست عليهم ، وقس على ذلك " .

وداعية آخر يقول : " إنه يؤمن بالعلمانية التي نادى بها مصطفى كمال أتاتورك ويؤيدها " ، ويقف على قبره ويضع إكليل زهور . فأغضب الله ولم ينلْ رضا العَلمانيين .

هُرِع دعاة كثيرون يسبِّحون بحمد الديمقراطية وآخرون يسبِّحون بحمد العلمانية وآخرون سبَّحوا قبلُ بحمد الاشتراكية. لا تستطيع الجماعات أو الحركات الإسلامية أن تدير حواراً بينها ، ولكنها تدعو إلى الحوار مع النصارى واليهود والعلمانيين . بعض الحركات الإسلامية تقف في صف واحد مع من يحارب الإسلام ، وتدير ظهرها للحركات الإسلامية .

لقد حاول بعض المسلمين الوصول إلى الحكم بوسائل مختلفة ، سواء أعلنوا عن ذلك أم لم يعلنوه . ولقد كان من بين هذه الوسائل الوصول إلى الحكم عن طريق الديمقراطية . فكانت التجارب فشلاً ذريعاً وكشفاً جليّاً عن أنّ الديمقراطية تعني في مفهوم أتباعها عدم السماح للإسلام أن يحكم مهما تكن الوسائل لتحقيق هذا المنع ، ولو بتجاوز كل مبادئ الديمقراطية المعلنة . وكانت التجارب تكشف بشكل صريح أن الديمقراطية زخرف كاذب لو بحثت في الأرض كلها عن شعاراتها المعلنة فلن تجدها إلا في إطار الحريّة الفردية في الجنس والشهوات ، وفي ضجيج الآراء الموجَّهة من قوى كثيرة ، وفي تخدير الشعوب لتظلَّ لاهية أو لتُستَغلَّ من القوى الفاعلة القادرة على استغلالها .

ولقد حاول آخرون من المسلمين أسلوب التحالف مع قوى غير مؤمنة بالإسلام ، قوى تظهر العداء أو الودَّ حسب مقتضيات المصالح المادية . توهَّم هؤلاء أنهم قادرون على استغلال هذه القوى المسيطرة ، فكانت النتيجة أن هذه القوى هي التي استغلَّت المسلمين ومزَّقت قواهم ، وبلبلت أفكارهم ، ونشرت

الفتنة بينهم ، وجرَّدتهم من أهمِّ مصادر قوتهم وعزلتهم عنها . هذه القوى تملك الوسائل للتأثير والتوجيه ، تملك القوة المالية والعسكرية ، وتملك الأجهزة كذلك ، وهي جادة بالنسبة لمبادئها مستعدّة للبذل الواسع من أجل هذه المبادئ التي تقوم على المصالح المادية وعلاقاتها فحسب . وتقف الحركات الإسلامية مقابل ذلك ممزقة ، ضعيفة إلا من ضجيج الحشود !

إنَّ بعض المسلمين اليوم جهر بالإعلان الصريح عن تبنِّي المبادئ غير الإسلامية ، المبادئ التي كانوا يحاربونها قبل مدة ، والتي لا يقبلها الإسلام أبداً ، ولا يلتقي معها . وأخذ هؤلاء يبحثون بين الآيات والأحاديث عمَّا يمكن أن يؤيِّد فتنتهم ، فلم يجدوا إلا أن يلْوُوا الآيات والأحاديث ويخرجوا بتأويل فاسد ، أو بشعارات مزخرفة مضللة ولكنها مغرية : الإنسانية ، الرحمة ، المساواة ، العدالة ، الحريّة ، وغير ذلك من التعبيرات العائمة غير محددة المضمون . وغاب عنهم أن هذه كلها من الإسلام ، إلا أن لها معاني محدّدة في الإسلام ، تختلف عن معانيها، إن وجدت ، في تلك المبادئ ، وأن لها تطبيقاً غير تطبيقها ، وأنها في الإسلام أصدق وأوفى ، وأنها خارج الإسلام زخارف !

لقد بيَّن الله سبحانه وتعالى الحقَّ جليَّاً حتى لا يبقى عذر لأحد في أن يضلَّ عن الحقِّ أو يتيه . ولنتدبَّر هذه الآية الكريمة التي تشقّ للمؤمنين درب الدعوة التي يريدها الله ورسوله :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾

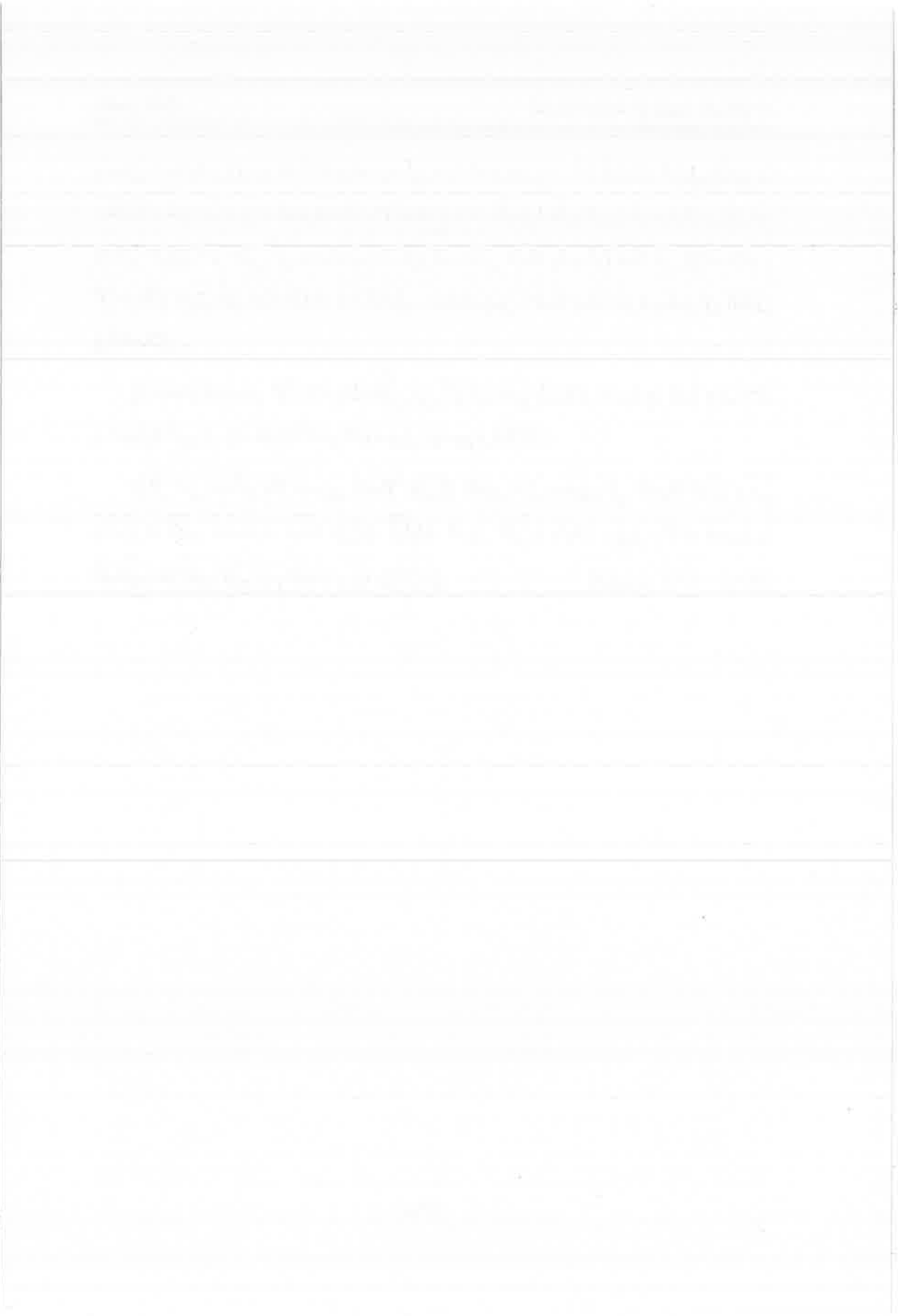
[هود: ١١٢، ١١٣]

ليس أمام المسلمين اليوم وغداً ومع الدهر كله إلا **أن يثبتوا على الدين الحق، دون تحريف ولا انحراف ، ويمضوا على نهج وتخطيط نابعين من الإيمان الصادق ومن منهاج الله ، مرتبطين به ، ملبِّين لحاجة الواقع ،**

ونحن مستبشرون بوعد الله ونصره لمن صدقه ونصره . أما أولئك الذي يدعون بتلك الدعوات ، ويندفعون ذلك الاندفاع ، فليكونوا عَلمانيين أو ماركسيين أو ديمقراطيين ، أو على أيّ مذهب يشاؤون ، على أن لا يقولوا هذا من **الإسلام** . **الإسلام دين من عند الله، متكامل ، متميّز ، فلا يخلطوه بألوان الفتن والضلال .**

إن محاولة نصر الإسلام بالتخفِّي في أثواب غير إسلامية ، باب فتنة وضلال وخسارة كبيرة . إن هذا الانحراف سبيل تهديم وهلاك :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]








الباب السادس

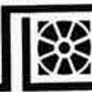
الإصلاح وسبيله بين نهجين!

١- مسيرة الإصلاح والبناء من خلال سيرة النبوَّة الخاتمة.

٢ - العلاج والإصلاح وسبيله بين نهجين.









(١)

مسيرة الإصلاح والبنـاء
من خـلال سـيرة النبـوّة الخاتمـة

بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب ليبلّغ الناس رسالة الله ، وليخرجهم من الظلمات إلى النور . وبتعبير آخر بعث الله محمداً ﷺ ليغيّر واقع الإنسان في الجزيرة العربية وفي الأرض كلِّها ، وحملت الأمة المسلمة الواحدة هذه الأمانة العظيمة بعد النبوّة الخاتمة.

بعث الله محمداً ﷺ ليبلّغ رسالة الله إلى الناس من ناحية ، وليبيّنها لهم من ناحية أخرى ، ليبيّنها لهم شرحاً وتوضيحاً ثمَّ ممارسةً في واقع الحياة . فكان من فضل الله ورحمته على عباده فضلاً ممتدّاً مع الزمن أن بعث هذه النبوّة الخاتمة لتبلّغ وتبيِّن في الوقت نفسه . فكانت سيرة الرسول ﷺ النموذج الأعلى للتبيين ، نموذجاً ماضياً مع الدهر تتعلّم البشريّة كلُّها منه .

وهذه المسيرة للنبوة الخاتمة هي النموذج الأعلى لمسيرة تغيير واقع الإنسان وإصلاحه : فالتبليغ يجب أن يكون كاملاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة: ٦٧]

والتبيين يكون جليّاً كاملاً كذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]

وقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]

جاء منهاج الله مفصّلاً ومبيّناً لكل شيء يرسم النهج الحقّ لتغيير واقع الإنسان على الأرض . وبعث الله محمداً ﷺ ليبلّغ هذا النهج ويبيّنه بممارسة وتطبيق في الواقع تحت رعاية الله وعنايته . فكانت بذلك النموذج الأمثل ، وكان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة إلى يوم الدين .

فإذا كنا نلتمس منهج التغيير فإننا نجده نظرية كاملة في المنهاج الربّاني ، ونجده كذلك في ميدان التطبيق والممارسة في الواقع في سيرة الرسول ﷺ .

وعند محاولة تلمس المنهج في سيرة الرسول ﷺ يقع بعض الناس في أخطاء في التصور لبعض القضايا .

وأوّل قضيّة تحتاج إلى إيضاح هي قضيّة العهد المكي والعهد المدني . فهذا المصطلح جاء أصلاً بالنسبة لتقدير بعض الفقهاء لزمن نزول بعض الآيات الكريمة . ثم انتقل إلى بعض الأذهان خطأً أنه مصطلح لتقسيم السيرة والنهج . ولكن لا علاقة لسيرة النبوّة الخاتمة بهذا التقسيم ، ولا للمنهج . فالمنهج ربّاني ، وهذا المصطلح بشريّ مرتبط بزمن نزول الآيات فحسب .

المنهاج الربّاني يمثّل الحقّ المطلق الذي يصلح لكل زمان ، أو الذي يجب ممارسته في كلّ واقع وفي كلّ عصر ومكان . ونستعين لممارسته بسيرة النبوّة الخاتمة التي تمثّل النموذج الأعلى للممارسة على مدى الدهر .

وحين نحاول أن نطبّق هذا المنهاج الربّاني على واقعنا اليوم مستعينين بالسيرة النبوية ، نجد بيسر أن هنالك قواعد ثابتة في المنهاج الربّاني ، وثابتة في السيرة النبوية كذلك .

فالقاعدة الأولى هي الدعوة الواضحة إلى الإيمان والتوحيد ، دعوة الإنسان إلى أن يكون عبداً صادقاً لله ، أن يعرف ربّه ويؤمن به ويخضع لشرعه في خشوع وعبودية وإنابة .

فالقاعدة الأولى التي لا غناء عنها هي إتقان مرحلة الدعوة والبلاغ ، بحيث نوفي بالعهد والأمانة ونصدق النيّة والبذل ، والنهج والتخطيط .

وسيجد الدُّعاة العنت وهم يدعون إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، كما وجد رسول الله ﷺ وكما وجد سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام . ولا بدّ من الصبر واستمرار البذل والجهد على نهج واضح وخطة مفصّلة .

والقاعدة الثانية هي التعهد والتربية ، والبناء والتدريب ، والإعداد ، وذلك لمعالجة الخلل والأمراض التي أشرنا إليها ، وللوفاء بعمليّة البناء والتربية من جميع نواحيها . وهذه تحتاج أيضاً إلى نهج وتخطيط وبمقدار ما يصدق النهج والتخطيط ، والبذل والجهد ، تصدق النتائج بإذن الله أو يثبت الأجر عند الله ، فالأمر كله لله .

والقاعدة الثالثة أننا مكلفون بالدعوة والتربية فرضاً علينا من الله سبحانه وتعالى ، والله يهدي من يشاء على حكمة بالغة لله ، وقضاء حق :

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر: ٢٠]

ولقد مضى رسول الله ﷺ يدعو ويبلّغ ، ويتعهّد ويربّي ويُعدّ ، مستفيداً من إمكانات المجتمع الإيجابية .

وكانت ثمرة هذه المراحل أن تكوَّن " **الجيل المؤمن** " الذي حمل الخصائص الإيمانية ، والذي تمَّ إعداده لحمل الرسالة الربّانيّة . فمضى هذا " الجيل المؤمن " يقوده النبي محمد ﷺ في تحمّل أعباء الدعوة الإسلامية ، حيث تجتمع فيها ثلاثة أهداف تعمل معاً : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، التربية والبناء، والإعداد والتدريب ، بناء الجيل المؤمن .

وأخذ الجيل المؤمن يمتدّ ويتّسع دعوةً وإعداداً وعدداً ، ولم تعد محصورة في أرض مكة ، ولكن أخذت تبحث عن منافذ أخرى لتبليغ رسالة الله . فتح الله على المسلمين سبيل الدعوة في المدينة المنورة ، وكذلك في الحبشة ، وفي كلّ أرض

يبلغها " الجيل المؤمن " في تجارته ورحلاته وتنقلاته . فانتشرت الدعوة بين القبائل العربيّة في الجزيرة ، نمت نموّاً عظيماً في المدينة المنورة بفضل من الله وما منّ به على الجيل المؤمن ، من صدق نيّة وصدق عزم وبذل ، حتى أصبحت المدينة قاعدة رئيسة من قواعد الدعوة الإسلامية . فكانت الهجرة إليها واستقرار الرسول ﷺ فيها مع المهاجرين والأنصار . والدعوة ماضية على نهجها وخطتها دعوةً وبلاغاً ، وتربيةً وإعداداً ، وبناءً مستمرّاً للجيل المؤمن الذي تمثّل في أمة مسلمة واحدة تحمل الدعوة الإسلامية ، ويقودها الرسول ﷺ في رعاية من الله سبحانه وتعالى ، ليكون الرسول ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين مدى الدهر ، ولتكون المسيرةُ النبوية النموذجَ الأمثلَ لممارسة الآيات البيّنات التي كان يتنزّل بها الوحي الكريم ، ولتكون كلمة الله هي العليا في هذه الأمة العظيمة .

وكانت هذه المراحل كلها جهاداً في سبيل الله في جميع أوجه النشاط التي يمضي بها المسلمون . وفي اللحظة المناسبة امتدّ الجهاد إلى صورة جديدة هي القتال العسكري جهاداً في سبيل الله يمضي به الجيل المؤمن الذي تمّ إعداده ليتحمّل مسؤولية الدعوة الإسلامية مع قيادة النبي محمد ﷺ . أو تمضي به الأمة المسلمة الواحدة التي يحكمها منهاج الله ، والتي تكون فيها كلمة الله هي العليا .

ومضت هذه المراحل الأربع تعمل معاً : الدعوة إلى الله ورسوله ، والتربية والبناء والإعداد ، وبناء الجيل المؤمن ، والجهاد في سبيل الله ، لتمثّل الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، والدولة الإسلامية الراسخة ، الأمة المسلمة الواحدة تنشر الدعوة الإسلامية في الأرض وتقيم حضارة الإيمان والتوحيد .

عندما نتدبر هذه المسيرة بخطوطها العامة التي عرضناها ندرك فوراً أنها كانت تسير وفق نهج محدّد وخطة مدروسة . ونلاحظ من هذه المسيرة النبوية أنها هي نفس المسيرة التي عرضناها من خلال الآيات الكريمة ، من خلال منهاج الله. إنها مسيرة النبوة الخاتمة وهي تبيّن للناس منهاج الله في ميدان الممارسة والتطبيق، وفي رعاية الله ، لتظل النبوّة الخاتمة هي الأسوة الحسنة ، ولتظل السيرة النبويّة هي

النموذج الأعلى للبشريّة بعامّة ، ولكل من أراد الإصلاح والتغيير والخروج من الظلمات إلى النور .

ونخلص من ذلك إلى أنَّ هناك سمة بارزة في مسيرة النبوّة الخاتمة ، هي **النهج الجليّ والتخطيط الدقيق** . إنها لم تكن تضمُّ أعمالاً ارتجاليّة ولا ردود فعل آنيّة . إنها مراحل متصلة متماسكة ، مراحل منهجيّة يجمعها نهج واحد .

ولو أخذنا بعض الأجزاء من هذا النهج العظيم ، لرأينا أنّ كلّ خطوة كانت تتم وفق خطة ونهج لا ارتجال معها أبداً . ولنأخذ مثلاً على ذلك الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة . فإن هذه الهجرة تمثل أدق أنواع النهج والتخطيط ، واستكمال المراحل والخطوات ، وحساب كل عمل وتقديره . وكان يتم ذلك كله على أساس منهاج الله ودراسة الواقع من خلال منهاج الله ، في عمل يستنفد الطاقة البشريّة وإمكاناتها حتى لا يظل أيّ احتمال للتقصير أو الإهمال ، مع توكّل كامل على الله سبحانه وتعالى . لقد صدق الجهد البشريّ واستنفد كلَّ إمكاناته بصورة منهجيّة ، ثم صحَّ التوكل على الله . فإذا عجز الجهد البشريّ بعد استنفاد إمكاناته عن عمل شيء ، جاءت رحمة الله تعين وتنقذ . فلما خرج الرسول ﷺ من بيته وذرّ في وجوه القوم التراب ، وهم يحاصرونه أشدَّ الحصار ، وهو يتلو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [يس: ٩] ، فأخذ الله أبصارهم فما رأوه .

ومضت الهجرة خطوة بعد خطوة ، وكل خطوة كانت مدروسة ومرتبطة بما قبلها وما بعدها . وكذلك كانت آية الله وحمايته لرسوله ﷺ ولصاحبه أبي بكر الصديق وهما في الغار إذ جاء القوم يبحثون عنهما فجعل الله على باب الغار نسيج العنكبوت ليوحي أنه لم يدخله أحد . وكذلك وهما في طريقهما إلى المدينة يطاردهما سراقة ، حتى إذا اقترب منهما وكاد أن يمسك بهما غاصت يدا فرسه في الأرض . فرأى سراقة من آيات الله ما جعله يؤمن بالله ورسوله .

وهكذا لو تتبعنا سيرة الرسول ﷺ لوجدناها النموذج الأمثل للتخطيط والنهج سواء أكان ذلك في جزئية من الخطة أو في النظرة العامة .

والاقتداء بهذه السيرة النبوية هو من حيث الأساس بالنهج والقواعد التي أقرها الرسول ﷺ . فلا يصح أن نأخذ جزئيّة متماسكة مع ما قبلها وما بعدها ، ثم نفصلها نحن لنقتدي بها بعد فصلها دون مراعاة هذا التماسك من ناحية والواقع وظروفه من ناحية أخرى .

فلا يصح أن ندعو إلى الهجرة مثلاً ، الهجرة وحدها ، دون أن ندعو كذلك إلى ما قبلها ، إلى الدعوة إلى الله ورسوله ، والتربية والبناء والإعداد والتدريب ، وإلى بناء الجيل المؤمن ، ودون مراعاة الواقع وظروفه . فالهجرة كانت من مكة حيث العداء والمكر ومحاولة القتل ، إلى المدينة المنورة البلد الآمن الذي فتح أرضه وبيوته وقلوب الأنصار للرسول ﷺ . إنها لم تكن هجرة إلى أيّ مكان دون تقدير الظروف والأحوال والواقع .

إذن نتعلم هذا الدرس العظيم الذي نحن بحاجة إليه اليوم ، درس النهج والتخطيط الذي يقوم على ركنين أساسين هما : **المنهاج الرباني والواقع الذي يفهم من خلال منهاج الله** .

إنَّ سيرة الرسول ﷺ غيَّرت واقع الإنسان في الجزيرة العربية ، وغيَّرت واقع الجزيرة كلها ، وغيّرت واقع البلاد التي حملت الرسالة الربّانيّة إليها .

وستظلّ هذه المسيرة هي النموذج الأمثل والأسوة الحسنة لممارسة منهاج الله في الواقع البشري ، حتى يظلّ المؤمنون قادرين في كل عصر على تحقيق التغيير الذي أمرهم الله به ، وعلى المضيّ قدماً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله .

ومن أجل هذا التغيير يظلّ دائماً هنالك ثلاثة أسئلة مترابطة لا يستغني سؤال عن آخر :

من الذي يقوم بالتغيير والإصلاح ؟!

ما هو المنطلق للتغيير والإصلاح ؟!

ما هو النهج المتكامل لذلك ؟!

إن منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ يجيب على هذه الأسئلة الثلاثة بالتفصيل ، وكذلك سيرة الرسول ﷺ تجيب على هذه الأسئلة بالتفصيل من واقع الميدان الذي مضت فيه السيرة النبويّة .

ونحاول أن نجيب على هذه الأسئلة بإيجاز من خلال منهاج الله ومن خلال السيرة النبوية :

من يقوم بالإصلاح والتغيير في واقع الإنسان ؟!

يقوم به المؤمن الذي استطاع أن يغيّر ما في نفسه أولاً حتى استقام على أمر الله ، وتزوّد بالزاد الحق الذي أوله الكتاب والسنّة ، ووهبه الله الوسع للبدء والانطلاق ، وكان عهده الأول مع الله ، وولاؤه الأول لله ، وحبه الأكبر لله ولرسوله ، فعرف النهج ووضع الخطة وأعدّ العُدّة كما أمره الله ، ومضى على صراط مستقيم ودرب يبلّغه الهدف بإذن الله .

ما هي نقطة الانطلاق أو ما هو المنطلق ؟!

إنه الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، من خلال الكتاب والسنّة وفهم الواقع من خلال منهاج الله ، ومعرفة الخلل والانحراف في الواقع المحدد ، وتحديد الأسلوب والنهج والخطة لتحقيق نجاح الدعوة والبلاغ .

ما هو النهج المتكامل ؟!

إنه النهج الذي يمضي على الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا وفصّله في المنهاج الربّاني ، صراطاً مستقيماً تمضي عليه المراحل كلّها متماسكة ، ممتدّة إلى الهدف الأكبر والأسمى ـ الجنَّة ـ .

ولو رجعنا إلى سيرة الأنبياء والمرسلين جميعهم الذين بعثهم الله لتغيير واقع الإنسان على الأرض ، لوجدنا أن المنطلق واحد ، وأن الذين يقومون بالإصلاح والتغيير هم الجيل المؤمن ، وأن المنهج هو الصراط المستقيم بمراحله المختلفة التي عرضناها .

وأثناء المسيرة سيجد المؤمنون العقبات والصخور والأشواك . ولا خطر من ذلك لأنه يفترض أنهم أُعدُّوا من خلال مرحلة التربية والبناء ، والتدريب والإعداد ، على مجابهة العقبات ووسائل التغلُّب عليها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنَّ هذا ابتلاء وتمحيص من الله ، ليميز الخبيث من الطيِّب .

إنَّ هذا الابتلاء سنّة من سنن الله في الحياة لا مفرّ منه ، حتى يتكشف من يثبت ويمضي على صراط مستقيم ، ومن يضعف فيسقط وينحرف أو يتوقّف ويقعد . فمهمة مدرسة الإسلام ، وهي تعدُّ الجيل المؤمن ، أن تعدَّه أقوى الإعداد لمجابهة هذه الصعاب ، وليعيها :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وحين يمضي المؤمنون على الصراط المستقيم سيجدون أنَّ لله سنناً ثابتة في الحياة ، وأنهم يفلحون بمعالجة الصعاب على قدر ما يدركون هذه السنن ويعونها .

وفي منهاج الله يجد المؤمنون كثيراً من هذه السنن مجلوّة أمام بصيرة المؤمن الذي تزوّد الزاد الحقَّ من منهاج الله . فصفاء الإيمان وصدق الزاد من منهاج الله ووعي الواقع وسنن الله فيه ، يوفّر عدّة رئيسة لمجابهة الصعاب . وهذه العدّة تهب المؤمن السلاح القوي ألا وهو الصبر . فالدعوة على صراط مستقيم والصبر ، ثمّ الدعوة والصبر ، ويمتدّ الصبر مع المؤمن ومع مسيرته .

(٢)

العلاج والإصلاح وسبيله بين نهجين

أصبحت قضية الإصلاح في منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي قضية الساعة وقضية كل ساعة وكل يوم ، حتى كأن باقي أنحاء العالم لا تحتاج إلى إصلاح ، وكأن العالم الغربيّ وعلى رأسه أمريكا هو النموذج الكامل للحياة البشرية الذي يجب الاقتداء به !!

والأمر الملفت للنظر أن دعوة الإصلاح هذه انطلقت اليوم من هناك ، من واشنطن ، تحملها الدبابات والصواريخ والطائرات والجنود وسلاح التدمير الشامل ، " بجرأة " وتصميم يسحق حقوق الإنسان وكرامة الشعوب . ويبدو أن هذه " الدعوة الإصلاحية " تمضي على خُطّة مدروسة وأهداف محدّدة ، ووسائل ساحقة وأطماع متفجرة .

تنطلق دعوة الإصلاح من أمريكا وهي تحمل شعارين رئيسين كما يدّعون : **الديمقراطية وحرّية المرأة** . ولكننا لم نر الديمقراطية إلا بين الأشلاء الممزّقة ، والجماجم المتطايرة ، والدماء المتدفّقة ، واغتصاب النساء ، وتعذيب الإنسان تعذيباً جنونيّاً . ولم نرَ حرية المرأة إلا في خلع حجابها ، وكشف زينتها ، وعرض مفاتنها ، على النمط الغربي العلماني ، وما يتبع ذلك من حرّيّة جنسيّة أورثت الأمراض والفساد والفتن في الأرض كلها . ولكن مازال في النساء من يتمتّعن بالحرية الكريمة التي منحها لهنّ الإسلام ، في ميادين متعددة من الحياة .

أولاً لابدّ أن نُقرَّ أن واقع العالم الإسلامي يحتاج إلى إصلاح . ففيه من مظاهر الخلل والعلل الشيء الكثير . ولا أدلّ على ذلك من الهوان الذي يعيشه ، والهزائم التي يعاني منها ، والتمزُّق الذي أفقده قوتّه ، وسائر المشكلات التي تتوالد وتتزيد .

وليس العالم الإسلامي وحده يحتاج إلى إصلاح ، فالعالم الغربي كله ، وأمريكا بصورة خاصة ، أحوج ما يكونون إلى الإصلاح . ولكن الإصلاح المطلوب هنا في العالم الإسلامي شيء ، والإصلاح الذي يحتاجه العالم الغربيّ شيء آخر .

العالم الغربي وعلى رأسه أمريكا أسكرته قوّته الماديّة والصناعية والعلمية وجبروت سلاحه المدمِّر ، فأخذه الغرور والكبر ، واستخفّ بالشعوب كلها ، وملأ الأرض حروباً وقتلاً وتشريداً ، وفتناً وفَسَاداً ، وعدواناً صارخاً على كرامة الإنسان وعلى حرمة الإسلام بأساليب ما يزال يتفنن بها ويجدّدها .

ومع شدّة الأمراض والخلل في حياتهم ، فإنهم يتولّون اليوم الدعوة إلى الإصلاح في مناطق متعددة من العالم ، ومنها العالم الإسلامي ، ويحرّكَون أتباعهم هنا وهناك لينادوا بصوتها ويدعوا بدعوتها في مظاهرات صاخبة ومساومات خفيّة أو علنيّة في إطارين أساسين : **الديمقراطية وحرّية المرأة** . ويدخل في قلب هذه الشعارات قضايا رئيسة هي أساس دعوتهم إلى الإصلاح . ويمكن إيجاز هذه القضايا الرئيسة بنقاط : تغيير واقع المنطقة هذه أو تلك إلى ما يلائم المصالح الأمريكية ، والصلح الكامل الناجز مع إسرائيل ، وإطلاق حرّية المرأة في جميع ميادين الحياة على النحو الذي نراه من تفلّت واسع في الغرب . ومن خلال ذلك يرجون تأمين مصالحهم الاقتصادية الماديّة ، سواء أكان ذلك في نهب خيرات البلاد أم في جعل تلك البلاد أسواقاً مفتوحة لبضائعها ، فتتخلّف تلك البلاد عن أيِّ تطورّ علمي أو صناعي أو إعداد القوة والسلاح . وتمتدُّ من خلال ذلك مبادئ الغرب وعلمانيّته ومذاهبه الفكرية والأدبية ، وعاداته الاجتماعية ، وملابسه ، وتفلّته الجنسيّ تحت شعار " الحرّية الفرديّة " ، وحرية المرأة ! ، وتنهار مقاومة المسلمين شيئاً فشيئاً .

لا بدّ من وقفة هنا لندرك أساس الانطلاق الغربي العلماني . إنهم لا ينزلون للتصور الإيماني ـ الدار الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ـ أي منزلة عمليّةٍ

في المناهج التربوية الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها . إنهم علمانيون ماديون يستفيدون من الدين كله بقدر ما تحتاجه مصالحهم الماديّة ، فيستغلون حركات التنصير مع الشركات التجارية ومع النشاط الدبلوماسي وأيّ نشاط آخر يخدم أطماعهم .

إنهم يعبدون عملياً إلهاً واحداً هو مصالحهم المادية وأطماعهم المتزايدة . ولقد اكتسبوا خلال خمسة عشر قرناً من الصراع مع الإسلام في مناطق متعددة من العالم خبرةً زودتهم بما يعتبرونه ثوابت في مناهجهم . وأهم هذه الثوابت أنهم يمكنهم التفاهم والمساومة والمفاوضات مع كل عقائد العالم حتى الاشتراكية والشيوعية إلا الإسلام كما أُنزل على محمد ﷺ ، الإسلام الدين الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الدين الحق الذي تعهّد الله بحفظه مهما أحاطت به المخاطر والمؤامرات ومحاولات التحريف والتبديل .

لقد عرفوا أن هذا الدين الحق لا يقبل المساومة على الحق ولا التنازل عنه ، ولا الانحراف ولا الشرك ، وأن القاعدة الثابتة لديه ليست مجرّد المصالح المادية الدنيوية ، ولكنها صدق الإيمان بالله رب العالمين والتوحيد الصافي له ، وأنّ الهدف الأكبر والأسمى في هذه الحياة الدنيا هي **الدار الآخرة والجنّة ورضاء الله** ، وأن المصالح المادّية قوّة تعين على تحقيق الأهداف الربّانية والهدف الأكبر والأسمى في مسيرةٍ محدَّدة على الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا وفصّله .

ولكنّ العلمانيين في الغرب ، وعلى رأسهم أمريكا ، لم تدخل قلوبهم هذه الحقائق الإيمانيّة وظلّوا على علمانيّتهم . ومن أجل ذلك أصبح همهم الأول كيف يزيحون الإسلام ـ ليس أيّ إسلام ـ الإسلام كما أنزل على محمد ﷺ دون تحريف ولا تبديل عن طريق أطماعهم ومصالحهم . فوجدوا من أجل ذلك وسائل متعددة نذكر بعضها . يقول نيكسون في كتابه " **نصر بلا حرب** " : " إن الثوريين الشيوعيين والإسلاميين أعداء أيديولوجيين يتبنّون هدفاً مشتركاً في الرغبة في الحصول على السلطة بأي وسيلة ضرورية بغية فرض سيطرة ديكتاتورية تقوم على

مثلهم التي لا تحتمل .. " إلى أن يقول : " **إنّ رياح التغيير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة ، ونحن لن نستطيع إيقافها ، ولكننا نستطيع تغيير اتجاهها** "[1] وهكذا يكشف نيكسون عن جهله بالإسلام حتى قرنه مع الشيوعية ، ويكشف الحقدَ على الإسلام في النفوس ، وعزيمة المكر والكيد له ، والأسلوب الذي سيتبعونه لدفع المسلمين إلى الانحراف وتكوين دعاة لهذا الانحراف من بينهم ومن أنفسهم .

نعم ! هذه هي الوسيلة الأولى : " **ولكننا نستطيع تغيير اتجاهها !** " ومنها تنطلق سائر الوسائل . فهم يقولون : " نستطيع " ، وذلك بعدة وسائل يمكن لهم أن يوفّروا الاستطاعة . ولكن أهم أسباب توفير الاستطاعة لهم توافر النفوس الضعيفة سهلة التنازل ، تُشْتَرى وتباع بالثمن الزهيد . ومن أسبابها خداع المفاهيم . فحينما يدعون إلى السلم ، لا يقصدون السلم الذي نتمناه أو السلم الذي يدعو إليه القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]

فالسلم هنا هو الإسلام الذي يهب السلم الحق . وبقوله سبحانه وتعالى :

﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥]

وآيات أخرى كثيرة تبيّن لنا حقيقة السلام الصادق . ولكن الغرب بعلمانيّته يرى أن السلم والسلام شيء آخر ، يعرّفه نيكسون كذلك في كتابه " نصر بلا حرب " بقوله :

"**ليس السلم الحقيقي إنهاء المنازعات بل وسيلة للعيش معها** "[2]

فالسلم لدى هؤلاء هو شعار مخدِّر يعين على استغلال المهزومين والضعفاء ، ويعين على تغيير الاتجاه ، وعلى بقاء المشكلات والصراع والتعايش معها دون حلها !

---

(١) نيكسون : " نصر بلا حرب " (ص : ٣٠٨) .

(٢) المرجع السابق (ص : ٣٩) .

وأُسلوب ثالث ابتدعوه كما ابتدعه الشيطان لهم ، وهو تغيير الإسلام عما جاء به محمد ﷺ ، وتحريفه وتأويله ، وتكوين دعاة جدد تحت راية الإسلام ، يدعون إلى هذا الانحراف والتحريف والتأويل باسم الإسلام . ويُسَهِّل على هؤلاء عملهم وجودُ الملايين من المسلمين لا يعرفون العربية ولا يفقهون القرآن ولا السنَّة ، ولا يعرفون من الإسلام إلا العاطفة التي يسهل توجيهها إلى الانحراف .

ويقول نيكسون في كتابه " الفرصة السانحة . " Seize The Moment " ويمكن تصنيف الحركات السياسية في العالم الإسلامي في ثلاث مجموعات : الأصوليون الذين يرفضهم نيكسون ، والرجعيون الدكتاتوريون ، والتقدّميون الذين يريدون ربط المسلمين بالعالم المتحضر . ويقول : " يجب علينا أن نتعاون مع التقدميين ففي ذلك مصلحتهم ومصلحتنا [١] . ويقول : إنّ مفتاح السياسة الأمريكية يكمن في التعاون التدريجي مع المسلمين التقدّميين فقط . ولما كنا نشارك التقدميين أهدافنا فيجب أن يُغطي تعاوننا جميع المجالات الاقتصادية والأمنيّة ... " [٢] .

هذه مقتطفات فقط من نصوص كثيرة تكشف حقيقة موقف السياسة الأمريكية من الإسلام والمسلمين ، والسلم والسلام ، ومن إسرائيل . ومن أقواله : " **إن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل ...[٣] إن التزاماتنا مع إسرائيل عميقة جداً . فنحن لسنا حلفاء ولكننا مرتبطون ببعضنا أكثر مما يعنيه الورق ...** " .

ومن التصريحات الهامة لبوش الأب ما أعلنه غداة حرب الخليج الثانية بقوله : " إن لنا في حرب الخليج ثلاثة أهداف منها : البترول ، وتغيير واقع المنطقة كلها إلى ما يلائم مصلحة أمريكا . " ! ومصلحة أمريكا وحدها كما يرونها هي القاعدة

(١) الفرصة السانحة " (ص : ١٣٩ ـ ١٤٢) .
(٢) المرجع السابق (ص : ١٣٩ ـ ١٤٢) .
(٣) المرجع السابق (ص : ١٥٢) .

الأولى في السياسة الأمريكية ، أعلنها وزراء الخارجية والسفراء والدبلوماسيون الأمريكان في كل مناسبة ، ونصّوا عليها في دراساتهم .

هناك نهجان مختلفان كل الاختلاف : نهج ربّاني محكم حق ، ونهج بشريٌّ ماديٌّ علمانيّ . ولكل ميزانه الخاص في تقدير الأمور وإجراء الحسابات . وكذلك فإن دعوة الإصلاح تأتي من هذا النهج أو من ذلك . واشنطن تدعو العالم الإسلامي ليقوم بالإصلاح كما تريده هي ، بالديمقراطية وحرّية المرأة والحرّية الفرديّة في نطاق الجنس والتظاهر والكلام ونشر الفساد وقبول الآخر (أي إسرائيل) ! . والله سبحانه وتعالى يدعو إلى الإصلاح . ودعوة الله سبحانه وتعالى إلى الإصلاح دعوة ممتدّة مع الزمن كله منذ أول الرسل إلى الناس ، نوح عليه السلام ، إلى جميع الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ ورسالته الجامعة الكاملة :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . . . ﴾ [المائدة: ٤٨]

هذا هو الإصلاح الذي يأمر به الله ، فمن شاء التزمه واتبعه ، ومن شاء فارق وابتعد ولحق بمواليه . ولكلٍّ نتيجةٌ وحسابٌ عند الله يوم القيامة . إنه ابتلاء من الله وتمحيص لعباده !

ويتحدَّد منهج الإصلاح كذلك في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه العرباض بن سارية ، والذي جاء فيه : " **... فإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي . عضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة** " [1] .

لقد تحدّد النهج . وتأتي آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تؤكد ذلك ، وتوضح السبيل وتبيّنه وتفصّله حتى لا يبقى عذر لأحد . ولا مجال لأن نعرض هذا النهج

(١) رواه أبو داود : ٣٤٠/٦/٤٦٠٧ ، الترمذي : ٤٢/١٦/٢٦٧٦ ، ابن ماجة : المقدمة رقم (٣٥) .

هنا فهو مفصّل في الكتاب والسنّة ، وذكَّرنا به في منهج مدرسة لقاء المؤمنين .
ولكن لا بدّ أن نؤكد على ثلاث خصائص من خصائصه :

أولاً : أنه نهج متكامل لا يصح إلا أخذه متكاملاً . فلا يؤخذ جزء ويترك جزء .

ثانياً : أنه حق مطلق لكل زمان ومكان وواقع ، يقدّم الحلول الأمينة لكل محاولة إصلاح .

ثالثاً : أنه لا بد من الطاقة البشريّة المؤمنة الملتزمة حق الالتزام عن إيمان وعلم ووعي ، يهديها الله بإيمانها فتضع الخطةَ والنهجَ مع كلّ واقع جديد ، نهجاً وخطة نابعة من قواعد الإيمان وضوابطه ، ومن منهاج الله ، ومن مدرسة النبوة الخاتمة ، ومن سنة محمد ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين .

إنّ أول قاعدة للإصلاح في العالم الإسلامي هو تطبيق القاعدة الرئيسة في حديث رسول الله ﷺ يرويه أنس رضي الله عنه وآخرون :

"طلب العلم فريضة على كل مسلم "(١)

إن الله سبحانه وتعالى الذي فرض الشعائر فرض كذلك طلب العلم على كل مسلم . والعلم هو كلُّ علم يحتاجه المسلمون ليكونوا أقوياء أعزاء ، على أن يكون العلم كله قائماً على العلم بالكتاب والسنّة واللغة العربيّة ، ليُرفَع الجهلُ عن ملايين المسلمين الذين يَستغلُّ أعداءُ الله جَهْلَهم ، فيجعلون منهم قوّةً تحارب الإسلام في داره وأهله . ومع هذا العلم الحق ومن خلاله يُنمَّى صدق الإيمان والتوحيد في النفوس في مناهج تربويّة صادقة وخطة مدروسة واعية .

والقاعدة الثانية للإصلاح هو بناء الجيل المؤمن الذي يتّصفُ بالخصائص الإيمانية المفصّلة بالكتاب والسنة ، الجيل المؤمن القادر على الوفاءَ بعهده مع الله ،

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته / ٣٩١٣ .

وبالتكاليف الربّانيّـة المفصّلة في منهـاج الله ، والقـادر على المضيّ بدعـوة الناس كافّـةً في الأرض إلى الإسلام كما أُنزل على محمد ﷺ ، وتعهّد الناس عليه ، دعوةً وتعهُّداً منهجيَّين على أساس من المنهاج الرباني .

ثم تمضي سائر القواعد الربانيّة للإصلاح في عمل منهجيٍّ مدروس ، حتى يشمل الفرد والأسرة والمجتمع في وقت واحد وعمل متكامل متناسق مترابط ، يمضي على نهج محدد وأهداف محدّدة ووسائل محدّدة وأساليب محددة ولكنها نامية متطورة ، خاضعة لمنهاج الله وملبية لحاجة الواقع .

يتضح لنا الفرق الكبير بين منهج الإصلاح في الإسلام ومنهجه في العلمانية والديمقراطيـة والعـالم الغـربي . فـروق كـبيـرة في النهج والأهداف والوسـائل والأساليب .

فالإسلام يدعو الفرد والجماعة والأمة إلى العمل الصالح . وتتكرر كلمة الإصلاح في الكتاب والسنة بجميع مشتقّاتهم لتلحّ بذلك إلحاحاً كبيراً .

ولنأخذ قبسات من ذلك للتذكير :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٠]

وآيات أخرى كثيرة .

وإن هذا الإصلاح الذي يدعو اللهُ إليه له أهدافه الصادقة وثماره الطيبة في الحيـاة الدنيـا (**فلنحيينّه حياة طيبة**) ، وله الجزاء الأوفى في الآخرة (**ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**) .

وتجتمع الأهداف كلها في هدف رباني كبير هو أساس سعادة الإنسان في

الدنيا والآخرة . ذلك الهدف للإصلاح هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]

لقد وضح الفرق بين النهجين ، وبين الإصلاحين ، وبين الدعوتين . إن الله سبحانه وتعالى يدعو إلى الإصلاح ، دعوة منهجيّة مفصّلة ممتدّة مع الدهر كله ، مع الرسل والأنبياء ، مع الرسالة الخاتمة والنبيّ الخاتم محمد ﷺ والكتاب الكريم .

أيها المسلمون هذا نداء الله ودعوته ، والله يأمركم أن تستجيبوا لدعوته ففيها حياتكم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥]

ليست مشكلتنا اليوم المرأة التي تضج الساحات بدعوتها إلى العمل السياسي ومساواتها بالرجل مساواة كاملة ، إن مشكلتنا الحقيقية هي الإنسان نفسه ، الرجل والمرأة ، والتصوّر الذي يعالج المشكلة الحقيقية . وليست مشكلتنا اليوم الديمقراطية ، فكل ما يمكن أن تدعو إليه الديمقراطية من زخرف هو أقلُّ ما يدعو إليه الإسلام من حق وصلاح وخير . إن الحرّية الحقيقية هي الإسلام ، والعدالة هي في الإسلام ، والحقُّ كله في الإسلام .

لقد دخلت المرأة المعترك السياسي في كثير من بلاد المسلمين ، فهل أعطى ذلك المجتمع إصلاحاً وقوة ، أم أنه غَرِق في مشكلات تتزايد ووهن وهزائم .

ومارس المسلمون الديمقراطية والبرلمانات سنين طويلة ، وصار لهم تجارب فيها ، فماذا جنوا إلا الفرقة والصراع والتمزّق .

على المنتسبين إلى الإسلام أن يقرروا أيريدون طريق الإصلاح الذي بيّنه الله لهم وفصَّله لينالوا عزّ الدنيا والآخرة ، أم يريدون الدرب الآخر ؟!! أيريدون أن يستجيبوا لله ورسوله أم لنداء الدنيا وشياطينها ؟!

والمفارقة الأخرى الكبيرة هي أنّ المسلمين هم الذين اختارهم الله ليدعوا الناس إلى حقيقة الإصلاح الحق ، ليدعوهم إلى رسالة الله ، إلى الدين الحق ، فما بالهم اليوم أصبحوا يُدْعَوْن إلى باطل ؟! هم الذين يجب أن يَدْعوا الناس كافّة لا أن يُدْعَوا !

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران: ١١٠]

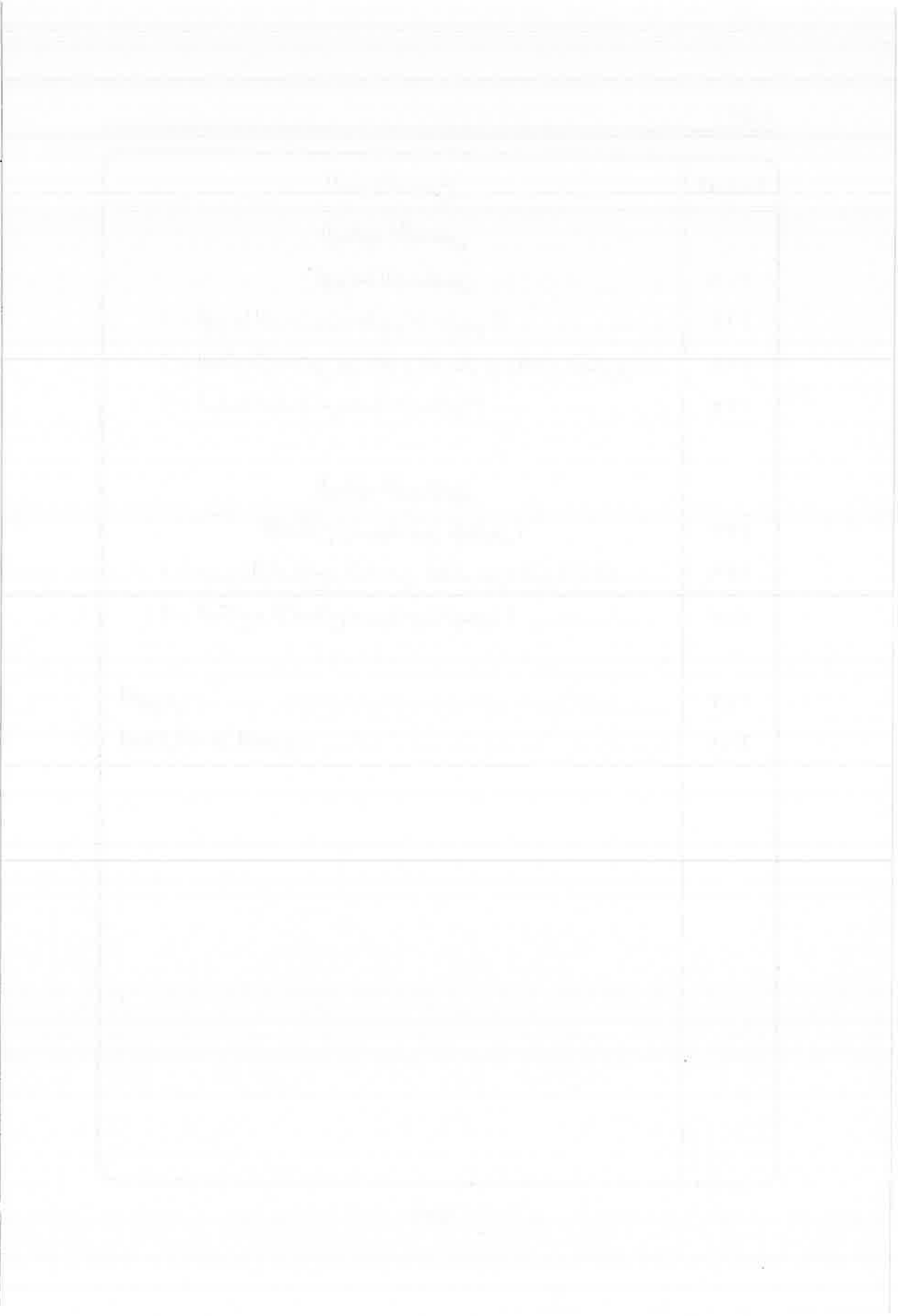
المسلمون إذا صدقوا الله وأوفوا بعهدهم هم خير أمة أُخرجَت للناس يتميزون من سائر الخلق بالدعوة الممتدة إلى الإصلاح : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾ [البينة: ٧]

أيها المسلمون ! انهضوا وأوفوا بعهدكم مع الله لتكونوا خير أمّة أُخرجَت للناس ، ولتكونوا خير البريّة !

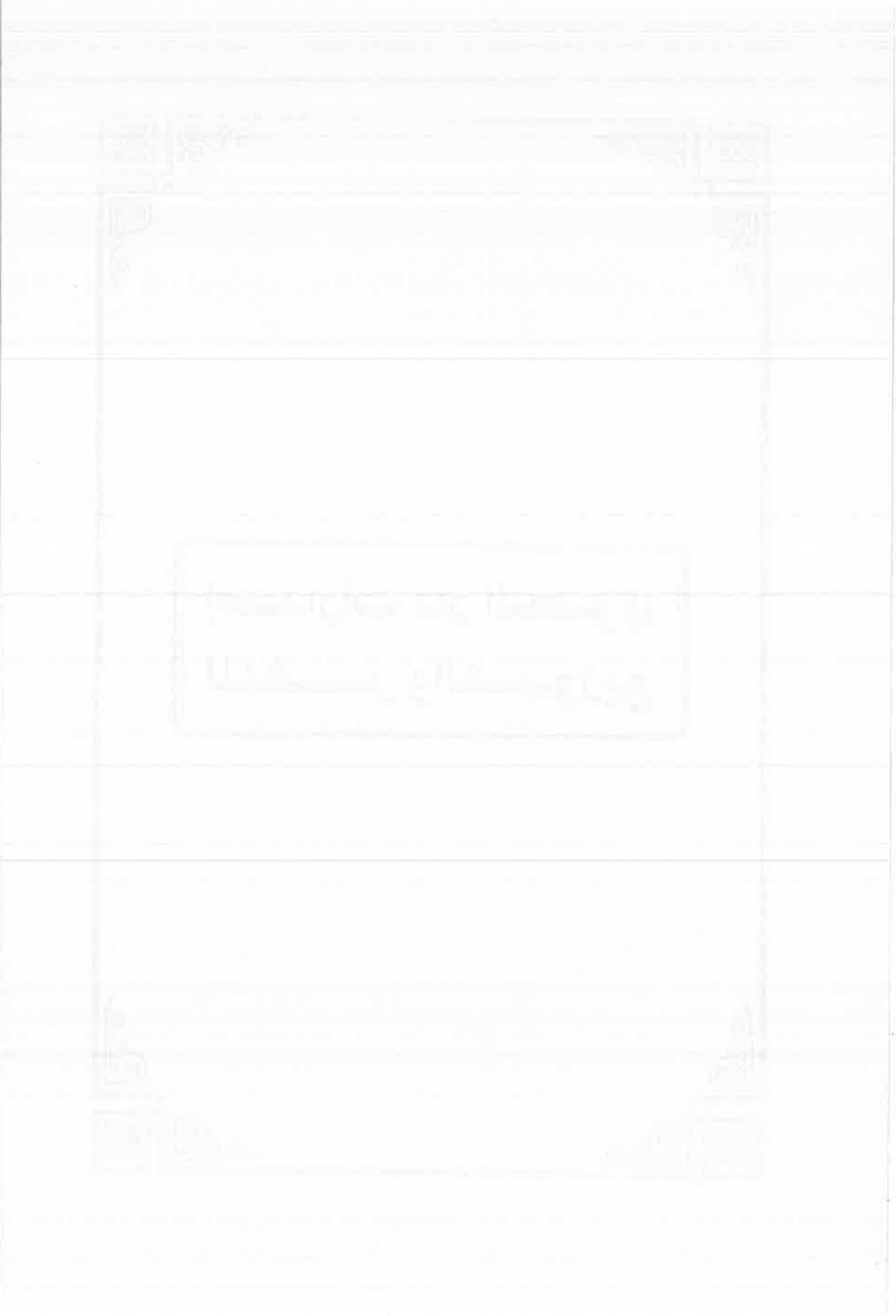
إن الغرب لم يحتلَّ العالم الإسلاميَّ كلَّه بجيوشه كما كان الحال في القرن التاسع عشر والعشرين ، ولكنَّه مدَّ علمانيّته تحت شعارات مختلفة ، حتى أصبح لها دعاةٌ من المنتسبين إلى الإسلام الذين أخذوا يدعون إلى مبادئها في أنحاء كثيرة من الأرض ، والذين أخذوا يبحثون في الآيات والأحاديث يفسدون تأويلها ليجعلوا منها حجّة على دعواهم ، فيشغلون المسلمين بقضايا ثانويّة تلهيهم عن القضايا الرئيسة في الأمة المسلمة ، وتثير بينهم التنافس على الدنيا والصراع على زخرفها ، وتفرّق الأمة شيعاً وأحزاباً !

فهـرس كتــاب
هوان المسلمين أمام الواقع
وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات





إصـــدارات دار النحــوي للنشـــر والتـــوزيع



إصدارات دار النحوي للنشر والتوزيع

* مـؤلفـات الدكـتـور عـدنان علي رضـا النحـوي

الرقم	اســـم الكتـــــاب	الطبعـة
	أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :	
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط ٢
٣	أضواء على طريق النجاة	ط ١
٤	النهج والممارسة الإيمانيّة في الدعوة الإسلامية	ط ٤
٥	كيف تلتقي الجماعات الإسلامية	ط ١
٦	الموجز الميسّر عن مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن	ط١
	ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية :	
٧	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٨	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٩	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
١٠	منهج لقاء المؤمنين	ط ٢
١١	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
١٢	لقاء المؤمنين - الأهداف - الجزء الثاني	ط ٤
١٣	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط٣
١٤	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الأول	ط ٢
١٥	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال - الجزء الثاني	ط ١
١٦	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط١
١٧	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط١
١٨	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٩	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميزها	ط ١
٢٠	التربية في الإسلام - النظريّة والمنهج .	ط١
٢١	النهج الإيماني للتفكير	ط١
٢٢	عهد الله والعهد مع الله بين التفلت والالتزام	ط١

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعـة
٢٣	حتى نتدبّر منهاج الله	ط١
٢٤	حتى نغيّر ما بأنفسنا	ط١
٢٥	لؤلؤة الإيمان فريضة طلب العلم ومسئولية المسلم الذاتية (المنهاج الفردي)	ط١
٢٦	النهج في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٢٧	الموازنة وممارستها الإيمانية	ط١
٢٨	الاختلاف بين الوفاق والشقاق	ط١
ثالثاً: كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج للدعوة والبلاغ والبيان:		
٢٩	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
٣٠	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
٣١	النية في الإسلام وبعدها الإنساني	ط ١
٣٢	النية إشراقة في النفس وجمال	ط ١
٣٣	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٤
٣٤	الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٣٥	الخشـــــوع	ط ١
رابعاً: كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع الإسلامي وأهم أحداثه وتعتبر الملاحم جزءاً من دراسة الواقع:		
٣٦	الشورى وممارستها الإيمانية	ط٤
٣٧	الشورى لا الديمقراطية	ط ٥
٣٨	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٣٩	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٤٠	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ١
٤١	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٤٢	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعيَة	ط ١
٤٣	المرأة بين نهجين الإسلام أو العلمانية	ط١
٤٤	على أبواب القدس	ط٣
٤٥	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٤٦	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ٢

الرقم	اسـم الكتـاب	الطبعـة
٤٧	حوار الأديان – دعوة أم تقارب أم تنازل	ط ١
٤٨	الانحراف	ط ١
٤٩	كيف ضيِّعت الأمانة التي خلقنا للوفاء بها ؟!	ط ١
٥٠	حرّية الرأي في الميدان	ط ١
٥١	هذا هو الصراط المستقيم فاتَّبعوه !	ط ١
٥٢	المسلمون بين الواقع والأمل	ط ١
٥٣	تمزق العمل الإسلامي بين ضجيج الشعارات واضطراب الخطوات	ط١
٥٤	الربِّـا وخطره في حياة الإنسان	ط ١
٥٥	الدعوة الإسلامية بين الأحزاب والجماعات	ط ١
٥٦	النبي العظيم والرحمة المهداة محمد ﷺ	ط١
٥٧	هوان المسلمين أمام الواقع وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات	ط١
خامساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى :		
٥٨	الأدب الإسلامي – إنسانيته وعالميته	ط ٤
٥٩	الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته	ط ١
٦٠	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط١
٦١	أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٦٢	أدب الأطفال الإسلامي وأثره في تربيتهم العقدية الصحيحة	ط١
٦٣	التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف	ط١
٦٤	لماذا اللغة العربية ؟	ط١
٦٥	الحداثة في منظور إيماني	ط٤
٦٦	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط٣
٦٧	الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام	ط ١
٦٨	الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية	ط١
٦٩	الشعر المتفلّت بين النثر والتفعيلة وخطره	ط١
٧٠	تجربتي الشعرية وامتدادها	ط١
٧١	قراءة في قصيدة مهرجان القصيدة	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
سادساً : الدواوين الشعرية :		
٧٢	ديوان الأرض المباركة	ط٦
٧٣	ديوان موكب النور	ط٤
٧٤	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٧٥	ديوان مهرجان القصيد	ط١
٧٦	ديوان عبر وعبرات	ط١
٧٧	ديوان حرقة ألم وإشراقة أمل	ط١
٧٨	درة الأقصى	ط١
٧٩	أكثروا ذكر هاذم اللذات - أب يرثي ابنه	ط١
سابعاً : الملاحم الشعرية وتعتبر جزءاً من دراسة الواقع وأحداثه :		
٨٠	ملحمة فلسطين	ط ٥
٨١	ملحمة الأقصى	ط ٢
٨٢	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط٣
٨٣	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٨٤	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٨٥	ملحمة القَسطنطينية	ط ٢
٨٦	ملحمة الغرباء	ط٣
٨٧	ملحمة أرض الرسالات	ط ١
٨٨	ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين	ط ١
٨٩	لهفي على بغداد	ط ١
٩٠	ملحمة بين سجن «أبو غريب» ورفح	ط١
٩١	ملحمة أفغانستان	ط١
٩٢	ملحمة الطوفان "تسونامي"	ط١
٩٣	ملحمة التاريخ ! قيام الدولة الإسلامية وسقوطها	ط١

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعـة
ثامناً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٩٤	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط٢
تاسعاً : كتب في علوم أخرى :		
٩٥	دراسة الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة «بالإنجليزية»	ط١
عاشراً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٩٦	لقاء المؤمنين - الجزء الأول «ترجم إلى اللغة التركية »	ط ١
٩٧	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «ترجم إلى اللغة التركية »	ط ١
٩٨	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع « ترجم إلى اللغة الإنجليزية »	ط ١
٩٩	لماذا اللغة العربية « ترجم إلى اللغة الأوردية »	ط ١
أحد عشر : الصوتيات والمرئيات :		
١	أضواء على طريق النجاة	فيديو وكاسيت
٢	لمحة عن واقع المسلمين أمراض وعلاج	فيديو وكاسيت
٣	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	فيديو وكاسيت
٤	الأسلوب والأسلوبيّة	فيديو وكاسيت
٥	درة الأقصى	فيديو وكاسيت
٦	النيَّة إشراقة في النفس وجمال ويَقَظَةٌ في القلب ووعي	فيديو وكاسيت
٧	حديث النفس بين الدنيا والآخرة	فيديو وكاسيت
٨	التعامل مع مجتمع غير مسلم	فيديو وكاسيت
٩	وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه	فيديو وكاسيت
١٠	قضايا في الأدب الملتزم بالإسلام	فيديو وكاسيت
١١	المسلمون في الغرب بين الإسلام والعلمانية	فيديو وكاسيت
١٢	محاضرة الوصايا والمواعظ	فيديو وكاسيت
١٣	ندوة شعرية - عمان	فيديو وكاسيت
١٤	ندوة شعرية عن فلسطين	فيديو وكاسيت
١٥	ندوة شعرية - جامعة قطر	فيديو وكاسيت
١٦	ندوة شعرية - مؤسسة (مركز) الملك فيصل	فيديو وكاسيت
١٧	محاضرة : «وحملها الإنسان »	كاسيت

* كتــب لمؤلفــين آخــريــن :

الرقم	اســـم الكتــــاب		الطبعــة
١	ملحمة بنت حواء المغربية	الدكتور عبدالرحمن عبدالوافي	ط ١
٢	النفخ في الطين قفو الأثر في أسماء السور	الدكتور حسن الأمراني	ط ١
٣	قصيدة الإسراء	الدكتور حسن الأمراني	ط ٣
٤	ديوان أين الطريق	مصطفى حسن حمد الله النبالي	ط ١
٥	من ذخائر التراث الإسلامي	الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي	ط ١
٦	الإبدال والإعلال دراسة نظرية تطبيقية في قصيدة البردة	الدكتورة منيرة محمود الحمد	ط ١
٧	معجم مصطلحات الأدب الاسلامي	الدكتور محمد بن عبدالعظيم بنعزوز	ط١
٨	قالت لي أمي - قصة	أفنان سمير الحلو	ط١

* كتــب للنشــر والتــوزيــع :

الرقم	اســـم الكتــــاب		الطبعــة
١	مواقف من التاريخ العربي	سليمان مصلح أبو عزب	ط ١
٢	موسوعة العالم في صفحات	سليمان مصلح أبو عزب	ط ١
٣	موسوعة الـ ١٠٠٠ سؤال في العلم والمعرفة	سليمان مصلح أبو عزب	ط ٤
٤	قطر والعالم الإسلامي - حقائق ومعلومات بيئية	سليمان مصلح أبو عزب وآخرون	ط ١
٥	بيضـة الديـك	يوسف الصيداوي	ط ١



دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢

موقع الانترنت : www.alnahwi.com

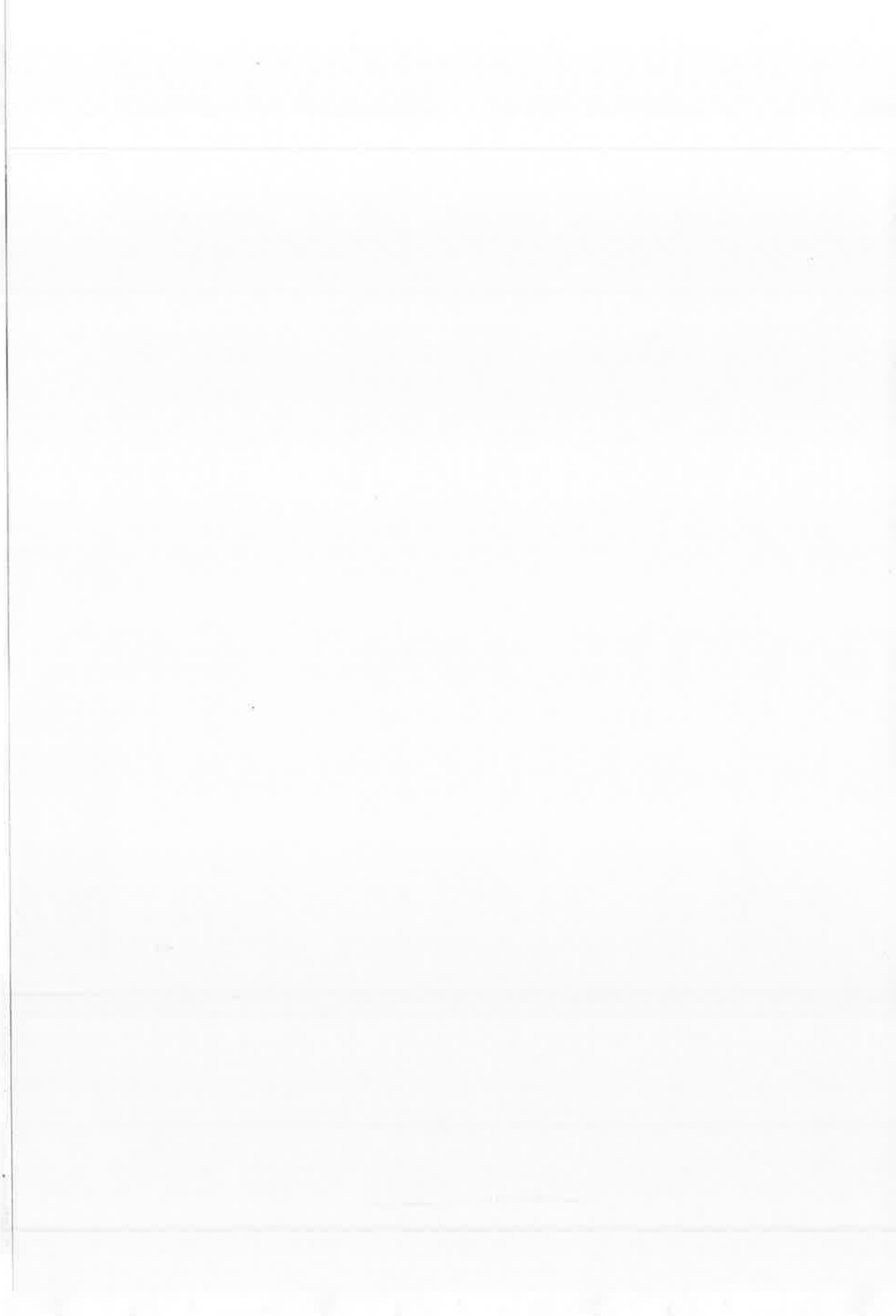
البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com

ص . ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

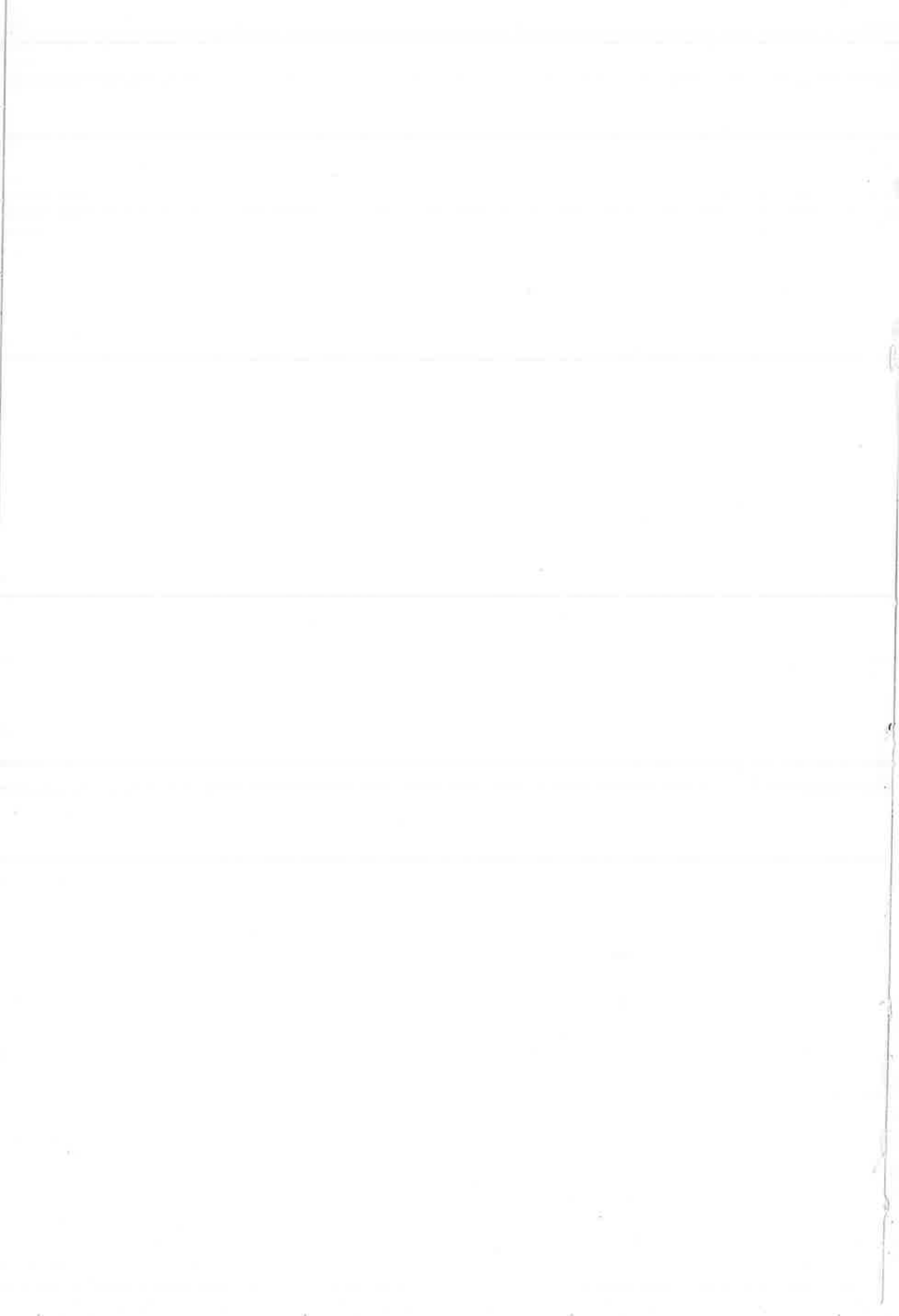
المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري - جمع الكمبيوتر - والتصميم والإخراج الفني بالتعاون مع :

وكالة وادي العمران للدعاية والاعلان - الرياض - هاتف ٤٧٣٣٠٥٠ ـ فاكس : ٤٧٣٣٠٦٠ - جوال : ٠٥٠٣٢٠٧٣٥٠



مطابع الحميضي ت: ٤٥٨١٠٠٠ ف: ٤٥٩٢٢١٧ الرياض



مع هذا الكتاب

هوان المسلمين أمام الواقع
وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات

إن الظاهرة الواضحة اليوم أن هنالك اتجاهاً إلى تقبل الفكر الغربي العلماني ومحاولة ربطه بالإسلام، محاولة تكشف عن شعورنا بالنقص والضعف، كلما جاء فكر جديد من الغرب هرعنا لنلبسه ثوباً فضفاضاً من الإسلام، أو نصبغه بصبغة من الإسلام أو طلاء منه، ألم نفعل ذلك مع الاشتراكية والحداثة والديمقراطية، ثم العلمانية التي تبنّاها مؤتمر إسلامي كبير في باريس، وجعلها مساوية للإسلام في مقصودها؟! إنها فتنة كبيرة حين نجعل العلمانية مساوية للإسلام في مقصودها! الإسلام مقصوده الأول هي أن تكون كلمة اللّه هي العليا في الأرض كلها، وأن يكون شرعه هو الذي يُطبق، وأن تكون الدار الآخرة هي الهدف الأكبر والأسمى للفرد والجماعة والأمة كلها. أما العلمانية فإنها تقرّر أن لا علاقة «للدين» بتنظيم الحياة، وأنه قضية شخصية لا علاقة للدولة بها، إلا حين تحتاج الدولة إلى استغلال الدين لمصلحة دنيوية!

إن هذا التراجع والتردد والتنازل هو أهم سبب في هوان المسلمين اليوم، أهم سبب في التمزق والاختلاف، أهم سبب في الهزائم التي ابتلينا بها.

إن من واجبنا اليوم أن نجهر بالإسلام، وبالإسلام وحده، كما أُنزل على محمد صلى اللّه عليه وسلّم، لا نساوم عليه ولا نتنازل عن شيء منه أبداً.

إننا نهدف من كتابنا هذا أن نُبيّن قدر ما نستطيع أن المسلمين لن يجنوا خيراً أبداً بالتنازل عن أي شيء من الإسلام، أو تحريف أي نصّ منه، أو بتأويل فاسد لنصوص أخرى. وإن باب النصر باب واحد، ألا وهو الاستقامة على أمر اللّه والاستجابة لأمره.

ردمك : ٠ - ٠ - ٩٧٧٩ - ٩٩٦٠

مطابع الحميضي ت : ٤٥٨١٠٠٠ ف : ٤٥٩٢٢١٧